علاقات خارج الإطار

رواية

تأليف

هدى المشهراوي

طبعة ٢٠١٩

المشهراوى، هدى

علاقات خارج الإطار: رواية/هدى المشهراوى؛ - الجيزة: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ٢٠١٨ .

٢٠٨ ص ,٢٠ سم

تدمك: ٧١٧٥ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

علاقات خارج الإطار

رواية

تأليف

هدى المشهراوي

رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢٠١٨/٢٢٨٢٧

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٧١٧-٥

الطبعة الاولى

طبعة ٢٠١٩

الكتاب : علاقات خارج الإطار

المؤلف : هدى المشهراوي

الغلاف : أحمد الصباغ

الناشر: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

sales@atlasdic.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكــس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

مقدمة

انها الكآبة، قالها الطبيب القبرصي مبدياً إستغرابه، لأن الكآبة وبحسب رأيه مرض لا يصيب إلا المترفين، فمن أين لي، أنا الآتية من الحرب والقهر ومخيّمات اللجوء،أن أُصاب بهذا الترف؟ كانت المرة الأولى التي أحصلُ فيها على وصفٍ لحالة الحزن التي تصيبني بين الحين والآخر، تشلّ روحي وجسدي، وتتركني حائرةَ القوى أكاد لا أقوى على مغادرة السرير. أجلس على الكنبة،أنام، وآكل وأشرب هناك، وحين أملّ من المشهد في غرفة الجلوس،أعود إلى غرفة نومي،أجلس في السرير لأيّام أُخرى متتالية، مدركةً أنني سأعود إلى سعادتي (بلادتي) السابقة بعد أن يسري مفعول الحبوب الكيماوية التي أتناولها، فتغيير المعادلة الكيمائية في جسدي العاق.

الكآبة أمر شغل تفكيري كثيراً، فلماذا يصاب البعض منا بالكآبة ولا يصاب بها البعض الآخر؟ لماذا يتأثر بعضنا بما يجري حولنا،بينما يمر نفس الحدث أمام بعضنا الآخر مرور الكرام ولا يترك في نفسه أي جروح؟ أيكون الاكتئاب مرض وراثي أم إنه نقص في المناعة النفسية؟ أم يكون خللاً هرمونياً بحتاً يصيب

النساء وبعضاً من الرجال، ممن تفيض هرموناتهم الأنثوية عن حاجتهم لها كرجال؟ في قبرص لم تكن حالة الكآبة التي شخّصها الطبيب القبرصي هي أول مرة تصيبني، ولم تنته مع الأسف هناك بل لاحقتني إلى حيث أعيش اليوم.

منذ صغري وأنا غاضبة وحزينة على هذا الإرث الاجتماعي الذي يلاحقني وترزح تحت ثقله حياتي كلّها. غاضبة أنا على تلك التقاليد التي تطال المرأة وتقلّل من شأنها، وتجعل منها تابعة ليس لها سلطة قرار على نفسها. منذ صغري وأنا رومانسية، حالمة، أحلم بالحب، وبالمساواة، وبالعدالة بين البشر، وكم مرة بُترت أحلامي، وكم مرة أُزهقت رومانسيتي على أبواب واقع وعالم الرجال. ألا تكفي كلّ هذه الخيبات كمادّة فخمة للكآبة؟

من هنا، من على كنبتي، ومع فترة جديدة من التّرف، أتابع الحياة ولا أشارك فيها، أتابع يومي من النافذة، أراقب الثلج المتراكم وصقيع الخارج الذي أتانا متأخراً هذه السنة. أراقب السناجب التي تعيش حياتها على شجرة قرب بيتي، تقضي يومها كلّه تصعد وتهبط بخفّة ومهارة على شجرة تعتلي الرّبوة التي تطلُّ عليها نافذتي، يذكرني نشاطُها الدؤوب بالعجزِ الذي أصاب همّتي.

في رأسي تضجُّ صورٌ لنساءٍ كثيرات قد يكون وضعهن أسوء من وضعي بكثير. أحاول أن أجمع شذرات تلك الوجوه، فأحولها إلى حياةٍ تمشي، تدقّ الأرضَ بأقدامها، تكون صاحبة نفسها وصاحبة قرارها، مخلوقات أقوى مني نفسيا، لا تلجأ إلى العقاقير لتهدأ روحها، لتستطيع التعامل مع هذا العالم.

أُريدها مخلوقات قويّة وقادرة على أن تقلب واقعها وتغيّره. وجوه كثيرة تمرّ سريعةً في رأسي ولا تتوقف، تتزاحم في رأسي المريض صور وجوه نساء عرفتهن سابقا، أو مررن في حياتي مروراً عابراً. وفي زحمة الصور تلك، تطغى صور وجوه نساء المخيم على كلّ ما عداها من صور، تلك الوجوه التي انطبعت في رأسي منذ الطفولة لنساء قويّات، لولاهنّ ولولا وجودهنّ في حياتنا ما كانت لنا حياة. عالم طفولتي مليء بهن وبصورهن، وهو يفتقر بشكل كبير إلى صور رجال المخيم الذين لم يكن وجودهم ملموساً في حياتنا اليومية، فكانوا إما في العمل أو في مقهى المخيم عاطلين عن العمل، يقضون الوقت بلعب الورق وشرب القهوة والشاي، وكانوا أيضا البعبع الذي تخيفنا به الأمهات، يأتون في الظلام ونحن نيام.

للنساء وحدهن كان شرف قيادة الحياة اليومية للقافلة التي كان اسمها المخيم، يسيّرن الحياة ببأس لا يهدأ ولا يستكين من

شروق الشمس وحتى وقت النوم. بيوت المخيم متلاصقة وهشّة الحيطان، حتى يكاد الجارُ يسمع وشوشةَ جاره. كان يذهلنُي أن أسمعَ صوتَ صراخ جارتنا في المساء تُضرب من زوجها، ثم أسمعُ صوت أنينِه بعد أن قضى وطرَه منها، وكأنها دابة يركبها حين يريد،وكأنه لم يضربها قبل قليل. لم أكن أفهم كيف لهذه المرأة القوية أن تُضرب وتُعامل بتلك الطريقة.

صغارُ كنّا، وأكثر ما كان يعجبنا ويشبع فضولنا هو أن نقضي وقتنا في المشاركة في جلسات النساء والتلصّص على قصصهن وأحاديثهن، تلك القصص التي كانت مدرستنا الأولى. كانت أمي تطردني من بينهن عندما يدخل الحديث مناطقَ حساسة، تقول اذهبي هذا حديث نساء لا يصحّ أن تستمعي اليه، وكنا نعود دائماً دون ان نلفت انتباههن ونستمع خلسة إلى العيب الذي طُردنا من مجالسهن من أجله. أحاديثهن تلك كانت في الغالب عن العلاقات الحميمة وشكواهنّ الدائمة من العلاقة الجنسية التي تُفرض عليهنّ كشرّ لا بدّ منه، كجزءٍ من واجبٍ تقتضيه الحياةُ الزوجية، وحق للرجل في زوجته ، ينصّ عليه الشرع والدين. فلئن رفضت إحداهن أداء هذا الواجب الثقيل بسبب التعب أو عدم الرغبة، يكون عقابها الضرب.

لم أرَ في حياتي مثل هذا الإنفصام، مجتمع جنسيّ، كل أخلاقه وأحكامه وأحلامه قائمة على الجنس وعن الجنس، وفي الوقت نفسه يحتقرُ المرأة، ويحتقرُ الجنس، وشتائمه البذيئة المهينة كلّها باسم أعضاء المرأة الحميمة. المرأة، العصب الأساسي في ذلك المجتمع والرجل فيه هو البعبع الحاضر الغائب، في شرق يتفاخر رجاله بالرجولة ويعيبون بخفة وهوان على النساء وهم كلهم بجملتهم صنيعة بحتة لجهد وتربية النساء. لا أدري كيف سيتمكن هذا المجتمع المضطرب جنسياً أن يصير يوما مجتمعاً سوياً؟

لماذا هذا الخوف من جسد المرأة؟ لماذا هذا التعتيم الذي فرضه الشّرق على جسد الانسان، جسد المرأة الذي جعل منه رديفاً للشيطان، وجعل من الجنس بعبعاً رجيماً يخيفنا منه، عقابه الرجم في الدنيا والنار في الآخرة، فعل شائن تمنعه وتحرّمه السلطات السماوية والقوانين الأرضية وتنهى عنه الموروثات.

تلاحقني تلك الوجوه في عز كآبتي وتفرض عليَ نفسها، وتطالبني بأن أثور لها، أن أغيّر من واقعها ولو حتّى بالكلمات. يرفضن بشكل كامل اقتراحي بأن أجمعهنّ في رواية، في قصة واحدة. يثُرن في وجهي ويرفضن، فكلٌّ واحدة منهنّ حكايةٌ تريد أن ترويها بنفسها.

مـن الممكـن جـدا أننـي أُهلـوس بسـبب الكآبـة، فاليـوم أجلـس علـى كنبتـي ومعـي خمسـة نسـاء اقتحمـن حياتـي ورأسـي، يجلسـن معـي، ينمـن معـي، ويفرضـنَ علـيّ مـا أقولـه ومـا أكتبـه. ومـن الـوارد جـداً أنهـن لسـن خمسـة نسـاء فقط،بـل أكثـر بكثير.فـكلّ واحـدة منهـن تحمـلُ الكثيـر مـن نسـاء أُخريـات عرفتهـنّ أو سـمعت عنهـنّ مـن قبـل.

هـنّ ثلاثـة، أمّ وابنتاهـا، ورابعتهـن سـلوى وقتيلـة، ولـكلٍّ منهـنّ قصتهـا التـي تريـد أن تقولهـا، أن ترويهـا بنفسـها وعلـى لسـاني. غـادة الأم وابنتاهـا رنـا وسـمر، وصديقتهـن يغزيـن عالمـي ويرسـمن علـى أوراقـي حياتهـنّ، وأفراحهـنّ وهمومهـنّ، ويعلـنّ بـلا خجلٍ بأنهـنّ أيضا مخلوقـات جنسـية كالرجـال، عندهـن الغريـزة، الحاجـة، وقـادرات علـى الاسـتمتاع بالجنـس، ويحتجنـه تمامـاً كالرجـال. يركضـن ورائـي، ينطقـنَ بلسـاني، بنـزق تتأفّـفُ سـلوى، تلهـثُ، تتكلـمُ بسـرعةٍ مذهلـة فـلا أدرك كلَّ مـا تقـول. تلـحّ علـيَ، تقـولُ، «دعـكِ منهـن، اسـردي قصتـي أنـا، التـي فرضـوا علـيَ المـوت في الحيـاة».

تلاحقُنـي سـمر الصغيـرة، تقـول، «أنـا أُريـد حريّتـي، أُريـدُ أن تحرّريـني مـن قيـودي، وأن تكتبـي بأننـي اكتشـفت جسـدي باكـراً، حين كنـتُ صغيرة،اكتشـتفت جسـدي ومتعتـه، تمامـاً مثلمـا اكتشـف أخـي سـرَّ جسـده ومتعتـه». تأتينـي غـادة ضاحكـةً، تـكاد ترقـصُ مـن فـرطِ

السعادة والحب، تفتح يديها وقلبها لتضمَّ بناتها إليها، تحتضنُ رنا، تشدُّها إليها بقوّة، رنا التي ظلمَتْها غادة حين فرضَتْ عليها الزواجَ صغيرةً كي تحمي شرفَها وشرفَ العائلة، تضمُّها إلى قلبها وتعتذر منها قائلةً، «سامحيني يا ابنتي لم أكنْ أعرف أفضل من الذي فعلتُه حينها، كنتُ جاهلةً، كنتُ ظالمة.

نسائي الجميلات هنَ إنتصاري الصغير على الكآبة اليوم.

هدى

●●●

صبحية

رفعت يدي اليمنى فيدي اليسرى كانت محشورة تحت ثقل جسده ولا أستطيع أن أُحركها، رفعت اليمنى ولم أعرف ما عساي أن أفعل هل أستر بها عري جسدي أم أحمي بها رأسي من زخات الرصاص، ثوان قليلة دام المشهد ولكنه كان واضحا أمامي كفيلم قديم بطئ بالأسود والأبيض يدور ويلف ولا ينتهي أمام عيني، زوجي يقف على باب الغرفة الضيقة يحمل الكلاشنكوف ويفرغ كل رصاصته فوقنا أنا وكمال. دماءنا تملأ المكان وعرينا مكشوف أمام أهل الحي كلهم بعد أن دعاهم زوجي ليشهدوا على فعلتي. أتى الناس متراكضين عندما سمعوا صوت الرصاص. قتيلة أنا أتمدد عارية يستر جزء من عري جسدي جسد كمال المتمدد فوقي. دمي أختلط بدمه أسمع أصواتهم تتزاحم تبارك لزوجي بطولته وتطلق علي وعلى عشيقي أسوء النعوت. لم يهمني كثيرا ما يقولون فأنا ميتة لن يضيرني حقدهم وصراخهم «عاهرة تستحق الموت» ، «الله محي أصلك أبو أحمد غسلت عارك وأرتحت منها فلا يشرفك أن تكون مثلها في بيتك تربي أولادك». أولادي كم آلمني أن يقف أولادي هناك يشاهدون أمهم مطروحة مكسوة بدمائها عارية محشورة تحت جسد رجل غريب. أشفقت

عليهم على وجوههم الشاحبة يقفون فاغري الأفواه لا يفهمون المشهد، صغار هم وصعب جداً هذا الذي يحدث أمام أعينهم الأن ، هل يبكون هل يصرخون لمشهد موت أمهم الحنون التي تحبهم ويحبونها أكثر ما في الكون، لكنهم لم يبكوا ولم يصرخوا وفهموا بفطرتهم بغريزتهم بأن الحزن والبكاء في هذا الظرف ممنوع. إبراهيم إبني المراهق اليافع يقفز بالهواء يصرخ تغوص يديه ورجليه بدمي (يلبط) جسدي برجليه، يحاول كالمجنون أن يسحبني أن يجرني إلى الخارج أن يحرر جثتي من تحت ثقل الجثة الأخرى ولا يستطيع، يتركني ويقفر فوقنا من جديد وكأن هستيريا أصابته، أُشفق عليه، يصرخ يضحك ويبكي ويكيل لي اللعنات.

كم خجلت من سلوى الصبية بكري تقف هناك تنظر إلى المشهد برعب قاتل لا تتحرك بعد أن غسلتها شلالات دمي فما كان منها إلا أن هربت من فرط الذهول وأختبئت في البيت لا تدري كيف تواجه ما حل بها وبأمها. وصغيرتي ندى التي لم تتجاوز الرابعة بعد تلتصق برجل والدها تصرخ وتبكي وهو غير عابئ بها يدفعها عنه لكي تسكت وتبتعد.

الضجيج من حولنا يتزايد، البعض يقول أُستروا عوراتهم ألقوا عليها غطاء، وآخرين يعترضون ويقولون لا فالزناة يستحقون هذه

الفضيحة ليكونوا عبرة للآخرين. أخيراً وبعد حوالي الساعة جاء مسؤولون من الميليشيا التي كانت تحكم المخيم حينها، نظروا بعيون شامتة إلى مشهد الموت أمامهم، وطبطب أحدهم على كتف زوجي وقال القضية واضحة المعالم لا جريمة في الأمر فالمجرم نال جزاءه.أتوا بعدها بحرام أسود رخيص من تلك الحرامات التي كانت تأتي كإعانات لأهل المخيم، لفوا به جسدينا العاريين النازفين حملونا في سيارة جيب إلى مقبرة المخيم حفروا حفرة عميقة ورموا بنا هناك وأهالوا فوقنا التراب.

لا صلاة ميت لا أسم أو تاريخ يدل على أننا مررنا يوما بهذه الحياة.

أخاف العتمة أنا،أخاف الظلام وصديقي في الحفرة ميت لا يتحرك،يتضاعف ثقل جسده فوق جسدي حتى إنني بدأت أشعر بالإختناق وبدأت تصلني برودة الموت الآتية منه ومن رطوبة التراب وتصيبني بالإرتجاف، تتسرب البرودة إلى أحشائي الداخلية تطفأها.

منذ صغري وأنا أخاف الظلام وأخاف الوحدة ولا أحتمل البرد. فقراء كنا نسكن في قرية قريبة من أطراف بيروت من مجمعات البؤس التي أحاطت بالمدينة، لا أرض لنا نزرعها ونعمل أُجراء في أراضي الأخريين بإجر كان بالكاد يكفي طعامنا وشرابنا.

بيتنا كان عبارة عن غرف واحدة، سرير حديد في إحدى الزوايا بجانبه طاولة تصف عليها أُمي أربعة فراشات تمدها في الليل على الأرض لننام. وفي زاوية أُخرى من الغرفة تمتد فرشتين إسفنجيتين أمامهم طبلية مستديرة تستخدم كطاولة طعام وكمقعد نجلس عليه وقت الإستحمام. مطبخ صغير معتم فيه نملية قديمة بابها مخلوع تركزه أُمي بمسمار، فيها بعض صحون بلاستيكية وأخرى من الألمنيوم وفناجين قهوة وكاسات ماء وشاي، طنجرتين وصينية من الألمنيوم ومقلاة قديمة. وعلى الأرض في الزاوية بابور الكاز ووعاء للغسيل والاستحمام وصفيحة الماء. لا كهرباء في بيتنا ولا ماء، الماء نحضره أنا وإخوتي كل يوم من حنفية حاووز في ساحة القرية ونستعيض عن الكهرباء بمصباح قديم يعمل على الكاز. وفي ليالي الشتاء القارصة نتدفئ على بابور الكاز وتتدفئ أجسادنا ببعضها البعض حين ندخل الفراش.

صبيحة إسمي، أطلقت علي أُمي هذا الأسم لأنني ببساطة ولدت في الصباح فلم تشغل بالها وتبحث لي عن إسم، وقال والدي أتت بإسمها معها، لم أحب هذا الأسم يوما وكم تمنيت لو أنني أغيره لا أحب الصاد والحاء في إسمي أحسه ثقيلا على الأذن. لو خيروني لأخترت مثلا اسم ندى أو ليلى او حتى هدى إسم خفيف الوقع على الأُذن والقلب.

أخاف العتمة كما سبق وأسلفت أخافها للكثير من الأسباب أولها أن حمام بيتنا كان في الخارج وفي الليل عندما تشتد حاجتي إلى التبول كان عليَ أن أخرج وحيدة في الظلام تلاحقني قطط وكلاب الشارع الشرسة والجرذان. كم من المرات غلبني الخوف وعملتها في فراشي رغم معرفتي بالقصاص الذي كان ينتظرني على يدي أمي في الصباح. تضربني وتعضني تشدني من شعري تسبب لي الألم ويصطبغ جسدي بالعلامات الزرقاء، وكم مرة هددت بأن تكوي عضوي بالنار إذا إستمريت في التبول في فراشي.اشفق على أُمي وأفهم غضبها، فتبولي بالفراش يعود بعواقب وخيمة عليها هي المسكونة بهاجس النظافة فتضطر لغسل وتنجيد القطن من جديد بعد كل مرة أقوم فيها بفعلتي تلك، وعندما يأست من توبتي وتعبت من كثر ما غسلت فراشي حتى كاد أن يبلى،أستعانت بشرشف من النايلون كانت تضعه فوق فرشتي تحميها من تبولي، غير إن هذا كله لم يكن يشفع لي بأن لا أتعرض للضرب منها في كل صباح أقوم فيه من نومي مبللة.

السبب الثاني لخوفي من العتمة هو أيدي إخوتي التي كانت ما أن تطفئ أمي فتيل السراج ويرتفع في الغرفة شخير أبي،حتى وتبدأ يد أحدهم بالتحسيس على جسدي، يلتصق بجسده بي أتيبس انا من الخوف وأفتعل النوم علّه يبتعد عني، ولا يبتعد أحس بشيء صلب كالحديد يحتك بأسفل ظهري وبمؤخرتي، تتسارع أنفاس أخي

ويقتلني الخوف هناك ولا أعرف ما الذي يجري، صغيرة جدا كنت ولا افهم شيئا عن الجنس والرغبات. كان أخي يتركني لحالي بعد أن تهدأ أنفاسه وينام وأنام أنا على قلقي وعلى خوفي أنام.

لم يتغير الأمر كثيرا بعد أن كبرت وبدأ جسدي بالتفتح بل إن الأيدي صارت أكثر جرأة تمتد لتلامس نهدي وأعضائي الحميمة، الغريب في الأمر بأنني أنا أيضاً بدأت أشعر بالحرارة تمتد في جسدي من جراء تلك الملامسات غير إن خوفي كان اكبر منها، فكان يسكتها. استمرت الحالة كما كانت عليه سنين ولم أكن أجرؤ على ان اشكوهم لأمي أو لشخص آخر.

إخوتي كانوا أشداء وكنت أخافهم جدا، رباهم أبي على القسوة وعلى البأس تربوا في الحقول تحت الشمس بين سهول الأرض وهضابها، لا يعرفون غير الفأس والشجر والتربة، ربما كان لهذه النشأة وتلك العلاقة الوطيدة بالأرض السبب الذي جعل منهم جميعا قساة مثل الأرض صخورها التي يطوعونها. كان أبي شديدا جدا قاسي القلب قليل الكلام يضرب أمي لأقل سبب أمامنا جميعا، ويقول لأولادها الصبيان تعلموا المرأة لا تأتي إلا بالضرب تماما مثل السجادة تحتاج أن تضرب لتنظف وتلين.

كان أبي يعمل في أكثر من عمل حتى يكفي عائلته، ثلاث أيام في الأسبوع يدورعلى حماره على قريتنا والقرى المجاورة يبيع

ملابس مستعملة، طناجر المنيوم قديمة ويشتري من الناس ما يزيد عن حاجتهم منها. وفي الأيام التي لا يسافر فيها على حماره ينزل الحقل معنا أنا وأمي واخوتي، نقضي فيه يومنا كاملا ولا نعود إلا في المساء، نأكل ما تكون أمي قد جمعته من نبات كالعلت والخبيزة تقليه بالقليل من الزيت نأكلها مع البندورة والبصل إنتاج حاكورة بيتنا وننام. تصحو أمي قبلنا جميعا وقبل انبلاج الفجر تعجن وتخبز وتغسل غسليها ثم تعد لنا الإفطار شاي وزيتون وزعتر وتعد كذلك زوادة الحقل .

كان هم أبي حسب ما يقول كبير جداً، فهو لم يكن يريد في خلفته بنات وكان شديد الفخر بأن أولاده كلهم من الصبيان، إلا تلك الغلطة التي قامت بها أم سالم حين أتته بصبحية، يقسو علي ولا يكلمني وكأنني شيء غير مريء غير موجود، ويوصي إخوتي بأن لا تسهى عيونهم عني لأنني بنت وهم البنات للممات، وبأن البنت إن لم ترص جيدا تجلب لأهلها العار. فكانوا أشداء في رقابتهم علي لا تسهى عيونهم عني ولم يكن لدي صديقات، لم أذهب أبداً الى المدرسة ولا حتى إلى الكتاب في القرية لأتعلم القرآن وفك الخط فالحقل يحتاج أيدينا كلها ثم إن التعليم وهمومه ليس للبنات، هذا ما كنت أسمعه من أُمي وما كانت ترددده دائما، فليس للبنت في النهاية إلا بيتها وزوجها وأولادها.

عندما كبرت قليلا أدركت بأن الله لم يمنحني الكثير من الجمال، وجهي أقل من عادي يميل إلى القبح تملؤه البثور وجسدي ممتلئ أكثر من اللازم أردافي كبيرة وصدري كبير ولست بالطويلة لتختفي بطولي ضخامة جسدي، بلغت الرابعة عشر ولم يأتيني من القرية أي خطيب لم يدق بابنا أحد مما زاد الهم على قلب والدي وحمل والدتي الذنب، وكم من المرات سمعته يعنفها ويقول لها بأنها السبب بهذا المصاب فهي أنجبتي ولم تكتفي بأن انجبت بنت بل بنت قبيحة ونحن فقراء لا مال يغني عن الجمال فمن الذي سيتقدم لخطبة أبنتك، ستبقى هذه البنت هم على قلبي حتى الممات. ويتمنى لو يستطيع أن يخفيني عن وجه الأرض ثم يعود ويستغفر ربه لأن النبي الكريم والدين حرم وءد البنات.

وأنا لم أكن فقط قبيحة في نظر عائلتي وحسب بل إنني كنت علاوة على ذلك بنت خفيفة ضحكتي قريبة وعالية، وأقول ما يخطر على بالي دون تفكير، خفيفة رعناء تقول أمي وتزجرني لا تضحكي بغير سبب فالضحك بلا سبب قلة أدب، هل تريدين أن يقول عنك الناس (هبلة)، إتقلي قليلا ولا تفضحينا، وتمنعني من الإختلاط بالآخرين. إلا أن كل إحتياطاتهم وتشددهم نحوي وكل القيود التي وضعوها حولي لم تكن لتمنع من أن تلاحقني نظرات الشباب في حينا حتى الرجال الكبار منهم فما كنت أمر من أمامهم إلا وأشعر بأن أعينهم تكاد أن تأكل صدري وأردافي.

تجرأ أحدهم مرة وأستفرد بي عندما كنت أجمع جذوع الأشجار والحطب الناشف الذي تستعمله أمي لتشعل به طابون الفرن وموقد النار لغلي الماء للغسيل وخلافه، كنت هناك على أطراف القرية وراء حاووز الماء القديم، وهو شاب كنت قد لمحته مرات عدة يجلس على باب دكان أبو اسماعيل في وسط القرية، شاب بعمر أخي سالم، إقترب مني وسلم، فضحكت ولم أرد ثم سألني إن كنت أحتاج إلى المساعدة فلم أرد وإستمريت في الإبتسام، فتقدم نحوي وأمسك بيدي ولم أصده وضحكت من الخوف، ضغط أكثر على يدي ثم سحبني وبشدة ألقى بي على الحائط خلف الحاووز والتصق بي ضغط بثقل سجده فوق جسدي حتى الصقه تماما بالحائط، مد يده إلى صدري أخرج نهدي بين يديه نهشه بأسنانه ثم إمتدت يده تحسس على عضوي الحميم تعصره ويحك قضيبه به حتى إبتل سرواله. أحسست بالنشوة تغمرني وأصابتني رعشة لذيذة، تملصت منه بعدها حملت ما كنت قد جمعته من أغصان جافة وهربت من هناك يسبقني في الطريق إلى البيت خوفي. لم أقابله بعدها رغم أنه حام حول بيتنا عدة أيام ، خفت إن أنا قابلته مرة أُخرى أن يعرف إخوتي ويكون الموت على أيديهم قصاصا لفعلتي.

قلقت أمي كثيرا لأمر تأخر خطبتي ولم تدع شيخا أو مبروكا في قريتنا أو في القرى المجاورة إلا وذهبت إليه وأستشارته في

أمري. لعل أحدهم يكتب لي حجاب تنفك ببركته عقدتي فيحبب خلق الله بي ويتقدم أحدهم لطلب يدي. كان خوفها من أبي كبير وكانت قلقة جداً لأمري وتخاف أن تتحقق نبؤته فلا أتزوج أبداً. كان لوم أبي لها وتحميلها ذنب عنوستي وانا لم اكمل الخامسة عشر بعد، هو السبب الرئيسي الذي دفع بها لأن تسلك تلك المسالك وتدفع نقودها القليلة للشيوخ والعرافين. هي التي توفر القرش على القرش لتستر عرينا وتسد جوع أفواهنا النهمة الجائعة، فتذهب قروشها لهذا الشيخ أو ذاك حتى تضمن لي العريس. قال لها أحد الشيوخ بأنني مسحورة، مرصودة، وبأن على أمي أن تدفع له مبلغ لم تكن تحتكم عليه لكي يقوم بفك السحر. أقتصدت أُمي ووفرت ودفعت ما قدرت على توفيره ورجته أشد الرجاء وشكت له فقرها وضيق حالها، إلى أن حن قلبه عليها وخفض لها ثمن الرقية التي ستأتي بالعريس.

أعطاها الشيخ أوراق مكتوب عليها كتابات غير واضحة وغير مفهومة وقال بأنها رقية، عليها أن تنقع كل يوم ورقة منها بالماء المغلي وتسقيني منها قبل أن أنام، وفي الصباح قبل أن أتناول أي طعام أو شراب على سبع أيام وسبع ليال وسيأتي العريس مع هلال القمر الجديد بشرط أن لا أكلم أحد. شربتها كلها ولم أكلم أحد وهل الهلال وبعده الهلال ولم يأتي العريس. بعدها قامت أمي بإستشارة حجة مبروكة في قرية مجاورة لقريتنا، لم ترضى

تلك الحجة بأن تأخذ ثمن استشارتها مال فهي تفعل ما تفعله لوجه الله ولتكسب حسنات تضاف إلى حسابها في يوم الحساب. لكنها رضيت بهدية كانت عبارة عن بيضتين وعدة رؤوس بندورة قطفتها أمي من حاكورة بيتنا، نصحت الحجة أمي بأن تذهب بي إلى البحر وبأن تمررني من فوق سبع موجات وتغسلني بماء كل موجة وتقرأ المعوذات الثلاثة سبع مرات، وهذا كفيل بأذن الله بأن ينفك السحر ويأتي العريس. الشرط طبعا أن أكون طاهرة، وطلبت من أمي الحذر التام فدماء الحيض نجسة فاسدة، وأن حصل وكنت حائض ومررت تحت السبع موجات، عندها سيتعقد السحر سبع عقد ولن يستطيع أحد أن يفكه أبداً، وأبقى أنا عانس في بيتها إلى الأبد.

كأن باب السماء كان مفتوحا، وكأن الله حن على أُمي واستجاب أخيرا لدعاءها وصلواتها بأن يرسل لي عريساً يريحها من همي ويخفف عنها لعنات وغضب أبي. فجاء العريس رجل أصغر من أبي بقليل أرمل فلسطيني يعيش في المخيم على أطراف بيروت، له ولدين ماتت زوجته وهي تضع طفلها الصغير. وافقت عائلتي عليه فورا ولم أُسأل إن كنت أوافق على هذا الزواج، في الحقيقة سعدت أنا ايضا بفكرة بأنه سيكون لي بيتي وزوجي وسأتخلص من قسوة أبي وأخوتي وتسلطتهم علي.

تزوجت وأنتقلت مع أبو أحمد الى بيته في المخيم، بيت صغير مؤلف من غرفتين وحمام ومطبخ صغير، غرفة تستخدم للنوم ليلا وللمعيشة في النهار، ننام أنا وأبو أحمد على السرير وعلى الأرض تحتنا وعلى فراش من الإسفنج ينام أولاده. الغرفة الأخرى يضع فيها أبو محمد لوزام العمل عدته وتستخدم أيضاً كمستودع للخزين من زيت وزيتون وزعتر وخلافه من مؤنة السنة. وفي صحن الدار قرب باب البيت هناك حمام صغير جدا بالكاد يتسع لشخص واحد، يأتي بعده المطبخ ثم شباك في وسط صحن الدار يطل على بيت الجيران نبقيه دائما مغلقا ولا يفتح إلا في الحالات النادرة والطارئة.

كان البيت بكل ما فيه من أساس كما تركته زوجته الميتة حتى ملابسها كانت هناك فلبستها وأخذت مكانها في مطبخها في فراشها وأصبحت بين ليلة وضحاها وأنا في السادسة عشر ام لأولادها. أبو أحمد رجل في اوائل الاربعينات من العمر، مقتصد في كلامه، يستطيع أن يجلس لساعات طويلة في البيت دون أن يقول كلمة واحدة، يستمع إلى الراديو ويقلبه بين المحطات، ولا يهدأ إلا على محطته المفضلة التي كانت إذاعة لندن، لا يفوت نشرة إخبارية من نشراتها، ويفرض علينا الصمت التام حين تبدأ نشرة الأخبار. كان زوجي معتدل الطول يحتفظ ببقايا وسامة كانت له أيام شبابه، شعره اسود فاحم يكتسي بالبياض على

الجانبين، سريع الغضب يثور بشكل سريع ولا يستطيع ضبط غضبه، ولا يهدأ إلا بعد أن يضرب الشخص الذي تسبب بثورة الغضب تلك. تصرفاته في الخارج ومع الآخرين كانت عكس ما كانت عليه في البيت، فكان هادئا صبورا لطيفا مع الآخرين، كأنه يعيش بشخصيتين متناقضتين، وتحسدني الجارات على هدوءه وصبره وطول باله.

أبو أحمد يعمل منجدا وسنكري في الوقت نفسه ويقصده كل أهل المخيم ويعرفونه يصلح لهم حنفيات الماء وينجد فراشهم، كان دائم العمل لا يهدأ ولا يرتاح وفي أحيان كثيرة كان يستدعى لتنجيد فراش لبعض العائلات اللبنانية التي تعيش في المناطق المحاذية للمخيم، ويطلبونه أيضاً إذا ما تعطلت أو إنسدت مجاري الماء في حماماتهم. على الرغم من وفرة العمل لأبو أحمد، إلا انه لم يكن ليوفر له دخلا جيد، ولم يكن دخله بالدخل الكافي لإحتياجاتنا، فأغلب أهل المخيم فقراء عاطلين عن العمل لا يستطعيون الدفع مقدما ويطلبون منه أن يسجل دينهم في الدفتر إلى حين ميسرة.

بيتنا في المخيم كان يقع على مفرق بين زقاقين أحدهم مغلق لا مخرج له، فيه بيتين غير بيتنا، وآخر طويل تصطف على جانبيه البيوت يضيق مسرب الزقاق في بعض الأماكن حتى لا يكاد يتسع لمرور شخص واحد ثم يعود ليتسع قليلا في أماكن أُخرى، ويلتف

حول بيت قائم في الوسط ويعود ليكمل مساره إلى أن ينتهي عند الحرش الواقع على أطراف المخيم والذي يشكل حدوده الجنوبية. البيوت متلاصقة متقاربة تستطيع أن ترى كل ما يدور في بيوت الجيران وتسمع حتى وشوشاتهم. على مقربة من بيتنا دكان الحي تبيع اللوزام الأساسية من شاي وسكر وعدس وحمص وجبن ولبن وبعض ما يحتاجة الصغار من أقلام ودفاتر لوازم المدرسة.

جاءت الجارات لتباركن زواجي وبسرعة تعرفت على أغلبهم وأصبحنا نتقاسم هموم الحياة الصعبة في المخيم. إلا أنني لم أخذ منهن صديقة فأنا لم أكن معتادة على الصداقات، وهن كن ينظرن إلي بريب، بسبب أصولي اللبنانية وكوني حللت مكان أم أحمد جارتهم الطيبة، وكنت أيضا خفيفة قريبة الضحكة الأمر الذي أثار بعض من همساتهن حولي، وكأن قسوة الحياة التي يعشنها لا تحتمل القليل من المرح. لكننا لم نكن أعداء فوقتنا وقسوة حياتنا لم تكن تتسع لحب أو لعداوة بيننا.

كم من المعارك حصلت بين الجيران، وكان سببها في أكثر الأحيان خلاف نشأ بين الأطفال أو بسبب نساء إختلفن على أحقية الدور في الماء، فتقوم المعركة صراخ وضرب نساء ورجال ينزلن إلى الشارع، الرجال يتسلحون بالعصي والنساء تتسلحن بالعض وشد الشعر، فتسقط الإصابات وتسيل الدماء ولا تنتهي

المعركة إلا بعد أن يتدخل الآخرين من الجيران، وفي أحيان كثيرة ولأسباب مجهولة كانت المعركة تتسع فلا تعود حكرا على عائلتين بل يدخل اليها ويصير طرفا فيها بعض ممن تدخلوا من أجل وقف النزاع، أيدي تتشابك وعصي تطير بالهواء ولا تعود تعرف من مع من ومن ضد من. تنتهي المعركة بطريقتين فإما أن يدب بالمتعاركين التعب، وإما أن يتدخل كبراء المخيم فينفض الإشتباك ويذهب كل إلى بيته، يغلق بابه عليه، ولا تعود تسمع غير أصوات النساء تعلو من وراء الشبابيك ومن خلف الأبواب المغلقة تكيل الشتائم لبعضها البعض وتتوعد وتهدد بالثأر.

في اليوم التالي ينعقد مجلس الصلح بين العائلات المتنازعة يقوم عليه كبار المخيم ويجلس طرفي النزاع كل على حدى، تظهر على وجوه وأجساد أغلبهم الكدمات من آثار جولة الأمس. يتصالح الجيران ويعودوا أحباء وتدور في مجلس الرجال القهوة، وتتبادل النساء القبلات وطلب السماح، يشربون قهوتهم ويضحكون في وجوه بعضهم البعض وكأن الأمس ومعاركه وخسائره ما كان.

لم يكن زوجي يشارك في تلك المعارك فلقد كان وحيدا في المخيم، باقي عائلته إخوته ووالدته يعيشون في مخيم آخر في الجنوب، فلم يكن له في المخيم عزوة يتكئ عليها، لذا كان بعيدا عن المعارك، وكان يتجنب الخلاف مع أحد الأمر الذي اعطاه حصانة ومكانة محببة بين الجميع.

زوجي لم يكن يقضي في البيت إلا القليل من الوقت فأغلب وقته يقضيه في العمل في تنجيد فراش الأخرين في بيوتهم أو في تصليح حنفياتهم. كنت أقضي يومي في التنظيف والغسيل والعجين وإعداد الطعام والأهتمام بأولاده الصغار الذين عاملتهم دائما كأولادي ولم أفرق بينهم وبين أولادي حتى بعد أن انجبت له ستة أولاد آخرين. كنت ما أن ينقضي النهار في عمل المنزل الشاق وينام الصغار حتى أحس بأنني اصبحت كخرقة بالية أنهكها التعب ولا أطمح إلى شيئا آخر غير أن أنام وفي احيان كثيرة كنت أنام بجانب الصغار وقبل أن يعود زوجي إلى الدار.

يمارس زوجي حقه الزوجي مرة في الأسبوع ، يدخل إلى الغرفة وبغير كلام يخلع ملابسه يطرحني على الفراش يستلقي فوقي يشد فخدي يثبتهم تحته يدخل بي ويهتز مرتين أو ثلاثة وبعدها ينقلب عني وينام. هكذا كانت حياتي الجنسية معه عملية تلقيح ينتج عنها بعد تسعة أشهر طفل ولدت له إبنتين وأربعة صبيان، سلوى البكر ثم جاء بعدها إبراهيم ثم علي وبعده حسن وحمزة وأخر العنقود ندى الصغيرة دلوعتي ومهجة قلبي التي أتت بعد أن إعتقدت بأنني إكتفيت من الحمل والولادة، بينها وبين حمزة ٧ سنوات وتكبرها سلوى بخمسة عشر سنة. مرت السنين سريعة على زواجنا وكبر الأولاد قبل أن تداهمنا الحرب الأهلية وما تلاها من حروب. هرم زوجي أهرمه العمل والعمر وقسوة

والحياة، وأنتهت علاقة الجسد بيننا اللهم فيما عدا المرات القليلة التي كان يحاول فيها أبو أحمد ولا يوفق في أغلبها. هرم زوجي وأنا مازلت في ريعان الصبا والنضوج الجنسي، جسدي متفتح عطش يريد الكثير ولا يحصل على مبتغاه.

كان أبو أحمد يعاقبني بالضرب بعصا المنجد في المرات التي يعجز فيها عن الجماع كأنه يحملني مسؤولية عجزه، وكان يضربني أيضا إذا ما اقترفت خطأ أو قلت كلام لا يعجبه كما يضرب أولاده الصغار، لم يكن أحد من الجيران يتدخل ليوقفه عن ضربي مهما علا صراخي، فهذا الأمر كما العلاقة الجنسية شأن خاص بين الرجل وزوجته ولا يحق لأي أحد التدخل فيه. حتى أنا لم أكن أتوقف عند الأمر كثيرا، فكنت في اليوم التالي أكلمه وأقوم على خدمته وخدمة بيته وكأن شيئا لم يكن.

الحق إنني كنت ست بيت ممتازة بيتي نظيف مثل الفلة، مدبرة اقتصادية من الدرجة الأولى أصنع بالقليل المعجزات، فقد كنت أنتظر نهاية مواسم الخضار من باذنجان وباميا وملوخية وخيار وغيره أشتريها بأسعار زهيدة جدا أعلب بعضها وأجفف بعضها الآخر، أعمل من المربيات أشكال ومن المخلل أنواع مختلفة، كنت أشتري القمح بسعر زهيد فأعمل منه البرغل والفريكة. أشتري البندورة المفعصة التي لا تصلح للبيع وأحيانا كثيرا كنت

لا أدفع ثمنها أحصل عليها مجانا من بائع الخضار بدل من أن يرميها. أشعل موقد النار بالحطب وأوراق الشجر الجافة التي كنت أجمعها من الحرج القريب من بيتنا، أضع موقدي في الشارع على باب دارنا في الزقاق، أعصر البندورة وأضعها على النار لساعات طويلة لأعد منها أجود أنواع رب البندورة. كان مستودع المؤنة في بيتنا عامر دائم، لذا كانت أيام الشدة لا تعنيني كثيرا فدائما كنت أجد في مستودعي ما أقدمه لعائلتي من طعام.

كما إنني كنت أيضا طباخة ماهرة وطبيخي كان أطيب طبيخ في الحارة بشهادة كل الجيران، حتى أنني تفوقت على أُمي التي علمتني كل تلك الأسرار. اللحمة لم تكن تدخل إلى بيتنا كثيرا وكنا نأكلها في المناسبات في أيام العطل والأعياد، يشتري أبو أحمد لحمة للكبة فأخرج جرني وأدق أطيب كبة في الحي كله، نأكلها على أيام في اليوم الأول كبة نية وفي اليوم الثاني أخلط ما تبقى منها بالمزيد من بالبرغل والبهارات وأقوم بكبكبتها وأطبخها باللبن أو كبة في الصينية نأكلها طعام يوم أو يومين.

ألفت المخيم وحياته وجيراني رغم صعوبة الحياة فيه، التي تتطلب الكثير من الجهد اليومي لسير عجلتها في بيوت تنقصها أغلب مستلزمات الحياة، الأمر الذي لم يكن يترك لنا نحن النساء وقت للزيارات والمجاملات نلتقي على الباب حين تقوم إحدنا

بشطف أو كنس باب الدار نتبادل بعض من حديث وتذهب بعدها كل منا إلى شأنها. قلوب أهل المخيم كانت بيضاء كالثلج رغم قسوة الحياة والعنف الذي يطبع يومهم، كانت حياتهم تقوم على التكافل فاذا وقع أحدهم تمتد أيدي باقي الجيران لتنشله وتقف الى جانبه في وقعته. كانوا يداً واحدة في المأتم والأفراح، يساندوا بعضهم البعض ولا يشمتوا بمصاب واحد منهم مهما وصلت بينهم حدة الخلاف.

الحروب التي عاشها لبنان كان للمخيم دائما حصة الأسد فيها، كأن المخيم وأهله لم يكن يكفيهم فقرهم وعوزهم وقسوة حياتهم، ليتسلط عليهم الرصاص والقذائف في زمن تلك الحروب. فكانت كلما أشتدت حرب تطال قذائفها المخيم أكثر بكثير من كل المناطق المجاورة له. تهد بيوته الطينية وتحفر في أزقته الترابية حفر كبيرة. مات الكثير من أهل المخيم وخصوصا من الشباب والصغار حيث كانت القذائف تداهمهم وهم يلعبون أمام بيوتهم في أزقة المخيم. غادر المخيم أيضا الكثير من سكانه بسبب الحرب هربا من الموت الذي كان يلاحقهم، قذائف الموت التي كانت تسقط ليل نهار من الجانب الآخر من المدينة في حرب السنتين، وغارات الطائرات الأسرائيلية قبل الاجتياح الأسرائيلي وخلاله تصب حممها على رؤوسهم وعلى صفيح بيوتهم.

خلال الاجتياح الأسرائيلي في سنة ٨٢ فرغت البيوت من حولنا وبقي في المخيم فقط من لا أهل أو أقارب له في مناطق أخرى أكثر أمانا. عائلتي كانت من العائلات التي لم تغادر فإلى أين سنذهب والحصار المفروض على المدينة يمنعنا من الوصول إلى قريتي إلى أهلي، ولكن حتى لو استطعت أن أصل إليهم فكيف سيتسع بيت أهلي الفقير الصغير لنا. زوجي كان دائما ضد فكرة الرحيل عن بيتنا في المخيم، كان يعتبر هذا البيت وهذا المخيم الضمانة الوحيدة له لحفظ حقه في العودة إلى فلسطين، ويركبه خوف دائم إن هو غادر بيته هذا بأنه لن يعود إليه مرة أُخرى، تماما كما حصل وهو طفل صغير عندما غادر مع أهله قريتهم في شمال فلسطين وفروا إتقاء من الحرب إلى لبنان، فروا وظنوا بأنها قصة يومين فقط ثم تنتهي الحرب ويعودوا بسلام إلى بيتهم إلى قريتهم إلى بلادهم، وراحت البلاد والقرية والبيت ولم يعودوا أبداً وفقدوا كل شيء حتى إسم بلادهم الذي أُزيح عن خارطة العالم لتثبت مكانه دولة جديدة لها إسم جديد.

أصبح المخيم بيتهم ووطنهم وأصبحوا لاجئين منبوذين وكأنهم مرض معدي ويجب عزلهم عن محيطهم اللبناني فلا عمل مسموح لهم به، لا مدارس لأولادهم، لا إمكانية لهم للعلاج في العيادات والمستشفيات اللبنانية، ومحرومون من أبسط الحقوق المدنية، ولولا خدمات الأنروا في المخيم كالعيادة والمدارس الإبتدائية والإعانة

الغذائية الشهرية، لبقي أغلب أولاد المخيم بلا تعليم ومات الكثير من الصغار والكبار من المرض حيث أنهم لم يكن عندهم ما يكفي لدفع ثمن العلاج في مستشفيات العاصمة بيروت.

أبو أحمد كان رجل بسيط يعيش بحاله، وكان همه الوحيد في الحياة عمله وبيته، لم يلتحق بأي من المنظمات الفلسطينية، وكان يقول ساخرا في الكثير من الأحيان كيف سيستطيع الكلاشنكوف الأنتصار على اسرائيل وقوتها العسكرية والتي تساندها وتساعدها اقوى دول في العالم. لم يكن ابو احمد يؤمن بالكفاح المسلح لتحرير الأرض وضمان عودته إلى قريته في فلسطين، ورغم انه كان يحب عبد الناصر كثيرا، ويكن له الكثير من الاحترام وقد بكى كالنساء يوم وفاته، إلا انه لم يكن أبداً يعتقد بالحلول العسكرية وخصوصا بعد هزيمة ٦٧ التي اظهرت تفوق اسرائيل وقتلت كل حلم بالإنتصار داعب خياله هو وخيال غيره من العرب والفلسطينين. لكل تلك الأسباب كان أبو أحمد يعتقد بأن الدبلوماسية العالمية ستجد الحل لقضيته ولذا كان ينتظر أن تأتيه أخبار العودة عن طريق نشرة الأخبار في لندن.

رفض أبو أحمد رفضا قاطعا الهرب أو انتقالنا من بيتنا إلى أي منطقة أُخرى أمنة، وكنا عندما يشتد القصف ننحشر جميعنا في الغرفة الداخلية لبيتنا غرفة نومنا التي كنا نعتقد بأنها أمنة حيث تحتضنها بيوت الجيران من كل الجهات.

مرة وحيدة هربت فيها باولأدي من المخيم مع جارة لي والتجئنا إلى حديقة بعيدة في قلب المدينة تعج بالكثير من الناس الذين هربوا من القصف يفترشون أرض الحديقة وينامون تحت أشجارها. نمت هناك ليلتين في العراء مع أولادي تحت أشجار الحديقة، فمقاعد الحديقة كانت حكراً على جماعات من المسلحين ينامون ليلهم هناك ثم ينطلقوا كالخفافيش قبل الفجر إلى مواقع القتال. يومين فقط وجاءت الطائرات دكت بنايتين قريبتين جداً من المكان الذي إحتميت فيه مع أولادي وجارتي، عمارتين كبيرتين سوتهما الطائرات بالأرض وقتلت كل من كان فيهم من سكان، ودفنت تحت الأرض الكثير من سكان المناطق الاخرى الذين التجوأ هناك وسكنوا في ملاجئ تلك البنايات إحتماء من القصف الذي شل الحياة في مناطقهم فهجروا بيوتهم وهجروا تلك المناطق المنكوبة وجاوءا إلى هنا التجوأ بملاجىء تلك البنايات في تلك المنطقة التي اعتقدوا بأنها أمنة لا تطالها يد القذانف ولا تصلها الطائرات، ليدفنوا تحت ركامها هم وأولادهم.

لملمت أولادي وما معي من أكياس وتركت الحديقة والمنطقة كلها ظللت أركض بدون توقف كل المسافة التي تفصل بين بيتي والحديقة، أكثر من ساعتين قضيتها أركض، نتوقف فقط لنحتمي تحت أحد الأبنية عندما تغير الطائرات، ثم نتابع الركض حين تبتعد الطائرات، أركض وأحرض أولادي على الركض بسرعة

أكبر. لا أعرف كيف وصلت إلى البيت جائعة خائفة تعبة مقطوعة الانفاس يغسلني العرق ينزل من شعري على وجهي مختلطا بتراب الحديقة وغبار الطريق الذي علق على جسدي وأجساد أولادي. شمت بي زوجي وقال حذرتك ولم تسمعي الكلام. قلت تبت لن أغادر بيتي مهما حصل بعد الأن، وان مت فسأموت هنا في بيتي مع عائلتي.

تسير الحياة في المخيم وبالقليل الذي بقي من أهله، تسير بهم الحياة رغم القصف والحرب. في أوقات الهدوء يخرج الناس إلى السوق القريب يشترون على عجل ما يحتاجونه من طعام ولوازم البيت ويعودون، خف عمل أبو أحمد خف كثييرا في الحرب، فاغلب بيوت المخيم زبائنه مهجورة من أهلها، والقليل الذي بقي منهم ويحتاج إلى خدماته في تصليح حنفية أو انبوب ماء إنفجر بسبب قذيفة لا فلوس لديه ليدفع إلى أبو أحمد أتعابه وتسجل كل مستحقاته عليهم كدين في دفتر الحساب.

كان لنا جارة بيتها ملاصق لبيتنا ولها شباك يطل على صحن دارنا، غادرت جارتنا المخيم قبل الحرب بقليل لتلتحق هي وأولادها بزوجها الذي يعمل في الخليج، وتركوا بيتهم في المخيم، تُأجر غرفه كسكن لطلاب وعمال غرباء عن المخيم وعن البلد اردنيين سوريين ومصريين يسكنوا في البيت إلى أن يجدوا بيت

أفضل أو إلى أن يغادروا إلى بلادهم الأصلية. في الحرب فر كل المستأجرين إلا كمال شاب في أواخر العشرينات آتى من إحدى القرى السورية ليعمل في لبنان ويرسل إلى أهله المال. كان شابا خلوقا وحيدا لا يرفع رأسه ولا ينظر إلى جيرانه، يلقى التحية ويكمل سيره دون أن يلتفت يميناً أو يساراً. كنت أُشفق عليه وأتحسر على وحدته وبعده عن أهله وفي أحيان كثيرة كنت أرسل له القليل مما أطبخه، كنت أُشفق على أُمه وقلقها عليه وعلى وحدته في بلاد غريبة ليس فيها من يفكر به، من يحمل همه ويفتقده في طعام أو شراب. كنت اخجل من رائحة طعامنا التي تتسلل اليه من الشباك الذي يفصل بيننا، تحمل له رائحة بيته البعيد رائحة أُمه وزوجة وأولاده، فأُرسل له بعضا من طعامنا من باب الأعتذار عما أكون قد سببته له من حنين ولأعوضه ولو قليلا عن إفتقداه لأهله وبيته وبلده. كنت أرسل صحون الطعام مع أولادي ويعيدهم هو بأن يطرق باب بيتنا، ثم يضع الصحن الفارغ هناك، وكان في بعض الأحيان يضع في الصحن بعض من البسكويت للصغار، وكان يذهب من هناك حين يسمع خطواتي وقبل أن افتح الباب، وحتى لا يتسبب لي ولزوجي بالحرج إن رأه يتحدث إلي على الباب أحد من الجيران.

الحرب والخوف من الموت قربنا أكثر من بعض، فاصبحنا كعائلة واحدة، كمال وعائلتي وأنا وما بقي حولنا من جيران،

وأصبحنا ندعيه إلى بيتنا لتناول الطعام وكنا في أحيان كثيرة وعندما يشتد القصف نحتمي جميعنا في غرفته حيث تهيأ لنا بأنها الغرفة الأكثر أماناً في الحارة كلها.

توطدت علاقتي بكمال وصرنا نتبادل الهموم يشكي لي هم الغربة وبعده عن أهله عن قريته زوجته وأولاده الأربعة وأمه المريضة التي تحتاج إلى العلاج وهو المعيل الوحيد لهم، فهو الصبي الوحيد على سبع بنات تزوجوا كلهم ويعيشون موزعين في قرى مختلفة بعيدة عن قريتهم، كان يشكي لي عوزه المادي بعد أن توقف عمله بسبب الحرب، وكم يكبله هذا الحصار المفروض على المدينة والذي يمنعه من السفر الى قريته ليكون بين أهله يرعاهم. كنت أنا ايضا أشكي له حالي وهموم الأولاد، والفقر والعوز. أصبح بيننا صداقة وكانت هي المرة الأولى في حياتي التي أعرف فيها احساس الصداقة ومعناه، أن اكون على علاقة صداقة مع إنسان آخر، بأن أفتح له قلبي وأبثه همومي وأحس بأنه يفهمني، يفهم ما أحس، أن أشعر بأن هناك يدا تطبطب على كتفي ولا تحاسبني وتقف لكلماتي وتصرفاتي بالمرصاد، وفي الوقت نفسه لا يطالبني بشيء ولا يتوقع مني شي.

أغلي القهوة في الصباح بعد أن يذهب أبو أحمد إلى عمله أصب فنجان لكمال أدق شباك غرفته المطل على بيتنا، فيفتح

الشباك وكأنه على اهبة الأستعداد، وكأنه وقف الليل كله خلف الشباك ينتظر ندائي، يفتح شباكه يقف هناك نشرب قهوتنا ونتبادل الحديث، وأصبحت علاقتنا أكثر اريحية بعد حين، فأنا كنت بسيطة سهلة في التعاطي مع الآخرين اجتماعية، قريبة الضحكة بطبعي، بينما كان كمال جديا أكثر من اللازم ويتهيب الحديث إلى أمراة غريبة، مع الوقت أصبح أكثر إنفتاحا في حديثه معي بدأ يكون طبيعيا يمزح ويضحك ولم تعد أحاديثنا تقتصر على الهموم، حدثني عن قريته عن أصدقاءه عن شعوره بالوحدة هنا لا أهل له ولا أصدقاء، حدثني عن طول ليله كم يفكر في أولاده وخصوصا ابنه الصغير تركه أبن اشهر قليلة واليوم أصبح عمره سنتين، كبر الطفل بعيدا عنه ولا يعرفه. أخبرني كمال بأنها المرة الأولى التي يكون فيها منفتحا هكذا بالحديث مع إمراة غير أمه وزوجته، وبأنه بدأ يحس بأنني اليوم أقرب إنسان إليه، وبأنه ينتظر حديثنا الصباحي بفارغ الصبر، بأنه يستعجل النوم لكي يأتي الصباح ليصحو ويشرب قهوته معي.

كم كنت أحب حديثه فأنا لم أكن معتادة على الكلام الجميل، لم أسمعه ولا مرة من أحد سواء كان من أهلي أو من زوجي، لم يغازلني زوجي يوما كنت بالنسبة له تحصيل حاصل شيئا في بيته كالخزانة كمضرب التنجيد كالسرير الذي ينام عليه، كأي شيء مهم في منزله ولكنه شيء، لم أكن في حياته يوماً إنسان، لم يقل

لي يوماً بأنه يحبني أو بأنه يحتاجني كل ما كان بيننا هو إتفاق غير مكتوب على حياة مشتركة مقسمة المهام، أنا أقوم بدوري ولا أحيد عنه وهو يعيلني ويبقيني في بيته بهذه الشروط وإن حدث وحدت عن مهامي أو قصرت بها، يعيدني إلى بيت أهلي كبضاعة مغشوشة أو كبضاعة منتهية الصلاحية .

الحب والعطف الحقيقي الوحيد في حياتي كان حبي لأولادي وحبهم وحاجتهم لي، من قبلهم لم أعرف الحب ولم أشعر يوما بالحنان من أي شخص كان. كمال فتح عيوني وإحساسي على الحياة أيقظ مشاعر كانت نائمة في داخلي، حتى صرت لا أستغني عنه، ومع الوقت تغيرت مشاعرنا أخذتنا إلى أماكن أخرى لم نكن متفقين على الوصول اليها، مشاعر أصابت علاقتنا ببعض الإرباك فلم تعد أريحية كما كانت، وصرت لا اجرؤ على النظر إلى وجهه وأنتبه جيدا كي لا تمس يدي يده، خفت من نفسي منه من مشاعري ومشاعره وقررت أن لا أدعيه بعد الآن إلى القهوة بأن أُوقف هذا الذي يجري بيننا قبل ان يأخذنا في طريق المهالك. إلا إنني لم أستطع الإبتعاد فأستمريت في شرب قهوة الصباح معه ولكنني أصبحت أكثر حذراً لكل كلمة أقولها لكل تصرف يصدر مني، لكل ضحكة أو ابتسامة قد تخرج مني بدون حساب، وهو أيضا أصبح حذراً ويحسب تصرفاته، لكنه لم يبتعد رغم الخوف ولم يخلف يوما موعدنا في الصباح.

كان يوم دقت شباكه ودعوته لقهوة الصباح، ناولته فنجان القهوة وبدون قصد منى أو منه اصطدمت يدانا ببعضها البعض وأحسست برعشة بماس كهربائي يضرب جسدي كله، أمسك يدي ولم يتركها وقال لي ولأول مرة بأنه يحبني وبأنه يفكر بي ليل نهار، خفت كثيرا من تلك الكلمات، إرتبكت ولم اعرف كيف سأتصرف معه بعدها، لم أرد على كلامه ولم أجرؤ على البوح، لم أقل بأنني أيضا أحبه، ولم اقل بأنني أيضا أفكر به ليل نهار، لم أقل شيئا وأحمررت خجلا، تسمرت في مكاني، يحبني ما أجملها من كلمة، كم أود أن يعيدها، أن يقول مرة أُخرى بأنه يحبني، فلقد قالها بهمس حتى إنني لم أعد متأكدة إن هو قالها أم أنني اخطأت السمع، لو يعيدها لأتأكد. لكنه لم يعدها وبقي واقف هناك ممسكا بيدي، وبقيت أنا اقف على الجانب الآخر من الشباك لا اقدر على النظر إلى عينيه ويدي ترتاح مستسلمة لا أسحبها من بين يديه.

وقفنا صامتين شربنا قهوتنا صامتين كأننا قلنا كل الكلام وكأنه لم يعد هناك بعد من داعي لأي شيء يقال، كأننا قلنا كل ما يجب أن يقال. لأول مرة أحس بالرغبة بالشهوة وبأنني لست دابة بأنني إنسانة مرغوب فيها وبأن لي من يحبني ويسمعني عذب الكلام، واقتربنا كثيرا من بعضنا قربتنا حاجتنا الإنسانية قربنا الخوف من الموت الذي يتربص بنا، ووقعنا في المحظور، ولم أدري إلا ونحن

في الفراش تحتضن أجسادنا بعضها البعض وننغمس في المحرم دون أن نستطيع رده أو التوقف عنه. جسدي الذي لم يعرف الشبع أو الارتواء يوما وجسده المحروم من العاطفة والقرب. أصبحنا نستغل أي ظرف حين يكون زوجي بعيدا في مهمة من مهامه أو في زيارة لإهله، أو عندما يكون نائما يغط في الأحلام أغافله وأذهب الى غرفة كمال، أرتمي في فراشه بقربه أرتمي عليه بكل شوقي وعطشي إلى الحب والجنس ونمارس الحب بشكل سريعا وفي أحيان كثيرة لا يتسع الوقت لنخلع ملابسنا فنمارس اللهفة من فوق ثيابنا، لا نضيع أية ثانية في الحديث أو المقدمات فلم يكن لدينا وقت لمثل هذا الترف، الخوف من أن يكتشف أمرنا كان يحوم حولنا ولا يغادرنا حتى في أشد لحظات اللذة، وكان أيضا في الخوف إثارة كبيرة تقربنا أكثر من بعضنا وتجعل شوقنا إلى أجسادنا نهم لا حدود له. لم أكن حذرة أبداً، وكم من مرة عدت إلى البيت بعد لقاء حميم مع كمال ووجدت أبو أحمد مستيقظا في السرير أو في الحمام يسألني أين كنت فأختلق له الحجج والأعذار ليطمئن ويكمل نومه حتى الصباح.

بعد فترة بدأت اعراض الحمل تظهر علي، أقوم في الصباح بوجه أصفر وعينين غائرتين وأركض الى الحمام أُفرغ ماء بطني، بعدها أُمارس حياتي اليومية أجر نفسي جرا لأقوم بواجباتي المنزلية، رأسي يلف ليل نهار يتملكني شعور دائم بالغثيان وفي

بعض الأحيان يداهمني الاغماء. قلق أبو أحمد عندما رأي حالي وسأل بحذر عن الأسباب، فهو لم يقربني منذ أكثر من شهرين أو ثلاثة فكيف سيفسر الأمر، قلت أنه البرد، طعام فاسد وأخترعت الكثير من الأسباب.

فزع كمال حين عرف بأمر الحمل، خاف كثيرا من أن تكون هذه هي النهاية، كيف سيكون شكل علاقتنا إذا استمر هذا الحمل، حتما سينكشف أمرنا وستكون نهايتنا الموت. كان قلق جدا، خائف من العواقب وحملني الذنب بأنه كان علي أن أنتبه بأن أكون حذرة، وصعق حين علم بأنني لم أكن أتناول مانع للحمل، ففي إعتقاده أن هذا الأمر كان يجب أن يكون بديهيا. طمأنته بأنني سأتدبر أمري وبأنني سأجهض الطفل، وأستمرت علاقتنا على ما كانت عليه.

حاولت بكل الوسائل التي أعرفها أن أُجهض طفلي ولم أفلح وإستمرت علامات الحمل ودلائله تزيد مع الأيام. خفت أن تكبر بطني وينكشف أمري ثم عدت وطمأنت نفسي فكبر بطني لن يلاحظ لأن لي جسد كبير وبطني كبيرة في الأساس وكأنني حامل في أشهري الأخيرة. كان كمال يسألني في كل مرة نلتقي بها إن كنت قد تخلصت من الحمل وكنت أُخبره بأنني أُحاول وبأن محاولاتي ستفلح في المرة القادمة حتما وبكل تأكيد. بات قلقه

وخوفه أكثر وضوحا، وبدأ بشكل جاد يخطط للرحيل، لا يطلعني على الأمر بصراحة ولكنني أراه وأفهمه من كلامه، كما بدأ يغيب ولا أراه في غرفته لأيام ثم يعود بعدها مشتاق قلق، لكنه لم يرفض جسدي أبداً، واصبح وفي كل مرة أكون معه في الفراش نهما شرها لا يشبع كأنه يود أن يأخذ كل حاجته مني ومن جسدي وكأنها المرة الاخيرة التي سيقربني فيها وكأنه لقاء الوداع ، ثم يعود إلي مرة ثانية بعد أن ينهشه جوعه إلى قربي، إلى دفء جسدي فيصب فيه عذب ماءه وحبه، وفي الفترة الأخيرة اصبحت لحظات الفراش على قلتها هي فقط التي تجمعنا، وأصبح يتلافى اللقاء بي خارج حجرته وخارج فراشه، توقف عن شرب قهوة الصباح معي ولم يعد يكلمني في الطريق أو أمام باب الدار إلا فيما ندر.

لم تختفي علامات الحمل بل أخذت تزداد وأزدادت معها شكوك أبو أحمد ولم يعد يقتنع بحججي بأنه البرد أو الطعام الفاسد، فكلنا نأكل من نفس الطعام فلماذا أُصاب أنا فقط. اليس الأطفال أشد حساسية من الكبار فلماذا لا تصاب ندى مثلا بالتسمم. زاد الشك في قلب أبو أحمد وزادت وسوسته فهو يعرف بأنني كنت شديدة العافية قوية البنية قليلة المرض، لا أذكر بأنني نمت يوما في فراش بسبب مرض أو ضعف أو وهن أصاب جسدي، حتى إنني كنت بعد كل ولادة لي أقوم في اليوم التالي ألتفت إلى شؤون بيتي وأولادي وطفلي الجديد وكأنني لم أُنجب

بالأمس، لم أكن أطلب المساعدة من أحد، ولم أحتج في يوم من الأيام لأحد.

أنا البسيطة في تفكيري لم أخذ شكوك زوجي على محمل الجد لم أنتبه بأنه أصبح حذرا جدا يراقبني كل الوقت ويحسب تحركاتي. أبو أحمد يعرف تماما بأنه إن كانت تلك العوارض التي تنتابني وأعاني منها بسبب الحمل فالطفل حتما وبالتأكيد ليس منه، وبأن في الأمر خيانة، بأنني أخونه مع شخص آخر.

أذكر أنه في إحدى المرات وعندما كنت أُغادر فيها متسللة غرفة كمال بأنني شعرت بأن هناك من يراقبني، نظرت حولي بهلع إلا إنني لم أرى أحداً لم ألمح طيف إنسان، فأقنعت نفسي بأنني أتوهم، بأنني من شدة خوفي توهمت بوجود من يراقبني. بعد فترة قصيرة لاحظت بأن جار لنا بدأ وبدون أية مقدمات يرمقني بنظرات غريبة ويحاول أن يوقفني ويكلمني كلما صادفني في الطريق، صددته وحاولت أن أتجنبه بكل الطرق، إلى أن جاء يوم وكنت أعود مساءاً إلى بيتي من دكان الحي وصادفت جارنا في وسط الزقاق، تقدم نحوي وسد علي الطريق، ثم حشرني في زاوية والتصق بي وحاول أن يقبلني عنوة عني، عضضته من شفته ورفسته في بطنه لأبعده فصرخ بوجهي بأنني عاهرة، بأنه سيفضحني، وقال لي مهددا بأن له الحق تماما في أن يأخذ من

جسدي ما يريد وإلا فلماذا يكون جسدي وعهري حكراً فقط على كمال وحده دون غيره.

لا أدري إن كان هذا الجار قد أخبر الآخرين عن أمر علاقتي بكمال، ولا أدري ان كان أحد ما قد وشى بي إلى أبو أحمد، أو انه قد سمع وشوشات الآخريين وحديثهم عني وعن تصرفاتي بالسوء، لم أكن إدري اذا ما كان أمري قد إنفضح بأن حكايتي مع كمال قد إنكشفت. كل الذي أعرفه بأن أبو أحمد تغير تماما معي، أصبح عدوانيا ينظر الي نظرات حقد ويتوعد ويهدد بقتلي لأقل سبب.

أنا الغبية البسيطة لم أنتبه ولم أمارس الحذر، لم أنتبه لمراقبة زوجي لي، لم أرى نظرات الشك في عيون أبني ابراهيم، مارست الحياة بشكل عادي وكأن شيئا من هذا كله ما كان. كأنه ليس هناك طفل حرام في بطني يكبر ويتغذى ويرفض أن يجهض، وكأنه ليس لي زوج يشك بتصرفاتي يراقبني وينتظر أي هفوة مني، وكأنه ليس هناك جار يلاحقني بشراهة ويهددني بالفضيحة وكأنه ليس لي عشيق يحاول الهروب مني ومن طفل الزنا الذي احمله في بطني. لم أفكر في أولادي وبما قد يصيبهم إذا ما إنفضح أمري وعرف الناس بقصتي بأن امهم زانية تمارس الحرام. كل هذا الذي كان يجري لي ويدور حولي، لم يجعلني

أتوقف عما أنا فيه بل انني وكأنني اصبحت اكثر أصراراً على الاستمرار في علاقتي بكمال، وأصريت على أن أنتهز كل فرصة تسنح لي لأقابلة وأكون فيها بين ذراعيه أشبع جوع روحي وعطش جسدي اليه إلى حبه إلى جسده ولا أشبع، إلى أن كان يوم موتي.

لست نادمة على فعلتي، ولا أُدين لأحد غير أولادي بالإعتذار، زوجي ليس له في ضميري وفي ذمتي أي إثم، فلقد أفنيت عمري وشبابي في خدمته، قمت على رعايته ورعاية بيته لم أشتكي يوما ولم أكن يوما أمراة متطلبة تريد الكثير، كنت أكتفي دائما بما يمنح لم اكن بالمتأففة الملحاحة، قليلة التذمر كنت راضية دائمة الابتسام وأضحك في وجهه أمازحه والاطفه حتى بعد أن يضربني، فكانت نهايتي على يديه وكافئني بأن أخذ روحي وحرمني من الحياة من أولادي وحرم أولادي من أُمهم.

همي الوحيد هم أولادي، لو سمح لي فقط بالحياة قليلا بعد لكي أرعاهم وأطمئن عليهم وأراهم أمامي يكبرون أمامي يبدأون حياتهم، لو سمح لي بالحياة فقط إلى حين أن يبدأون بالاعتماد على أنفسهم في مواجهة الحياة ومصاعبها، الى حين ان تنبت اجنهحتهم وتكبر فتخف حاجتهم إلي.

أعتذر لبناتي فقط وأشفق عليهم أشفق عليهم من العار الذي سيلحق بهم بسبب فعلة أمهم، لو أستطيع فقط بأن أعود

لأشرح لسلوى الأمر، أن أعود فقط لكي أخبرها حكايتي وكيف أنني عشت حياتي كلها محرومة من الحب من العطف من يد تطبطب على قلبي، وبأنني مثلها ضحية، أنا ضحية اهلي وزوجي والمجتمع وهي ضحيتي. لو أستطيع أن أطلب منها أن تسامحني، أن تعذرني ان تخفف من لومها وحنقها عليَ، على أُم لم تترك لها سوى الخزي تذكار. أعرف بأن فعلتي ستلاحقها حتى آخر أيامها ستلاحقها فعلتي هي وأختها ولن تجد من يقبل بها زوجة، وستكون دائما إبنة الخائنة السافلة التي قتلها زوجها بعد أن ضبطها متلبسة مع عشيقها مكللة بالعار.

أنا القتيلة لو قيد لي أن أعود من قبري أن أعود من موتي، لكنت رسمت طريقا آخراً لحياتي، طريق لا تكون نهايته القتل، لكنت إخترت حياة أُخرى لحياتي، حياة كنت فيها صاحبة قراري، كنت فيها إنسانة مسؤولة عن نفسها، إنسانة مسؤولة أمام أولادها ومسؤولة عن أولادها، وما كنت تركت لهم من بعدي آرث غير العار.

أنا القتيلة، لن تقام لي مراسم العزاء، لن يقف أبنائي على الباب ليودعوا المعزين ويتقبلوا بأمهم العزاء. وبناتي سيكتمن الصرخة في حناجرهن في قلوبهم وستتحجر الدموع في عيونهن وسيبقى عاري وصمة على رؤوسهم مدى الحياة.

أنا القتيلة أنام في قبري في حفرة ضيقة على طرف المقبرة بلا شاهد بلا آية قرأنية بلا شتلة زرع تعرش هناك، ولا يد محبة تروي تراب قبري بقطرة ماء، ولا أسمع في الخارج صوت يرثيني، لا أسمع خلفي بكاء.

ميتة في حفرتي الضيقة أنا وفوقي جسد عشيقي الذي بدأت جثته بالتفسخ فوق جثتي وفي بطني تموت وتتعفن ثمرة حبنا الحرام.

●●●

السويد
عيد منتصف الصيف

في ليلةٍ لا تغيبُ فيها الشمس، وتحت سماءٍ يتوسطُها القمر بدراً، وعلى شاطئ بحيرة حول حلقة من النار جلست غادة وبناتها رنا وسمر تجلس قربهن سلوى متكئة على ساق بدر، وفي حضنها تنام بهدوء وأمان سارة ابنة رنا، وإلى جوارهن يجلس أخوها رامي، يقاوم نعاسه، يتدفأ بحضن جدته، يصبغ وهج النار وجنتيه بالإحمرار. وعلى مقربة منهم يقف أندرس ونافيد يحضران القهوة ويعدان كعكة الفراولة التي سيتناولها الجميع في ختام حفلهم،حلاوة النهاية لهذا اليوم الطويل، يوم عيدالصيف.

دعاهم أندرس جميعا لقضاء هذا اليوم في كوخه الصيفي على ضفاف إحدى البحيرات في منطقة دالسلاند الغنيّة بالبحيرات والغابات في غرب السويد. انطلقوا في الصباح الباكر، رنا وأولادها ومعها سمر ونافيد في سيارة، وفي السيارة الأُخرى التي يقودها أندرس تجلس في الكرسي الأمامي غادة وفي الخلف يجلس بدر وتجلس بقربه سلوى. امتلأ صندوق السيارة بما لذّ وطاب من الأكلات التي حضرتها غادة، تبّولة، وكبّة وفطائر على

أنواعها، لحم للشواء، بطاطا جديدة قطاف الموسم، فراولة وأنواع متعددة من الأسماك التي تُأكل في هذه المناسبة.

وصلوا قبل الظهر بقليل إلى بيت أندرس الصيفي، كوخ بسيط مكون من ثلاث غرف، في كل منها أربعة أسرة صغيرة، ومطبخ صغير يتّسعُ لطاولةٍ تحيط بها بعض الكراسي، وبقربه غرفة للمعيشة فيها كنبتين وطاولة. تزيّن جدارن الكوخ صور قديمة بالأسود والأبيض، صور لعائلة أندرس التي توارثت هذا الكوخ لأجيال طويلة، والذي كان في البداية بيت ومزرعة لأجداد أندرس الأولين في أواسط القرن الثامن عشر. كانوا يعيشون على تربية الماشية، ومنتجات المزرعة من الأجبان، والألبان واللحوم، وزراعة البطاطا، والجذور والبصليات. تعاقبت الأجيال، وبقي هذا البيت للعائلة، وأصبح يُستخدَم كبيت صيفي ، بعد أن انتقل والد أندرس إلى المدينة للعمل في أحد المصانع التي ازدهرت في تلك الحقبة من الزمن، بعد الحرب العالمية الثانية. هناك تزوج أبوه من والدته التي كانت زميلته في نفس المصنع. بعد وفاة والديه ورث أندرس وأخته البيت الصيفي، وأجرى أندرس بعض التصليحات، وأدخل عليه التحسينات، وفرشه بشكل بسيط لكي يصبح ملاذاً له ولأخته وعائلتها في أيام الصيف.

يقع البيت على ضفاف بحيرة، وتحيط به غابةٌ كبيرة وارفة الظلّ. توجّه أندرس وغادة فور وصولهم إلى المطبخ لإعداد طعام الغداء، بينما تفرّق باقي الجمع في الغابة وعلى ضفاف البحيرة ليستكشفوا المكان ويجمعوا الأزهار البريّة. في الخارج، تحت ظلّ الأشجار وقرب الصخور التي تمتدُّ قريباً من شاطئ البحيرة، انتصبت طاولة كبيرة تحيط بها الكراسي، وبالقرب منها امتد جسر خشبي عتيق يصل أعلى الصخرة بماء البحيرة، مكان للغطس والسباحة. وبقربِ الجسر يقفُ قاربٌ صغيرٌ يُستخدمُ للنّزهات في البحيرة ولصيدِ السّمك.

على طرف الجسر جلس كل من رنا، وسمر، ورامي وسارة، بعد أن جمعوا الكثير من الزهور التي سيجدلونها لتوضع على قوس منتصف الصيف ويصنعون منها تيجاناً تزيّن رؤوسهم احتفاء بالصيف وعيده.

بعد انتهائهم من صنع التيجان قام أندرس بنصب القوس المكلّل بأوراق الغابة الخضراء والزهور، وزينت النساءُ رؤوسهن بتيجان من الزّهر البرّي، ورقص الجميع في حلقة حول القوس، على وقعِ الأغاني الخاصّة بهذا العيد. ثمّ جلسوا إلى الطاولة وتناولوا طعام الغداء السويدي التقليدي في هذه المناسبة، بطاطا مسلوقة، وبيض وأسماك متنوعة، يُشرب معها نوع من النبيذ المحلّي وحلواهم من الفراولة السويدية اللذيذة المذاق.

بقوا على جلستهم حول طاولة الغداء لوقتٍ طويلٍ يمرحون، ويضحكون، ويتبادلون القصص والنوادر. كان يومهم مشمساً بامتياز على غير العادة في مثل هذا اليوم من السنة. ففي العادة تمطرُ السماءُ مدراراً في عيد منتصف الصيف، إلا اليوم، فلقد كان يوماً مشمساً وحاراً ولم تسقط فيه قطرة ماء، الأمر الذي دفع بسمر ونافيد إلى النزول إلى الماء الذي كان لا يزال بارداً نسبياً، ثم دبَّ الحماسُ بسلوى فتبعتهم، ونزلت إلى الماء معها رنا وولداها رامي وسارة، وتعالت أصواتهم وضحكاتهم برداً ومرحاً.

لم تجرؤ غادة على اللحاق فهي لا تعرف السباحة، وفي الوقت نفسه لا تحتمل مياه بحيرات السويد الباردة. فهي بالكاد تنزل الى ماء البحر في بيروت في عزّ الصيف، عندما تكون حرارة الماء قريبة من الغليان. انشغل أندرس عنهم في تحضير اللحم للعشاء، وبقيت غادة هناك على جلستها تتجاذب أطراف الحديث مع بدر، ثم سألته بخجل متى سيتزوج هو وسلوى، ثم تجرّأت وقالت لبدر بأن العلاقة بهذا الشكل لا تصحّ، خصوصاً في مجتمعهم الشرقي. قالت أنهم في النهاية مسلمون شرقيون، ولا يصحّ أن يعيشوا بتلك الطريقة وكأنهم سويديون. ابتسم لها بدر ابتسامة حميمة صادقة وطمأنها، وقال بأن سلوى زوجته أمامهم وأمام باقي الناس وأمام الله وهم لا يحتاجون لورقة لتثبت ذلك، واستمرّوا في الكلام ولم

يسكتوا إلا عندما داهمهم فوج السابحين الذين خرجوا من الماء هازجين يرتجفون من البرد ويطلبون الدفء بقرب النار التي اشتعلت للتحضير لشواء اللحم عشاء ليلتهم.

وفي المساء، وعلى النار وضع اللّحم والدجاج للشّواء، وامتلأت الطاولة بالطيّبات التي أعدتها غادة للعشاء، طعام شرقي بامتياز من ورق العنب، إلى الحمّص، والمتبّل، والكبة والتبّولة. أكلوا وشربوا واستمروا في الغناء والأحاديث المختلفة التي كانت تطغى عليها اللّغة العربية أحيانا ثم لا يلبثوا أن يعودوا للحديث بالسويدية التي كانت تسود في الغالب لقاءاتهم.

بعد الانتهاء من العشاء وقبيل منتصف الليل ، انتقل الجمع ليجلسوا إلى الشاطئ حول النار، يتّقون بها برد ليلهم، يودّعون يوماً جميلاً ويرحّبون بأيّام الصيف القادم. اقترح أندرس عليهم النزول إلى الماء إحياءً لتقليد متّبع في السويد في هذه المناسبة، وهو أن ينزل الساهرون إلى الماء عند منتصف الليل. لم يجرؤ أحد على تلبية دعوة أندرس إلا سمر ونافيد، فنزلا إلى الماء، لعبا قليلا ثم عادا بعد دقائق قليلة يلتفان بمناشفهما ويرتجفان من صقيع البرد ونشوة الماء. جلست سمر قريباً من النار تتدفّأ، وجلس خلفها نافيد يحيطها بذراعيه.غلبهما التعب فجلسا متقاربين وعلى أكتافهم الأغطية الصوفية تقيهم برد ليالي الصيف، وساد

الصمت بينهم لا يخرقه إلا صوت ماء البحيرة، وصوت أم كلثوم تشدو فيطرب الجمع لشدو صوتها وشذي الألحان ويتعالى صوت بدر وسلوى بين الحين والآخر يطيبون للغناء وبلوعة العاشق المتيم يصرخون الله الله الله.

في وسط الدائرة، وعلى وهج النار انتصبت سمر تتمايل برشاقة خفيفة كغيمة شفّافة، كحلم، منتشية، ترقص على وقع الألحان، يتطايرُ شعرَها، يغطي وجهها، تلفُّ وتدورُ، ترتفع يديها إلى الأعلى ثم تعود لتنزلهما الى الأسفل، تلتفُّ بيديها حول جسدِها وكأنَّها تلمُّه وترتديه، كأنها بحركتها تلك تردّ جلدَها الذي صعد عالياً برفقة يديها، تردُّه إليها، فيعود ويكتسي بكل ألق جسدَها، ويسكنُ بفرحٍ وحبٍّ مكانَه من جديد. تلفُّ وتدورُ وتتمايلُ في تناغمٍ بديعٍ مع اللحن، فتصدحُ لها الأكفّ بالتصفيق، ترقبُها كلُّ العيون بحبّ، وتغيبُ سمر بنشوة، تغيب،تتّحد بالموسيقى، فيصيرُ جسدُها وكأنّه آلة موسيقية تعزف وتشدو أعذب الألحان..

صدحت الموسيقى أعلى وأعلى، ودبَّ الحماسُ من جديد بالجميع، وأصابتهم حمّى الرقص، فتشابكت الأيدي، واهتزت الأطرافُ تحتَ سماءٍ قمرُها بدرٌ أصفرٌ جميلٌ مشعٌّ في ليلةٍ لا تغيبُ فيها الشمس.

●●●

غادة

استيقظت غادة مرتاعة، فتحت عينيها وفمَها مشدوهةً وهي تسمع دقات قلبها تصرخ كالمجنونة في صدرها، تصمّ أُذنيها. غارقة في مائها، ورعشةٌ تهزُّ أوصالَها وخلايا بدنِها النائم على رغباته منذ سنين. وأمام عينيها ترتسمُ بوضوحٍ فجّ صورَ الإثم الذي اقترفته في الحلم، وبقاياه نشوةٌ عالقةٌ على جسدِها تدغدغُ كلَّ مسامِها. فزِعةً نظرتْ حولَها لتتأكدَ بأنّ ما كان هو مجرّد منام. لم تمارسْ إثمَ الخيانةِ هي، لا رجلَ في فراشِها. وحيدةً تنام، ومكانُ زوجِها فارغٌ يصرخُ من شدّةِ الغياب. تستعيذُ باللّه وتفكرُ مستغربة. كيف يمكنُ لهذا أن يحدث لها، هي النظيفة الفاضلة. أهوَ الشيطانُ يتلبّسها، أم أنه امتحان من اللّه يختبر فيه عفّتها وطهارتها؟

لحظات بين الحقيقة والحلم والحيرة عاشتها غادة قبل أن يملأ صوتُ منبه الساعة المكان معلناً بدء نهار جديد. وغادة التي تصحو كالساعة كلَّ يوم في نفس الوقت، وعلى نفس الصوت، لم تستطعْ أبداً أن تعتادَ على صوتِ المنبّه وتصحو معه فزعةً كلّ صباح، يخرجُها بعنفٍ من حالةِ نومها. والنومُ عند غادة هو حالةٌ

تدخلُ فيها كلّ ليلة، وفي نفسِ اللحظة التي تلقي فيها بجسدها على السّرير، ولا تصحو منها إلا على صوت المنبّه في صباحِ اليوم التالي، نوم لا أحلامَ فيه، ولا كوابيس، كغيبوبة، كموت مؤقَّت. نظرتْ مرةً أخرى بأسىً إلى مكانِ زوجها في السرير، وندَّ صدرُها عن تنهيدة، واستدركت مذكّرةً نفسَها بأنّه سيعودُ غداً وسيملأُ فراغ البيت والسرير.

لقد طالت سفرتُه هذه المرّة، وقد قاربَ غيابُه الستة أشهر. تحتاجُه هي إلى جانبِها، تحتاجُ الزوج، وتحتاجُه أباً لأولادِها. فهيَ لم تعدْ قادرةً على تحمّل المسؤولية وحدها. لقد كبرَ الأولاد وكبرَت مشاكلُهم، حتى رنا المتزوّجة أُمّ الطفلين، عندَها من الهمِّ ما يتعبُ القلبَ ويقلقُ البال. لا، ستقولُ له هذه المرّة بأن يجدَ حلَّ، فإما أن يعيشَ معهم هنا وإما أن يسافرَالجميعُ إلى بيروت. ولكن كيف لها حتى أن تحلم بهذا، كيف لها أن تغادر، كيف لها أن تفكّر بترك المكان، حيث صبيّها الأوّل وفرحتُها، يقضي حكماً لخمسة أعوام في السجن هنا. اعتصرت قلبَها الغصةُ عندما فكّرتْ بأنَّ اليومَ موعدُ زيارته.قامت وتركت سريرَها على عجلٍ لتبدأ نهارَها. نظرتْ بحنانٍ وحبٍّ إلى عبدالله أصغر أبنائها، والذي رغم سنينه الخمسة عشرة لا زال يتركُ فراشَه ويأتي متسلّلاً كلّ ليلة لينامَ إلى جانب أُمّه.

تركَتْ غادة غرفتَها وابتدأتْ أوّلَ مهامِّ الصباح، تدورُ على غرفِ البيتِ توقظُ أولادها. تبدأُ دورتَها اليوميّة بسمر، وتنتهي كالعادة دائما بسمر، التي لا تستيقظ إلا بالوعيد والتهديد. تدخل إلى غرفة محمود، المطيع الهادئ، فيصحو عند أوّلِ نداء.

إلى المطبخِ تديرُ وجهتَها، مملكتها وملاذها الآمن، حيث يبدأُ الإبداعَ ويجنحُ مرّات كثيرة، ويشطحُ بها الخيال، فتحيك لنفسها حيوات أخرى وأناس آخرون. ساحرة بعصا، أعزُّ أحلامِها وجلّ أُمنياتها، تطيرُ على عصاها حيثما تريد، وتأمرُها بفعل أي شيء تريد. تجلس في مكانها الأثير قرب النافذة التي تطلّ على الغابة المجاورة، وعلى بحيرة صغيرة تسكنها عائلةٌ من البط صيفاً، ويغلّفها الجليد شتاءً، فتصبح ملعباً للأولاد، ومرتعاً للأرانب البرية والسناجب تتسلّقُ الأشجار، تجمعُ ما أبقاه الشتاء من أوراقه التى سدَّ به جوعها.

تحضّرُ غادة فنجانَ قهوتِها، وتسدُّ سمعَها عن صوتِ معركةٍ تدورُ بين أولادِها في الخارج حول أحقّية استخدام الحمام، وتسرح في الحلم،إلى البعيد،إلى اللامكان قبل أن تأخذَها الحياة وتغوصَ في تفاصيلِ يومها. بدأتْ على الفور وبعد أن أعدّت الفطورَ لأولادِها، بتحضير عجينة الصفيحة وفطائر السبانخ التي يحبّها أحمد، ستأخدها له اليوم ساخنةً طازجة. دخلَ محمود المطبخ،

شربَ شايَه وأكل سندويشته على عجل، وودّع أُمه بكلمات مقتضبة وذهب إلى جامعته، مكلّلا برضا غادة ودعائها.وبعد حمّامها الصباحي، دخلت سمر إلى المطبخ، فشربت قهوتها على عجلٍ وركضتْ نحو الباب في طريقها الى الجامعة، يتبعُها صوتُ غادة وتوصياتُها بأن تعودَ باكراً لكَي تحضّرَ الطعامَ لأخوتها.

زيارة السجن، عدا عن أنَّها همٌّ وكدرٌ لقلبِها، فهي أيضا رحلةٌ شاقة تستغرقُ ما يقرب الساعتين. حملت غادة حقائبها ووقفت تنتظر الباص الذي تأخر كثيرا عن موعده بسبب سوء الأحوال الجوية، وقفت قلقة لا تهدأ على حال ترزح تحت ثقل الحقيبة التي ملأتها بما لذَّ وطاب، فالطعام والأشياء الأخرى التي تخصُّ بها أحمد وتأخذُها له في كلِّ زيارة هي الشيءُ الوحيدُ الذي يُسكِتُ قليلاً صوتَ الخيبةِ والذنبِ الذي سكنَها منذ ذلك اليوم الذي أُلقيَ فيه القبض على ابنها وحُكمَ عليه بالسجن خمس سنوات لحيازة السلاح، والإتجار بالمخدَرات وممارسة العنف. لا تفهم غادة كيف صار لابنها هذا المصير الذي لم تحسب له يوماً حساباً، ولم تتوقّعه أبداً. كيف يمكن أن يحدث هذا، وقد ربّت أولادها على التقوى والصلاح، وعلّمتهم دينَهم منذ الصغر، وفرضَتْ عليهم الصلاةّ والصوم، وعلّمتهم الأخلاق التي نشأت عليها. فلماذا حصل ما حصل؟ هي لا تعرف كيف وصلَ

أحمد إلى هذا المصير، وتلومُ نفسَها بشدّة لأنّها لم تنتبهْ إلى تلك التغيّرات التي طرأتْ عليه، لم تسألْه يوماً من أين يأتي بكلّ تلك النقود، أو كيف يشتري تلك التلفونات والملابسَ الغالية الثمن. أرادت أن تصدّق ما يقولُه، بأنّها هدايا يحصلُ عليها أو يستعيرُها من الأصدقاء. أرادت أن تصدّق، لم تكنْ تريدُ أن تشغلَ بالها، فعندها من الهمومِ ما يكفيها. الا تحدث مثل تلك الأشياء عادةً بين الأصدقاء؟ ثم أنّ تصرّفات أحمد لم تتغير في البيت ، فكان كعادته لطيفاً، ومرحاً، وخفيفَ الظلّ، ودائمَ الضحكِ وكثيرَ الكلام. يقتلُها ما حصل له، كسكّين يشقُّ سجنُه صدرَها. حمّلَت نفسَها ذنبَ أحمد، وحمّلَها زوجُها الذنبَ أيضاً حين علم بالأمر، صرخ وهاج واتّهمها بالإهمال، قال بأن هذه هي نتيجةُ تربيتِها وعدم اهتمامها بالأولاد، وأنه بسببها وبسبب إهمالها وسوء تربيتها سيُمضي ابنها زهرةَ أيّامِه في السجن.

مرَّ الوقت طويلاً، ولم يظهرْ أي باص. وقفَتْ غادة سارحةً بشجونِها وهمِّها عند المحطة، تنتظر بقلقٍ الباص الذي تأخّر كثيراً، تندبُ حظَّها، ولا تعرف كيف ستصل إلى السجن، إلى موعدِها مع ابنها اليوم. لم تنتبه غادة وهي غارقةٌ بأفكارِها للسّيارة التي توقفت أمامها ولسائقِها الذي كان ينظرُ إليها مبتسماً ويسألها عن وجهتها، نظرت إليه وللوهلةِ الأولى لم تعرفه، إلا أنّها عادت

وتذكّرَت وجهَه وابتسامته،إنه المشرفُ الاجتماعي الذي يعملُ في الصّليب الأحمر، والذي ساعدَها كثيراً في أيّامها الأولى في السويد، وعادتْ والتقَتْ به مجدداً أيّام محاكمةِ أحمد. ابتسمت له وأخبرته عن وُجهتِها، فقال هيّا سأوصلك، فلا أمانَ لمواعيدِ الباصاتِ اليوم، ثم إنّ اليومَ هو يومُ عطلتي وجدولي فارغٌ تماماً. علا الارتباكُ وجهَ غادة، ولم تعرفْ بم تجيب، وشكرته قائلة بأنها لن تثقلَ عليه وستنتظر الباص.أصرَّ وقال، «لن تثقلي علي أبداً بل على العكس يسعدني أن أُرافقك». صعدت غادة إلى جانبه وانطلقت لسيارة وتبادلا أحاديث المجاملات عن الطقسِ والأولاد، وحين وصلا إلى باب السجن قال، «سأنتظرك هنا».

بعد الزيارة التي استمرت حوالي الساعة،جلست خلالها غادة أمام ابنها مشوّشةَ العقلِ واللسان، تعتصرُها الخيبةُ وهي تراهُ يجلسُ أمامَها، يحاولُ أن يمازحَها ليخفّف عنها وعن اللقاءِ ثقلَ وبؤسَ المكان، يأكلُها قلقُها عليه، فأيّ مستقبلٍ سيتّسع لهذا الشقيّ الذي دخل السجنَ لأوّلِ مرّةٍ قبل أن يكملَ الثامنة عشرة؟ ترى غادة في ابنها الدليلَ القاطعَ على إخفاقها في التربية، والشهادة الحيّة لسوء أمومتها. تمسك به، تمسكُ بيديه، تحضنُه لتتأكدَ من وجودِه، من حقيقتِه. يضحك أحمد ويقول في محاولةٍ للتهوين عليها بأن السجنَ للرجال، وأنَّ سجنَه سينتهي يوماً، وسيخرجُ ويكونُ بقربِها. لم تهدئها كلماتُه ولا ضحكته، ولم تستطعْ أن تسكّنَ

وجعَ قلبِها عليه وعليها، ولم يَخْفتْ إحساسُها بالخيبة. انتهت الزيارة، فودّعتْ أحمد والغصةُ تختنقُ في صدرها، وخرجتْ لا تلوي على شيء، واتجهت إلى السيارة وسائقِها الذي ينتظرُها في الخارج، رمَتْ نفسَها على الكرسي تقتلُها الحسرةُ وأجهشتْ بالبكاء.اقترب منها الرجل، احتضنَ رأسَها على كتفه، وطبطبَ بيدهِ على كتفها، وظلَّ يهدأها الى أن هدأتْ شهقاتها وانحسرت دموعها. «تنبهت غادة إلى نفسها بعد أن عاودها الهدوء أدركت بأنها تلقي برأسها في حضنِ الرجل. ابتعدت عنه في ردّةِ فعلٍ عصبيةٍ بعض الشي، وجلستْ مستقيمةً في مقعدِها، ثم انطلقت بهما السيارة في طريق العودة إلى البيت. كم أحسّت بالخزي والعار من تصرّفِها الأرعن هذا، كم لامتْ نفسَها وعنَّفتْها. كيف تمكّنت من الارتماء على صدرِ رجلٍ غريب؟ كيفَ سمحَتْ لنفسِها بأن تشركه في عميق همّها وحزنها؟ وكيف لهذا الغريب الذي لا تذكرُ حتّى اسمَه أن يكون في هذه اللحظة الإنسانُ الوحيدُ على وجهِ الأرضِ الذي فهمَها وفهمَ قهرَها وحزنَها دون كلام؟ كيف استطاعَ بكفّه العاري الحنونِ أن يهدأَ أساها ودمعَها؟ أكملا طريق العودة الذي ساده الكثير من الصمت.أخبرها القليلَ عن نفسِه، وسمعَ منها، وعنها، وعن بيتِها أكثرَ بكثيرٍ ممّا أرادتْ أن تقول. تركها عند باب البيت وقال، «أنتظرك هنا الأربعاء المقبل». شكرَته وقالت، «لا همَّ عليك، في الغد يعود زوجي».

في المساء وقفت غادة تستعد لأخذ حمامها بعد أن انتهت من نزع الشعر الزائد عن جسدها، فهذا واجبها كامرأة وحقٌّ زوجِها عليها، وهل يعقل أن يراها بجسدٍ يملأه الشعرُ كالرّجال؟ خلعت ملابسها ووقفت أمام المرآة تتأمل جسدَها العاري ببعضٍ من خجل، فهي ورغم عمرها المديد ما زالت تخجل من الوقوف عارية أمام المرأة، وتجن إن لمحها أحد الأولاد تغير ثيابَها. حتى زوجها لم ير أبداً جسمَها في ضوء النهار، فعلاقتُهم ليلية، وتُمارسُ دائماً في الظلام. نظرتْ إلى جسدِها بخجلٍ وابتسمتْ مزهوّةً به. فهي برغم الحمل المتكرّر والولادات ما زالت تحتفظُ بالكثيرِ من الرشاقة، رغم بعض الترهّل الذي أصاب البطن والصدر. كما أن وجهها لا زال يحتفظُ بجزءٍ ليس بالقليل من جمالِ الأمس. ما تزال تذكرُ أيّامَ صباها، ولا تنسى نظراتِ وكلماتِ الرجالِ التي كانتْ تلاحقُها، تعرّيها من ثيابِها، وعيونَهم الجائعةَ تأكلُ لحمها العاري. ولا تنسى أبداً ثناءَ نساءِ الحيّ وتسبيحَهم بشكرِ الخالقِ لما أنعمَه عليها من جمال. ولّى الكثير وأصبح جزءاً من ذكرياتِ الماضي. فلديها اليوم بناتٌ وشبابٌ يتمتّعون بجمالٍ هو خليطٌ من بياضِ لونِها، وخضرةِ عينيها، وتناسقِ جسدِها المائلِ قليلاً الى القِصَر، وبين سمرة زوجِها محمّد، وطولِه الفارع، ولجاذبيةِ وجهه، وخصوصاً عينيه اللتين ورثتْ سمر سحرهما.

بعد أن انتهت من حمّامها، دخلتْ غادة إلى غرفةِ نومها. سرّحت شعرَها ودلّكت جسدَها بالمطرّيات، ثمّ اتصلت بسلوى صديقتها الحميمة، تستفسر عن حالِها وحالِ الغرامِ معها. فصديقتُها عاشقة تعيشُ قصةَ حبّ وتتصرف وكأنها مراهقة وكأنها تعشق وتحبُّ للمرّة الأولى. حكَت لسلوى عن زيارتها لابنها، وكلّمتها عن أندرس الذي رافقَها إلى السجن، وعن خجلِها لأنّها بكت على كتفه. هوّنت عليها سلوى وقالت، «لا عليك، فهذا الرجلُ لن يفسّرَ الأمورَ بطريقةٍ سيئةٍ ولن يحمّلها أكثرَ مما تحتمل». استعجلت سلوى إنهاء المكالمة، فضحكت غادة مدركة بأنها تنتظر اتصالاً من حبيبها.

أنهتْ غادة مكالمتَها الهاتفية وجلستْ في سريرِها تتابعُ مسلسلاً تركياً في التلفزيون. لم تر منه إلا القليل، فذهنها مشتتٌ للغاية، وأفكارُها لا تهدأُ على حال. تفكر بالغدِ وكيف سيكون لقاؤها بزوجها، نعم، فلتعترفْ بأنّها تشتاقُ إليه، تشتاقُ إلى وجودِه،إلى نفَسه قربَ صدرِها،إلى رائحته تزرعُ الطمأنينةَ في قلبِها. أيكونُه الحبَّ؟ أتحبُّه هي كما تعشقُ سلوى بدراً؟ غادة لا تعرفُ كيف يكونُ الحبُّ ولم تختبرْهُ يوماً. زواجُها كان زواجاً تقليدياً. تزوجتْ صغيرةً ولم تكنْ قد أكملتْ السابعة عشر بعد. أهلُ محمّد كانوا جيران أهلها في بيروت. وعندما تقدَّمَ لخطبتِها لم يجدْ أهلُها

مانعاً في ذلك، لأن محمّد كان حسبَ رأيهم يتمتّعُ بكلِّ المواصفاتِ التي تجعلُ منه عريساً مناسباً لابنتهم: شابٌّ مستقيمٌ وصاحبُ مهنة، وقادرُ على إعالةِ بيتِه وعائلته، ولن يضيرُها هذا الزواج بل على العكس، سيكونُ هذا الزوج قادراً على تأمين حياةٍ جيّدةٍ لها، حسب مقاييس منطقتهم والطبقة الاجتماعية التي ينتمون إليها. وافقتْ غادة عليه عندما سألَها والدُها، وكانت قد رأتْهُ مرّاتٍ كثيرةً من شبّاكِ بيتِهم وهو عائدٌ من عمله.كان يبدو وسيماً رغم الشحّارِ الذي يملأُ وجهَه ويديه وثيابَه من جرّاء عملِه في ورشةٍ لتصليح السيارات. زواجها كان زواج تقليدي حسب كل المقاييس، إلا إن ذلك لم يكنْ ليقللَ من أهمّيتِه وشأنِه بالنّسبةِ لها، ولم يكن يعنيها أو يضيرُها أن لم يسبق ذلك الزواج قصة حب، فهي تربّت على مبدأ أن الحبَّ يأتي بعد الزواج. هي الابنة الراضية المرضيّة، ولم يكنْ لها شأنٌ بأمورِ الحبِّ والغرام. فالحبُّ هو أن تحبَّ زوجَها، من ارتضتْ به عائلتُها وكان لها فيه نصيب. أمّا الجنسُ والعشق، فهذه أمورٌ مخجلةٌ معيبةٌ لم تسمعْ بها من قبل، اللّهمَ إلاّ بعضَ الهمساتِ والقهقهاتِ بين بناتِ الجيرانِ عن السّحرِ، والغموضِ والخوفِ الذي يغلّفُ ليلةَ الدخلة. وعندما أتى دورُها وقبلَ عرسِها وليلتِها الموعودة، جلستْ معها أُمُّها جلسةَ صراحة، وأخبرتْها بكثيرٍ من الخجلِ بالذي عليها أن تقومَ به وتفعله في تلك الليلة، ليلةِ دخلتِها .قالت لها بأنَّ اسمَها ليلةُ الدخلةِ

لأنَّ محمّداً سيدخلُ عليها، سيدخلُ جسدَها لكي تصبحَ امرأة، وبأنها بعد عملية الإيلاج ستنزف قليلاً. وأوصَتْها وشدَّدت بأن تمسحَ دمَها بشرشفِ السّرير وتخبّئه وتعطيه لها عندما تأتي في الصباحِ لتعرضَه على عائلةِ محمّد والمقربين، حتى يرَوا شرفَها ويرَوا بأعينهم طهرَها وعذريَّتَها. وقالت بأنّ الذي سيحصلُ معها الليلةُ هو أمرٌ طبيعيٌّ وبأنَّ هذه هي سنّةُ الحياة، وأنَّ على الزوجةِ إرضاءُ زوجِها، والقيامُ على رغباتِه كلّها، مهما كانت، ومتى أراد، لأنَّ رضا زوجِها عليها من رضا الله.

بهذا القدر من المعرفة عن الحب والجنس دخلتْ غادة ليلةَ دخلتِها، التي أتتْ مخيّبةً لكلأٍّ ما في الحبّ، ولكلِّ ما سمعتْ عنه من غرام. كلُّ ما عاشتْه فيها كان ألماً وخجلاً. لم تعرفْ كيفَ بدأ وكيف انتهى. لم يكتفِ محمّد بمرةٍّ واحدة، بل مارسَ معها الجنس أكثر من مرّةٍ في تلك الليلة، الأمرّ الذي تسبّب لها بنزيف وبآلآم في المهبلِ استمرّت أياماً. لم تعرفْ طعمَ النشوةِ ولم تفهمْ أبداً كيف يمكنُ لها أن تنتشي، أن تشعرَ باللذة. كلُّ ما كانت تحسُّ به هو الخوفُ والتوتّر. فما أن يقتربَ منها محمّد حتى يغلبَها الخوفُ ويتصلّبُ جسدُها بالكامل، ولا تستطيعُ أن تسترخي أبداً خلال الجماع، ممّا كان يزيدُ من معاناتِها وألمها كلَّ مرةٍ يلجُها محمّد. استمرت الحالُ على حالها بينهما أعواماً طويلة، ولم تتغيّر

الأمورُ كثيراً حتى بعد أن تلاشتْ ظلالُ صدمةِ الليلةِ الأولى، وبدأ جسدُها يتفتّح، واستيقظت فيه الأحاسيس، وبدأت تحسّ بالرغبةِ والشوقِ الى لقاء حبّ، تشتاق إلى جسدِه وإلى قربه. أتت خيبتُها مدوّية، فمحمّد لم يكن يكترثُ للأمر، ولم يفكّرْ بها وبرغباتِها، كأنَّه اعتاد على ذلك النمط الأحاديّ الجانبِ للعلاقةِ الحميمةِ بينهما. لم يفكّرْ يوماً أن لجسدِ غادة رغباتٌ مختلفة، فهو يعتقدُ بأن متعتَها ونشوتها تحصل حين يلجُها و يسكبُ ماءَه فيها. تبدأُ عذاباتِ غادة ويثور جسدُها عطشاً في اللّيل، حين يعانقُ الجسدُ الجسد. فما أن تبدأ صحوةُ جسدِها حتى ينطفئَ سريعاً جسدُ زوجِها، فيرتخي بدنُه، ويديرُ لها ظهرَه وينام. وتستلقي هي بقربِه لا تنام، وتمسكُ على وجعين، وجعٌ في القلبِ مقيم، وآخر مؤجّلٌ في الأحشاء. سنينٌ طويلةٌ، وخمسة أولاد، والرضا بما ارتضاه لها اللّه، وأسرارُ الجسدِ تفكُّها وتتكفلُ بها الأحلام، تريحُ توتّرَ البدنِ وتكدّرُ صفاءَ فكرِها وإيمانها.

رضيَتْ غادة بمحمّد مثلما كان من الممكنِ لها أن ترضَى بأيِّ رجلٍ آخرٍ يتقدمُ لخطبتِها وينالُ رضا الأهل. والحقُّ أن محمّداً كان رؤوفاً ومحباً في طبعه، رغم تعنّتِه في مواقفه، وإصرارِه على أنَّ رأيَه هو دائماً الأصح، وحجّتُهُ الدائمةُ بأنّه رجلٌ وقد خبرَ الحياةَ وعركَتهُ الأيّامُ أكثرَ منها، فلتترك له الأمورَ التي لا تفهم بها وتريح

رأسها . وهي كانت تطيعه دائماً، وتؤكّدُ على أنَّ رأيَه وقرارتِه هي دائماً الأصح.فمن أين لها هيالتي تقضي يومَها في البيتِ تهتمُّ بأمورِه وأمورِ العائلةِ خبرتَه ومعرفتَه في أمورِ الدينِ والدنيا؟ وهذا الأمرُ لم يكنْ مشكلةً لغادة أو بالأمرِ الجديدِ عليها، فجميعُ الرجالِ في محيطِها، وأوّلُهم والدُها يتشابهون في هذه النقطة بالذات، ولا يرضون أن يُقالَ عنهم بأنّ امرأةً تحكمُهم وتتحكّمُ في قراراتِهم.

لكن محمداً تغيّرَ بعد أن هاجروا إلى السويد .ترك لها الكثير من المسؤوليات التي كانت في السابقِ من اختصاصه. لكنه أصبح عصبيَّ المزاج، يصرخُ في وجهِها كلَّ مرَةٍ تحاولُ فيها أن تتصرّفَ في البيتِ أو مع الأولادِ بشكلٍ مخالفٍ لما اعتاده منها .كان يتّهمها بأنَّها باتت تتشبّهُ بالسويدياتِ ولا تحسبُ له أيَّ حساب، ويعنّفُها قائلً بأنَّ تصرّفاتِها تغيّرتْ عندما لم تعدْ تحتاجه مادّياً. لأن مؤسسة الخدمة الاجتماعيةِ تؤمنُ دخلَهم فيعيشون على الأعانة الاجتماعية بعد ان كانت مسؤولية الاعالة تقع عليه بالكامل، أصبحت تلك المؤسسة تقومُ بدورِه في هذه البلاد .ثم يقولُ بأسفٍ وحرقةٍ بأنّه لا يستغربُ أن تعامله بتلك الطريقة وبأنه بات يخشى أن تطلّقَهُ يوماً . لذا كان يعترضُ على ذهابِها إلى المدرسةِ لتعلّمِ اللغةِ السويدية، فبحسب رأيه وحسب ما سمعه من آخرين، فإنّ العاملين في تلك المدارسِ يحرّضون النساءَ، وخصوصاً العربيّات

والمسلمات منهن، على الطلاقِ من أزواجهن إذا سببن لهن الإزعاج، وأن يستفدن من القوانينِ التي تخصُّ النساء، والتي تجعلُ المرأةَ في هذا البلدِ تغيّرُ الرجالَ كما تغيّر ملابسَها.

لم يهدأ زوجُها، ولم يعدْإلى سابقِ عهدِه إلاّ بعد أن قرّر العودةَ النهائيّةَ مع العائلةِ إلى لبنان.بدأ يرتّبُ لمشروعِ العودة، والذي يترتّبُ عليه أن يعودَ محمّد قبلَهم ليبنيَ لهم بيتاً ومشروعاً يعتاشون من دخلِه بعد أن يستقروا في البلاد. على غادة وأولادِها أن يعيشوا في السويد خلال تلك الفترة، فالمشروعُ يحتاجُ الى الكثيرِ من النقود، وعليهم أن يعيشوا في تقشفٍ إلى أن يتحقّقَ الحلمُ ويعودوا جميعاً كعائلةٍ إلى لبنان. بدأ بعدها رحلاتِه إلى لبنان، وهدأتْ نفسُه واطمأنّت، وغادة قبلَتْ ورضيَتْ أن تعيشَ وحيدةً كأرملة، على أملِ العودةِ والعيشِ بين الأهلِ والأحبة.

لقد تعبت هي أيضاً من السويد، تعبت من تحمّلِ المسؤولية، تعبتْ من المشرفةِ الاجتماعية التي تجبرُها على البحثِ عن عملٍ والذهاب إلى المدرسة، والتي تهدّدُها بقطعِ الإعانة المالية إن هي لم تفعل. تعبَتْ من لومِ رنا وتحميلِها مسؤوليّة فشلِ زواجِها. تعاتبها دائماً وتلومها،. تقرأ غادة بعيون ابنتها اللوم على توريطِها بمثل هذا المصير. تحتار غادة، فهي لم تجبرْ ابنتَها على الزواج. رنا هي التي أحبّتْهُ، وأرادتْهُ، ووافقَت على الزواجِ به دون إرغامٍ

من أحد. وعندما واجهتها بهذا الكلام لتضع حداً للّوم ، صرخت رنا قائلة، «كنت صغيرة، لم أكنْ أعرف، لم تكن عندي القدرةُ لأتحمّلَ مسؤوليةَ قرارٍ مصيري كهذا». لا تفهم غادة هذا الكلام، فهي كانت أصغرَ من رنا عندما تزوّجت، لم تتذمر يوما وتقول اريد الطلاق كما تفعل رنا، رغم أن حياتها لم تكن كلها عسلاً بعسل. فغادة تعلّمت منذ الطفولةِ بأنّ واجبَ الزوجةِ هو أن تسترَ عيوبَ زوجِها، أن لا تفضحَه وأن لا تخبرَ أحداً عما يجري بينهما حتّى أهلها، لأنّ ما يحدث بين الزوج وزوجته لا يجب أن يتجاوز جدران منزلهم. تذمّرت في سرّها من هذا الجيلِ الذي لا يرضيه شيئاً ولا يحترم أحداً ويريدُ أن يعيشَ على هواه.

تعبت غادة من قصةِ رنا، تأتيها مضروبةً ولا تستطيعُ أن تفعلَ لها شيئاً. لو كان أبوها موجوداً في السويد، لو لم يكنْ شقيقُها في السجن، ما كان مروان ليتجرّأ على ضربها وإهانتها. نعم، تعبَت غادة، تعبَت من كلِّ أولادها، تعبَت من كلِّ شيء، ومن السويد. وأصبح جلَّ أمنياتها أن تعودَ إلى بلدِها، إلى أهلِها وناسها. نعم، تريدُ أن تعودَ إلى لبنان، تعود إلى بيتِها، حيث ستعيشُ معزّزةً مكرّمة، لها زوجٌ مسؤولٌ عن إعالتِها، ويتحملُ مسؤوليّةَ العائلةِ ومصروفِها ومشاكلِها. نعم، هذا هو الصوابُ وعينُ العقل. وستتحمّلَ قليلاً وتضغطُ على نفسها وعلى الأولاد. فهي سنواتٌ

قليلةٌ فقط، فلتتحملها ببعضِ الصبر، إلى أن تعودَ بها الحياةُ إلى سابق عهدِها، وتعودُ من المنفى وينتهي شقاؤها.

عاد الزوجُ الغائب، واجتمعت العائلةُ كاملة.جاءت رنا، وزوجُها وأولادها، واجتمع الكلُّ على مائدةِ الطعامِ التي أُعدَّت خصيصاً للترحيبِ بقدومِه. وغادة لا تكنُّ ولا تهدأ، تركضُ بينهم مثل الغزالة، تطعمُ هذا، وتدلّلُ ذاك، وتسترقُ بين الحين والآخرِ نظراتٍ خجولةٍ إلى وجهِ زوجها، وتنتظرُ أدنى إشارةٍ منه لكي تقومَ على خدمته. بقيتْ هكذا تسعى وتركضُ إلى أن انفرط عقدُ العائلةِ وذهبَ كلٌّ إلى أمره، وأعلنَ الزوجُ عزمَه على النومِ بعد تعبِ السفر. تركتْ غادة رنا تجلسُ وحيدةً في المطبخ بعد ان انتهت من غسل الصحون وترتيب المكان، ودخلت غرفة نومها، وأقفلت خلفها الباب. تزيّنت، وتعطّرت وارتدت أجمل أثوابها، واندست في فراشِها بقرب زوجها، والذي ما لبث أن علا شخيرُه حتى ملأ الغرفة. نظرت إلى نفسِها وساورَها بعضُ العتبِ على الزوجِ وعلى الجهدِ الضائع، ثم عادت وغضّت النظر، وقالت لنا الغد.

نظرتْ بحنانٍ إلى وجهه، وأرخت السمعَ ليصلَها الشخيرُ الأليفُ المحبَّبُ الذي افتقدته لليالٍ طويلة. وتساءلت، كيف يمكن للأشياء أن تحملَ أكثر من معنى، كيف لها أن تكون الشيءَ ونقيضَه في آن. أليس هو نفسُه الشخيرُ الذي طالما اشتكت منه، والذي

طالما أقلقَ نومَها وأرّقها لليالٍ طوال. كيف تحوّل هذا الشخيرُ إلى نغماتٍ موسيقيةٍ توزعُ الحبَّ والطمأنينةَ في أرجاءِ المكان؟ فليشخرْ محمّد، فليشخرْ ما طابَ له الشخير، المهمُّ أنّه بقربها، وفيما عدا ذلك تفاصيل لن تشغل بالها بها. الليلة ستنام، وستحلمُ على وقعِ زفراته، فإن صوتِ تنفّسه بسريرِها، بقربها، تأكيدٌ على وجودِه الذي سيحمل قلقَها وتعبَ أيّامِها إلى برّ الأمان، ذلك الأمان الذي يمثّله وجودُ زوجِها في حياتها. نظرت إلى ذلك الوجه الأسمرِ الحبيبِ النائم. لقد نامَ طيلةَ بعد الظهر، ولم يستيقظْ إلا لساعاتٍ قليلةٍ جلسَ فيها مع العائلة يتابعون برامج التلفزيون ويتبادلون الأخبار، ثم ترك العائلة معتذراً بأنه لا يزال متعباً، وغطَّ في نومٍ عميقٍ في اللحظة التي ألقى فيها جسده على السرير.

أمعنت غادة النظرَ في قسماتِ وجه زوجها، وأقرَّت بأنه متعب، وبأنّ التعبَ يبدو واضحاً جلياً.لكن هذا لم يمنعها من الاستغراب، فهذه ليست المرّة الأولى التي يسافرُ فيها محمّد.فقد قام بتلك الرحلات الطويلة بين بيروت ويتبوري مرّات كثيرة خلال السنوات الماضية، وكان دائماً يبدو فرحاً مشتاقاً رغم تعبِ الرحلة والعمل المضني.ولم يكن ينام قبل أن يمارس الحب معها، مهما بلغت ساعات الطيران أو قلّت ساعات النوم. كان ينتظرُ بفارغِ الصبرِ تفرّقَ الأولادِ من حولهما ليختلي بها في غرفةِ النوم، فيقدّمَ

لها هداياه الحميمة.كان يسحبها إلى الفراشِ قبل أن تتمكّنَ من ارتداء ثوب نوم مغرٍ قائلاً، «جرّبيه غداً، فشوقي اليوم لا يحتملُ مزيداً من الصبر».

على الرغم من فرحِها العارمِ بوجودِه، إلاّ أنّ القلقَ تملّكها للحظاتٍ بسببِ هذا التغيير.أيكونُ مريضاً؟ ما لبثت أن صرفتْ تلك الأفكارِمن رأسِها، لا شكّ أنّه العمرُ والتعب. لقد كبرَ زوجُها، لتعترف بذلك، وكلُّ ما يهمّها بأنه هنا الآن، ولا يعنيها كثيراً إن مارسَ الحبُّ معها أم لا، فهي تقوم بهذا الواجبِ الثقيلِ من أجلهِ ولإرضائه . نظرت إليه بحنانٍ للمرة الأخيرة وقالت له هامسةً كي لا توقظه، «تصبح على خير، نم هنيئاً يا رجلي ويا زوجي». ثم أدارت وجهها إلى الجهة الأخرى من السرير واستغرقت في نومٍ عذبٍ عميق.

مرَّ أسبوعٌ واحدٌ على وجوده بينهم، أخذ ما وفّرته غادة من نقود،ثم أعلن بعدها نيّته العودةَ القريبةَ إلى بيروت. ولم يفلحْ رجاؤها له بأن يبقى قليلاً ليساعدَها في حلِّ مشاكلِ الأولاد، أن يزور ابنه السجين. بكت أمامَه كثيراً، وحدّثته عن تعبِها، عن خوفِها من المستقبل، عن معاناتها المادية هي والأولاد بسبب مشروعه. حدّثته عن وحدتِها في الغربة بدونه، عن يومِها وليلِها الطويل، فليبقى قليلاً ليساعدها، ليخفّفَ عنها. لم يستمعْ، ولم

يهتزّ لتوسّلها ودموعها، وحملَ متاعَه ونقودَهم، وركبَ الطائرة عائداً إلى الشرق تاركاً غادة وأولادها يغرقون في ظلامِ ليلِ شتاءِ اسكندنافيا الطويل.

بعد سفره، وفي اتصال هاتفي من بيروت،علمَتْ غادة عن طريقِ أحدِ الأقاربِ بأن زوجَها تزوّج في بيروت من صبيةٍ لا تكبر ابنته رنا بكثير، وبأنّه يعيشُ معها في البيتِ الذي دفعت غادة ثمنَه من قوتِها وقوتِ أولادها، بعد أن حرّمت على نفسِها وعليهم أيّ متعةٍ مهما كانت بسيطة، أو شراء أي شيء مهما كان رخيصاً، ما لم تكن له حاجة ملحّة. بكت غادة، وواجهت زوجَها فاعترفَ على مضض، وتحجّجَ بوحدتِه بعيداً عن العائلة، وبأنه بحاجةٍ إلى من يرعاه ويلبّي حاجاته كرجل. وقال لها بأنه لم يكفر، ولم يغضبْ ربّه، بل أنه يمارس حقَّه الشرعي. صرخت غادة على الهاتف وبكت، وماذا عن حقّها هي، ماذا عن وحدتِها وقهرِها وهمّ أولادها؟ ماذا عن حاجتها إليه كامراة وشريكة؟ أليس لها أيضاً مثل هذا الحق، بأن يكونَ زوجُها الى جانبها، يرعاها ويرعى أولادها؟

في الحقيقة، لو سُئلَ محمّد عن سببِ زواجِه من امراةٍ أخرى سيجيب بأنَّه لم يتزوجْ من أخرى صغيرة بعمرِ أولادِه من أجل المتعةٍ أو تجديد الشباب، بل أنّ زواجَه جاءَ بالأساسِ كردّة فعلٍ

تجاه الغرب. يعتقدُ محمّد اعتقاداً راسخاً بأنَّ الغرب، وتحديداً السويد، والسنين التي قضاها فيها، قد سلبته عائلتَه. تلك البلاد جرَّدتهُ من رجولتِه، سحبَتْ منه رخصةَ القيادة العائلية التي كانت حقاً مكتسباً ومشروعاً له ، فصار رجلاً منزوعَ الرجولةِ لا سلطةَ له على زوجةٍ أو أولاد. هو العاملُ الكسّيبُ الذي قضى جزءاً كبيراً من حياتِه المهنيّةِ في تصليحِ السيارات، يقارعُ أعتى الماركات ولا يستعصي عليه محركُ سيارةٍ مهما كانَ معقّداً. كان يستلمُ السيارة، أيّ سيّارة، من أيّ زبون، ولا يتركُها إلاّ وقد فهمَ سرَّها وأصلح عطلها. وأصبح معروفاً، وذاع صيته وصيت كراجه في كلّ بيروت وضواحيها. تأتيه السياراتُ وأصحابُها، يصلحُها ويطلبُ من الزبائن الأجرَ الذي يحدّده، و مهما كان عالياً، يدفعونه عن رضا وطيبةِ خاطر.

في السويد، أصبح للمرّةِ الأولى في حياتِه عاطلاً عن العمل. كم حاولَ أن يجدَ لنفسِه عملاً .لفَّ ودارَ على كراجات يتبوري بحثاً عن عمل. كم مرّةً حاولَ أن يُفهمَ موظفةَ مكتبِ العملِ بأنَّه حرفيٌّ ماهر، وبأنَّه قد اشتغلَ بنفسِ المهنةِ لسنينٍ طويلة، يطلبُ منها أن تساعدَه ليجد عملاً في أحد الكراجات أو في مصنع للسيارات. كان ردُّها دائماً بأن العملَ في الميكانيك يحتاجُ إلى شهادة، وهو بالطبعِ لا يحملُ أيَّ شهادةٍ تخوّله العملَ في هذا المجال. كان

محمّد يعضُّ على جرحِه ويحاول، ويتحمّل اقتراحاتِ موظّفة مكتبِ العمل، والتي كان يرى فيها إذلالاً له وامتهاناً لرجولته. يقتلُه القهرَ والغيظ، ويتحمّلُ ويجاري تلك الموظفة، ويقبلُ ما تقدّمه له من عمل، موطّداً النفس بأنَّها في النهايةِ قد تقتنع وترسلُه للعملِ في أحد الكراجات. قبلَ بالعملِ في الغاباتِ في عزِّ الشتاءِ والبردِ القارس، يقطعُ الأشجارَ الساقطة. وعمل أيضاً كمنظفٍ للطرق، يجمعُ النفاياتِ من الشوارعِ ويلمُّ أوراقَ الشجرِ التي تتساقطُ في الخريف، إلى أن مرضَ وأصابَه الروماتيزم، ولم تقتنعْ موظفةُ مكتبِ العملِ بأنَّ سببَ مرضِه هو بردُ وشتاءُ السويد القارس، والذي لم يكن معتاداً عليه. كانت تجيبُه دائماً وبوجهٍ جامدٍ كقطعةِ جليدٍ لا تتغيّرُ ملامحُه، فتقول، «أنت في السويد، وعليك ان تتعلّم التعاطي مع المناخ والطقس هنا، يجب ان تلبس جيداً، فليس هناك طقسٌ سيّء بل هناك لباسٌ سيّء». آخر عملٍ له كان في بيتٍ لرعايةِ المسنّين، حيث أصبح، هو محمّد، يحفّض، وينظّف مؤخراتِ العجزةِ في آخر العمر. كان يتفتّتُ من داخلِه قهراً على نفسه وعلى آخرته، وكلّ ما اضطرَ للقيامِ به منذ أن وصلَ إلى السويد. محمّد، المعتدُّ برجولتِه، اضطرَّ للقيام بأعمالٍ من المفترضِ أن تكونَ حكراً على النساء.

الأنكى من ذلك أنَّ تلك الأعمالِ التي زاولَها كانت بدون أجرٍ، بل كانت أعمالاً تدريبيةً لتزيدَ من كفاءته وفرصِه في الحصول على عمل ثابت. لا دخلَ له، ويعيشُ وعائلتُه معتمداً على الإعانة الاجتماعية، فيُضطرُّ في نهايةِ كلِّ شهر، ورغمَ عملِه من أوّلِ النهارِ إلى آخره، إلى تقديمِ طلبٍ للحصول على الإعانة المالية، ويقابل موظفة الشؤون الاجتماعية، شابة أصغر من ابنته، هي صاحبةُ القرارِ فيما إذا كان هو وعائلتُه يستحقّون الإعانةَ الماليّة أم لا، تتحكّمُ بلقمةِ عيشِه، لها الحقُّ أن تُملي عليه كيف يعيش، وحين تطلبُه إلى اجتماع، تشترطُ دائماً وجودَ غادة. كم من المرّات أعادته من حيث أتى عندما حضر دون زوجته. وكانت في أغلبِ تلك اللقاءاتِ تتعمّدُ توجيه حديثها لغادة، وتتجاهلُه، وكأنَّه غيرُ موجود. وإن حصلَ وأجابَ عن سؤالٍ تكونُ المشرفةُ قد وجّهته لغادة، تنظرُ اليه بعداءٍ وتطلبُ منه السكوت، وأن لا يصادرَ حقَّ زوجتِه بالإجابة. لم يكن رأسُه يحتملها، وتدورُ فيه الكثيرُ من الأفكار. تقول غادة بأنه واهم، وأنَّ المشرفةَ الاجتماعية لطيفةٌ جداً وطيبة، وأنها لم تلاحظ أبداً بأنها تزدريه أو تتعمّدُ عدم احترامه. لا يريحُه أبداً كلامُ غادة ولا يقنعُه أو يجعلُه يغيّر رأيَه، فهو يعتقدُ بأنَّ غادة تراها طيبةً لأنَّها تعاملُها معاملةً خاصةً وتحيطُها بالرعايةِ والعطفِ والاهتمام. ولهذا السبب، لا ترى غادة ولا تهتمُّ بنظراتِ الاستخفافِ التي توجهُها المشرفةُ له. كم كان

يحسُّ بأنّه مهدّدٌ في صميمِ رجولتِه في حضرتها، فنظراتُها كلُّها شكٌّ به، بتصرفاته، لا ترى فيه إلا رجلاً شرقياً متوحشاً يقمعُ زوجتَه وأولاده. هي لا تتردّدُ بأن تطلبَ من غادة أمامه بأن تتصلَ بها فوراً وفي أيَ وقت إن هو تعرّضَ لها أو لأولادِها بأيّ سوء.

أصبحَ محمّد يشعرُ بالعجزِ أمامَ زوجته، وانقطع عن معاشرتِها. أصبح يحسُّ أن غادة نفسَها قد تغيّرتْ، ولم تعدْ كما كانت من قبل، لم تعد الزوجةَ المطيعةَ القائمةَ على راحته، والتي لا تردُّ له كلمةً أو طلباً. أصبحت تتأفّفُ وتتذمّرُ وتدّعي التعبَ إذا طلبَ منها شيئاً في المساء. حتى أولاده لم يعودوا يحترموه، فاذا طلبَ من صغيرِهم كوبَ ماء، ينظرُ إليه ولا يجيبُ ويبقى جالساً في مكانه، كأنّه غيرُ موجود. بالطبع، يحمّلُ محمّد الذنبَ للقوانينِ السويدية، والتي يعتقدُ بأنّها تفسدُ الأطفالَ وتُحرّمُ على أهلِهم تربيتَهم. فلا يستطيعُ هو مثلاً أن يصفعَ ابنه ولو صفعةً واحدةً ليربيه ويعيدَ الأمورَ إلى نصابها، ويعلّمهُ الاحترام. يخافُ محمّد أيضاً من أن يقول أيَّ كلمةِ تعنيفٍ لسمر إن هي تصرّفت أيّ تصرفٍ خاطئ، ويخشى أن يحاسبَها، أن يطلبَ منها ألاّ تتأخرَ عن البيتِ بعد المدرسة. أصبح لا يستطيعُ أن يربي أولادَه في السويد. وإذا حدث وصفع أحدهم، أو صرخ على واحدٍ منهم لينهيه عن فعل ما، يستطيعُ ابنه أو ابنته، أو حتّى زوجتُه التقدّمَ بشكوى

لمؤسسة الشؤون الاجتماعية، والتي تقف دائماً إلى جانبِ الأولادِ والنساء. وهذا ليس رأيَه وحدَه، فلطالما سمعَه من أصدقائِه العربِ في السويد. بحسب رأيه، فإنّ القوانينَ في السويد سُنَّتْ من أجلِ حمايةِ الأولادِ والنساء، وكأنَّ الرجلَ وحش، قطٌّ يأكلُ أولاده ويجب حمايتهم منه. لا نصيبَ للرجلِ بجزءٍ من الحماية والرعاية، لأنه وبحسب ما يرى محمد والكثيرون غيره من الرجال، أن الظلم الواقع على الرجال في السويد لا سابق له . فمؤسسة الشؤون الاجتماعية تقفُ لهم بالمرصاد، وتستطيعُ أن تأخذ من الرجلِ أولادَه وتخفيهم في مكانٍ بعيد، وتمنعُه أن يراهم حتى من بعيد. كفٌّ واحد، صفعةٌ صغيرةٌ لابنه، او ابنته او زوجته، ويصبحُ مصيرُه السجنَ، والطلاقَ، وخرابَ البيت وتشتيتَ العائلة. لا يفهمُ محمّد من أعطاهم الحقَّ في ذلك، وكيف تستطيعُ هذه البلادُ مصادرةَ حقِّه في قيادةِ عائلتهِ بالطريقةِ التي يراها مناسبة. طبعاً يجبُ أن يضربَ أولادَه اذا قلّل أيّ منهم الاحترام او قام بعملٍ خارجٍ عن الأدب والمألوف. كثيرةٌ هي القصصُ التي سمعَها عن عائلاتٍ عربيةٍ أخذت الشؤونُ الاجتماعيةُ منهم أولادَهم، ووضعتْهم عند عائلةٍ بعيدةٍ مجهولةِ الإقامة بالنسبة للوالدين، بحيث لا يُسمح لهم برؤيتِهم أو الاقتراب منهم، بحجّة أن الوالدين غير مؤهلين لتربية أبنائهم، وبأنهما، أي الوالدين يشكلان خطراً على تربيتهم بسبب سوءِ المعاملة.

كرهَ محمّد السويد. بدأ يخافُ من نفسه، بدأ يخافُ إن هو بقيَ بينهم أن ينتهي به الأمرُ بجريمةٍ يرتكبُها بحقِّ أفرادِ عائلته. أصبحَ حلمُ حياتِه الوحيدُ هو العودةُ إلى لبنان. في البداية، كانت فكرتُه أن يعودَ مع عائلته إلى هناك، يعودون إلى سابقِ عهدِهم ويعيشون هناك كعائلة، هو السيدُ الآمرُ الناهي، يعمل في ورشته، وزوجتُه في البيت، كما كانت في السابق، تقومُ على رعايتِه ورعايةِ بيتها وأولادها، تطيعُه ولا تكسرُ له كلمة، وأولادُه يقفون بين يديه باحترام ولا يقدمون على أيّ عملٍ إلا بعد أخذ مشورته وموافقته. لكنّه مع مرور الأيام، وخلال زيارته السريعة إلى السويد، والأيّام التي كان يقضيها بينهم، أدرك أن الروابطَ بينه وبين عائلتِه بدأتْ تخفّ، ولم يعد يحسُّ بأنّ هناكَ الكثيرَ ممّا يربطُه بهم. فأولاده يعيشون باستقلالية تامّة عنه، كلٌّ منهم يعيش على هواه، ولا يشعرون بغيابه، بل على الأرجح يسعدُهم هذا الغياب. فلا حديثاً مشتركاً بينهم، ولا يعرفُ عن حياتِهم شيئاً. غادة تقفُ على رجليها من دونه، لا تحتاجُه، وتدبّرُ أمورَها وأمورَ بيتِها بمهارة، وتدبرُ له أيضاً أمورَه عندما يحتاجُ الى أوراق ومعاملات هنا في السويد. لم يعدْ له سلطةً عليها. وأصبح مع الوقت على قناعةٍ بأن الرابطَ بينهما قد انتهى، وبأنّها لم تعدْ تنفعُه كزوجة.

في لبنان، مع زوجته الجديدة، استعاد محمّد رجولتَه، استعاد ماضيه، استقرَّ هناك وصمّمَ على عدم العودة إلى السويد على قطع كلِّ علاقاتِه بتلك البلاد فإن اشتاقَ إليه أولادُه، أو حتّى غادة التي لم يطلّقها، ولن يطلّقها إلا إن هي طلبَت ذلك وأصرَّت عليه، فأهلاً وسهلاً بهم، وليأتوا كلَّهم، ويزورونه في بيتِه في لبنان.

مرَّت الأيامُ ثقيلةً على غادة بعد أن عرفَتْ بزواجِ محمّد من غيرها .أصبحت عصبيّة، تصرخُ على الأولاد، وفقدتْ ثقتَها بنفسِها كامراة وكزوجة، وبدأت تشكُّ بصلاحيّتِها كأمّ، وتفكّرُ بأنها لو كانت امرأةً كاملةً لما تزوّجَ زوجُها عليها، ولو كانت أُمّاً جيّدةً لما بقي ابنها في السجن لسنين. تلتجئ إلى صديقتِها سلوى عندما تثقلُ عليها الهمومُ وتكثرُ شكوكُها بنفسها. وسلوى لم تتركْها أبداً في محنتِها تلك، بل واظبت على زيارتها كلّما سنحتْ لها الفرصة، تخفّفُ عنها، تدعمُها، وتشدُّ أزرها، تحاولُ أن تنسيها ولو قليلاً ثقلَ تلك الأيام.

شديدٌ كان حزن غادة، وثقيلٌ جداً كان وقعُه عليها .ولكن الزمن كان كفيلاً بأن يشفي الجروح. أحياناً، تلتئمُ جروحَنا مع الوقت دون أن ننتبه، يتلاشى حزنُنا الذي اعتقدنا أنَّه سيعيش معنا العمر كلّه، يخفُّ رويداً رويداً، الى أن يتلاشى كلياً، ولا يبقى منه في ذاكرةِ القلبِ إلا ندبةً جافةً نائمةً مثل باقي الندوبِ النائمةِ

التي تركت لنا الحياة، فنخرجُ من الحزن، وتأخذُنا الحياةُ ودورتُها وأيامَها لنقفَ على أقدامِنا من جديد، وتعود لنا ضحكتُنا ونستعيدُ فرحَ يومِنا دون انتباه.

هذا ما حدث لغادة. فمع حلول الربيع، وانتشارِ النورِ والدفء، بدأتْغادة وبدون أن تنتبه تخرجُ من وحدتِها وصمتِها، وتعودُ تدريجياً إلى طبيعتِها، تمارسُ حياتَها كما في السابق، تخرجُ إلى الناس، وتبتهجُ وتضحكُ لأيّامِها، للحياة مِن جديد. لم تجدْ غادة من تلجأ له فيأيامِ محنتِها، تشكو له همّها ويستمع لشكواها، الا صديقتَها سلوى، وذلك الغريب أندرس، الذي استمرَّ بكلّ عنادٍ يرافقُها في طريقِ زيارتِها لابنها أيام الأربعاء.

حلَّ الصيفُ مبكراً قليلاً هذه السنة. فما أن شارفَ الشهر الرابع على الانتهاء حتى تفاجأ سكانُ تلك البقعة من الارض في شمال أوروبا بشمسٍ ساطعةٍ غزت سماءهم، ودأبت على الظهورِ يوماً بعد يوم، فارتفعت درجاتُ الحرارة، وحلَّ الدفء،، واختفت تدريجياً بقايا الثلجِ التي سكنت الزوايا بعد أن ذاب الثلج عن الطرقات والساحات. ثم فجأةً وبدون مقدمات، جُنّت الطبيعةُ جنوناً صاخباً احتفالاً بظهورِ الشّمسِ بعد طولِ غياب، فامتلأت الساحاتُ والغاباتُ بالزهور البرّيةِ الملوّنة، وامتلأت الأشجارُ من جديدٍ بأوراق خضراء، جاءت لتمنحَ أغصانَها الدفءَ ولتسترَ عريَ الشتاء.

والاحتفالُ بحلولِ الصيفِ حالةٌ لا يمكنُ أن تمرَّ مرور الكرام في شمال أوروبا. فالكلُّ يشاركُ في حفلةِ الترحيبِ بالدفءِ والشمسِ على طريقتِه، وكما النباتُ والغاباتُ تحتفلُ بأن تكتسي بزيّها الأخضر، يحتفل سكانُ تلك الغاباتِ من حيواناتٍ بحلول الدفء، وبتوفّر الطعامِ من جديد، بعد أن كادت تلك الحيواناتُ أن تهلكَ من قحطِ الشتاء وانعدام المراعي.

والإنسان في تلك المناطق له أيضاً طريقته في الاحتفال بحلولِ الدفءِ وظهورِ الشمس في سمائهم من جديد. فما أن تشرقَ الشمسُ حتى تمتلئ الساحاتُ والمنتزهاتُ العامّةُ بالناس. بالكاد يجدُ المرءُ مكاناً فارغاً على أيّ مقعدٍ في مكانٍ عام. الكلُّ يجلسُ هناك، لا همَّ لهم سوى استقبال أشعة الشمس لتدفئَ جسداً ملَّ الاختباءَ تحت كمٍّ هائلٍ من الملابس، وبشرةً غابَ لونُها ولازمَها الشّحوبُ لأشهرٍ طويلة. الكلُّ يرفعُ رأسَه إلى الأعلى، حتّى يكادُ من يزورُ السويد في تلك الفترة من السنة أن يعتقد أن الناس هنا ينتمون إلى جماعةٍ وثنيةٍ من عبدة الشمس، أو أنّهم يجلسون هناك وعيونُهم شاخصةٌ نحو السماء في ترقّبٍ وانتظارٍ لزوارٍ قادمين من كواكبَ أخرى.

وفي الصيف، تختفي فجأةً حالةُ التوتّر والعجلةِ التي تكادُ أن تكونَ السّمةَ الملازمةَ للناس هنا في فصل الشتاء، حيث يركضُ

الناس، والكلُّ يستعجلُ الوصولَ إلى بيتهِ بعد انتهاء يومٍ من أيام العمل الطويلة المضنية، والتي يبدأُ فيها الإنسانُ يومَه باكراً، يتلمسُ طريقَه الى العمل تحت جنحِ الظلامِ وسطوةِ الصقيع، ويعودُ الى بيتِه بعد انتهاءِ يومِه متلمساً طريقَه أيضاً تحت جنح الظلام. لكن تلك الحالة تتقلبُ في أيّامِ الصيفِ المشرقة، فلا يظهرُ الناسُ هنا أيّ عجلة في العودة إلى البيت، لأن يومَهم يبدأُ من جديدٍ بعد انتهاء العمل. حتى الأطفال لا يملّون من اللعبِ في الشارع، ولا يدخلون إلى بيوتهم إلاّ بعدَ حلولِ الظلامِ الذي يأتي متأخراًجداً في فصلِ الصيف.

ولا تختلفُ الحالةُ كثيراً في منطقةِ انغريد عمّا هي عليه في باقي أحياء المدينة، وإن اختلفت مظاهرُ الاحتفال بالشّمس بين سكّان المدينة ذات الأكثريّة السويدية، وبين سكّان منطقة انغريد، ذات الأغلبية المهاجرة، والتي تنحدر بمعظمها من دولٍ حارّةٍ يتقنُ أهلُها التعاملَ مع الشمسِ والاتقاءِ من حرِّها بشكلٍ مختلفٍ تماماً عمّا هو الحالُ عليه في هذه البلاد. هنا في أنغريد لا ترى الناسَ شبهَ عراةٍ يستلقون تحت أشعةِ الشمسِ في الأماكنِ العامة، ولكنّهم يتسابقون للذهاب إلى شاطىء البحر والبحيرات المحيطة بالمدينة وإلى المنتزهات العامة. يذهبون إلى هناك في مجموعاتٍ كبيرةٍ تضمُّ أفراد العائلة، من أعمام وعمّات وأخوال وخالات،

والأصدقاء والجيران وجيران الجيران، يجلسون معاً، يستظلّون بفيء الأشجار، يلعبون الكرة، ويسبحُ الصغارُ على الشاطئ، ويشوي الكبارُ اللحمَ والدجاج، ويأكلون في الهواء الطلق.

وغادة التي غدرَها زوجها، وتركَها تحملُ همَّ العائلةِ وحدَها، لم تجدْ غير أندرس رفيقَ أيّامِ الأربعاءِ وزيارةِ السجنِ تشكو له همَّها، ليخفّفَ عنها بعضاً من تعبها ويقدّمَ لها المشورة في تدبير شؤونِ عائلتها. يرافقُها أيّام الأربعاء لزيارة ابنها، يتناولون طعامَ الغداءِ في طريق العودة، ثم يوصلُها إلى البيت. لم تتغيّر الأمور، لم تتطوّر العلاقة، بينهما ولم تزد عن حدِّها أبداً، وغادة راضية سعيدة بهذه الصداقة، ولم يعد يضايقُها أو يهمُّها أن تخفيها عن أعينِ المعارفِ والأولاد. لكن ومع مرورِ الوقت، بدأتْ مشاعرُها تتغيرُ نحوه، وبدأتْ تفكّرُ فيه ليس كصديقٍ وحسب، بل أصبحت تراه في أحلامها، وتفكّر لساعاتٍ طويلةٍ به. كيف له أن يكونَ في علاقتِه الخاصة، هو الحنونُ الذي يستمعُ لشكواها دونَ كلل، يبتسمُ لها ويضحكُ لارتباكِها وتعثّرِها في الكلامِ باللغةِ السويدية التي لا تجيدها كثيراً. يستمع ويفهم ولا يتأفف أبداً. حاربت غادة بكل قوة تملكها كل فكرة خارجة عن المألوف في علاقتها بأندرس وذكرت نفسها دائما بأنها زوجة وأُم ، وكانت في كل مرة تخرج فيها أفكارها عن طبيعتها وعن طبيعة العلاقة التي ارتضتها لنفسها

مع أندرس وتأخذها تلك الأفكار إلى أماكن وعرة في العلاقة معه تحاول أن تعودَ بكل قوة بنفسها وبأفكارها الى الطريق السوي.

والصيف وشمسه وجنونه لم يستثنِ غادة، فتلوّنت وجناتها التي لوّحتها الشمس، وأصبحَتْ أكثرَ جمالاً وإغراء، كأنَّ للشمسِ عصاً سحرية مسّت قلبَها فأزاحتْ عنه بعضَ همومِه وسكنتْه خفةً مفاجئةً تبدو أكثر ما تبدو في حضورِأندرس. وبدأت تصرّفاتُها وعلاقتُها به تأخذُ شكلاً مختلفاً. لقد بدأتْ تراهُ في كلّ أيامِ الأسبوعِ وتختلقُ الحججَ لتتّصلَ به وتدبّرَ أسبابَ اللّقاء. هو أيضاً كان منفتحاً على هذا التغيير، سعيداً بهو كأنّه كان ينتظرُه بصبرٍ كل ذلك الوقت. إستمرّا في لقاءات يوم الأربعاء، لكنها لم تعدْ تقتصر على تناول الغداءِ بعد زيارةِ السجنِ، بل أنّها أصبحتْ تشملُ سفراتٍ إلى مدنٍ أخرى قريبةٍ وبعيدة، تتعرّفُ من خلالِها على السويد بعيونِ أندرس، تزورُ أماكنَ لم تكن قد زارتْها أو سمعَتْ بها من قبل، هي التي عاشَتْ في السويد سنيناً طويلةً ولا تعرفُ منها إلاّ حيَّها وسوقَ المدينة المغلق. يأخذُها أندرس الى تلك الأماكن، يشرحُ لها عن كلِّ مدينةٍ وكلِّ قريةٍ، ويبتهجُ لدهشتِها وانبهارها. يقضون نهارَهم معاً في إحدى المدنِ ثمّ يوصلُها إلى بيتِها في آخر النهار.

ثمّ كان يومٌ دعاها فيه الى العشاء، وذلك بعد أن أحسَّ بأنّ العلاقةَ بينهما بدأت تأخذُ منحىً آخراً، وبأنّ الوقتَ قد حانَ للتقدّمِ بعلاقتِه بها خطوةً جديدةً إلى الأمام. تردَّدت غادة آلاف المرات قبل أن تقبلَ دعوتَه، تريدُ ولا تريد، تخافُ من نفسِها وعليها، وتخشى عواقبَ ذلك اللقاء. تخافُ أن تفتحَ على نفسِها أبواباً لا تستطيعُ إغلاقَها لاحقاً. قلبُها وجسدُها بكلّ خلاياها يهبُّ فرحاً بدعوته ويتمنى لقاءه، تريدُ أن تخرجَ معه في لقاءٍ مختلفٍ تكون فيه الأنثى المرغوبة من رجلِها، تكون محاطةً بكلّ اهتمامِه، تحسّ بأنّها سيدةُ قلبِه وامرأتِه.لكنَّ رأسَها وأخلاقَها التي تربّت عليها تذكّرُها بالزوجِ الغائبِ، وبالأولاد، والأهل والعادات، فكيف سيكونُ موقفُها أمامَ أولادِها لو رآها أحدهم معه؟ ماذا سيكونُ موقفُ أهلِها وزوجِها إن سمعوا بأنَّها تخرجُ في اللّيلِ مع رجلٍ سويديٍّ غريبٍ؟ سيقتلونها حتماً. كانت كلّما دفعَها شوقُها إلى لقائه يحثُّها لقبولِ دعوته، فتعودُ أفكارُها وتشدُّها خطواتٍ إلى الوراء، تكبّلُ إرادتَها وتمنعُها،تلحُّ عليها بألاّ تقبلَ دعوتَه، أن تغلقَ هذا الباب، تسدّه بمتراس قبل أن ينفتحَ على وسعه ولا تستطيعُ بعدها أن تسدَّه أبداً.

كانت تلك المرةُ الأولى التي تخرجُ فيها غادة إلى العشاء، وتدخلُ إلى مطعمٍ في قلبِ المدينة، يضجُّ بالليلِ وضحكاتِ

الساهرين. كانت مرتبكةً كثيراً في تلك الليلة، ولم تكن تعرف كيف تتصرّف. جلسَتْ على مقعدِها ولم تتحرّك منه طوال السهرة. سألَها أندرس مرّاتٍ كثيرةٍ إنا كانت منزعجة، إن كانت تريدُ تغييرَ المكان. حاولَتْ أن تخفي عنه قلقَها، فماذا سيقولُ عنها إن هي أخبرَته بأنَّها خائفةٌ وبأنّها المرةُ الأولى التي تخرجُ فيها ليلاً وترى المدينةَ، وترى ناسَ المدينةِ يمرحون؟ احتارت كيف تردُّ على سؤالِه، وفي النهايةِ ابتسمت له وقالت بأنّها لا تشعرُ بالانزعاج، وجلسَتْ واكتفَتْ بزجاجةِ كولا تشربُها وتراقبُ الآخرين.

هذه هي يتبوري التي لا تعرفها، والتي طالما سمَعتْ عنها من الآخرين. جلسَت في مكانِها قلقةً يسيطرُ عليها الخجلُ والوجوم.جلسَ أندرس بقربِها بعد أن انتهيا من تناولِ العشاء، كان منتشياً بفعلِ النبيذِ الذي شربَه. اقتربَ منها كثيراً، حتى أحسَّت بالخجل، تنظرُ إلى الراقصين لتتشغلَ عنه وعن الحرارةِ التي تسري بين جسديهما. لاحظَ ارتباكها، فابتعدَ قليلاً ونظرَ إلى عينيها الحائرتين وسألَها إذا ما كانت تريد ان ترقص.رفضَت الفكرةَ فوراً وبدون تفكير، كيف ترقصُ وهي لا تجيدُ الرقص، وكلُّ خبرتِها في هذا المجال قليلٌ من الرقصِ الشّرقي تعلّمته أيّامَ الصبا وكانت تمارسُه وحيدةً أمام مرآتها، أو مع بعضِ بناتِ الجيران حين يخلو لهنّ البيت؟ هذا النوع من الرقص الذي يُمارسُ هنا لم تجرّبه أبداً.كيف ستسمحُ لنفسِها

أن تلتصقَ برجلٍ غريبٍ عنها في مكان عام؟ هذا لا يصحّ، وهو من المُحرَّمات، وهي عاشت عمرها كلّه بعيدةً عن المعاصي والحرام. ابتسمت له وقالت بأنّها لا تجيدُ الرقص.

بعد حين، وعندما أدركَ أندرس قلقَها وانزعاجَها سألَها إن كانت تريدُ الذهابَ إلى مكانٍ آخر، فهزّت رأسَها موافقةً على الفور. دفعَ الفاتورة وطلبَ سيارةَ تاكسي، وخرجَا معاً. جلسَت إلى جانبه في السيارة لا تعرفُ وجهتَها. مرتبكةً تجلسُ إلى جانبِه، تصلُها أنفاسُه ورائحةُ عرقِه الزكيّة، تسدُّ مسامَ عقلِها وتشدُّ جلدَها إليه. توقَّف التاكسي أمام أحد المباني في منطقةِ مايورانا. نزلَ من التاكسي واتجه نحو مدخلِ العمارة. تبعَته غادة دون أن تجرؤَ على سؤالِه عن وجهتهما. توقَّفَ أندرس أمام بابِ شقّةٍ في الطابقِ الثاني، فتحَ بابَها بمفتاحِه الخاص ودعاها للدخول. دخلَتْ غادة مترددّةً إلى شقّته، بيتٌ بسيطٌ جميلٌ يفتقدُ إلى البهرجةِ الشرقيةِ التي عتادَتها غادة في بيتِها وبيوتِ معارفها. وقفَتْ صامتةً خائفة، وألف ألف فكرة تتصارعُ في رأسِها .أتهربُ قبلَ فواتِ الأوان؟ أتهربُ إلى بيتِها، تحتمي بأولادها، بصورةِ زوجِها المعلّقةِ على الحائط، بدينِها، بسجادةِ صلاتها؟ أم تهربُ منهم كلّهم إليه، إلى صدرِه، ترتمي هناك وتأخذُ حقَّها من الدنيا، بدفئِه ترتوي من ماءِ الحياةِ الذي حُرِّمَ عليها طويلاً؟ وفيما هي

تتصارعُ مع أفكارِها، دعاها للجلوسِ قربه على الكنبة، وسألَها إن كانت تريدُ بعضَ الشراب، بعد أن صبَّ لنفسِه كاساً من مشروبٍ لم تعرفْه. ذكرته بأنها لا تشربُ الخمر وستكتفي بقليلٍ من الماء. جلستْ إلى جواره على الكنبة، فأخذ يدَها بين يديه ثمَّ اقتربَ منها وبدأ بتقبيلها. كانت تجلسُ بجانبِه كالبلهاء لا تستوعبُ ما يحصل. لا تستطيعُ أن تتفاعلَ معه، وفي نفسِ الوقتِ لا تستطيع أن تصدَّه. وامتدَّتْ يدُه إلى صدرِها يداعبهُ بشكلٍ ناعم، فيما هو مستمرٌّ في تقبيلِها قبلاتٍ حارّةٍ رطبة. ثم انحدرَتْ قبلاتُه قليلاً لتغمرَ عنقَها وصدرَها الذي استسلمَ دون إرادةٍ منها لقبلاتِه، تلك القبلات التي بدأت توقظُ النارَ الخامدةَ في جسدِها. خلعَ ملابسَه ورأتْه عارياً كما ولدتْه أمُّه، رأت عريه وانتصابَه، فخجلَت من نفسِها، من وجودِها في ذلك المكان، ودَّت لو تثورُ على سلبيَّتِها. لم لا تنتفضُ وتهبُّ واقفةً، وتهربُ من هنا قبل وقوعِ المحظور؟ فهي تعرفُ مسبقاً بأنّها ستندمُ عليه لسنواتٍ طويلة. حاولَت الاعتراض، حاولت ترك مكانها بقربه، لكنّها لم تقوَ على الانسحاب، فجسدُها يأبى أن يطيعَها،ولا يمتثلُ أبداً لأوامرِ عقلِها. شعرَتْ كما لو أنَّ رأسَها وجسدَها أصبحا عالَمين منفصلَين، لا اتصالَ بينَهما، لا يتحدثان نفسَ اللّغة، ولا يتّفقان على رأي. أمالها على الكنبة، ومالَ بنصفِ جسدِه فوقَها، وبدأ ينزعُ عنها ثيابَها. احتارت غادة، ولم تعرف ما ينبغي أن تفعلَه الآن.جسدُها في

حالـة إثـارةٍ قصـوى، غـارقٌ بالشـهوةِ تحـت تأثيـرِ قبلاتـه ومداعبتـه لصدرهـا، منتشيةً تغمضُ عيْنيها،تطلبُ المزيدَ من اللذةِ التي بدأت تفورُ في داخلِها وتلهبُ أحشاءَها، وفي الوقتِ نفسِه، يعلو ضجيجُ الأصواتِ في رأسِها، ينهاها عمّا هي فيه، يحاسبُها، يصرخُ سائلاً كيف ستسمحُ لنفسِها أن تمارسَ الحرام، ما الذي أصابها؟ أنسيَت نفسَها ومن تكون؟ كيف تقبلُ وترضى بما يحدث؟ لمَ لاتوقفه؟ لمَ تسمح له بالاستمرار؟ ثمّ يثورُ عليها ثانيةً عطشُ جسدِها للحبّ، يتدخّل، يحاولُ أن يخمدَ تلك الأصوات التي تتزاحمُ صارخةً حانقةً في رأسِها، يدعوها أن تستسلمَ لهذا الخدرِ اللّذيذِ الذي بدأت تحسُّه، أن تستسلمَ لنداءِ القلبِ ونداءِ الجسد،أن تعيشَ الرغبةَ ولذةَ الجماعِ التي سمعَت عنها من النساءِ الأخريات ولم تعشْها مع زوجها. استسلمت لقبلاتِه حتّى تفتّحتْ كلُّ ذرّةٍ من جسدِها طلباً له.غير أنَّ إحساسَها باللّذةِ كان يعلو بشكل مطّردٍ مع الأصوات الغاضبة في رأسها.وفي النهاية، انتصرَت تلك الأصوات، وطغَت على نداءِ القلبِ والجسد. دفعَته غادة عنها، وهبَّت واقفةً، وقالت لا أريد،إن الذي يحدثُ بينَنا هو الحرامُ بعينه، لا، أنا لا أريد. نظرَ إليها أندرس مندهشاً، لا يعرفُ ما الذي عليه فعلُه في موقفٍ كهذا. لم يفهمْ لماذا غيّرت رأيَها بعد أن استسلمَت لحبّه. حرَرَ جسدَها منه على الفور وقال لا عليك، نتوقّف إذا كنت لا تريدين. اجلسي نشربُ القهوةَ ثمّ أُوصلك إلى البيت.لكنّها صدّته

بصرامةٍ وقالت بأنها لا تريد، وبأنَّها تريدُ الذهابَ لوحدِها الآن. لم تكنْ تستطيعُ النظرَ إلى وجهِه، لا تريدُ أن ترى عينيه، ترى فيهما جسدَها الذي استسلمَ ليديه وقبلاتِه، لا تريدُ أن ترى عريَّ صدرِها في عينيه. لملمَتْ أغراضَها ولبسَت على عجلٍ ما انتزعه عنها من ملابس، واتّجهَت إلى بابِ الدار، فتحَته وأطلقَت ساقَيْها للريح، وهربَت منه، من نداءِ جسدِها وقلبِها إلى العتمة، تسدُّ الطريقَ أمامَ عينَيْها دموعُها، تشهقُ بألمٍ وحرقةٍ وتلهثُ وراءَ بعض الهواء.

خرجت غادة إلى الشارع وغرقت في ظلام المدينة. لم تستطعْ أن تحدّدَ مكانَ تواجدِها، لذا لم تعرفْ بأيّ اتجاه تسير. وقفت ونظرت حولها ولمحت من بعيد أضواء لموقف إحدى الحافلات، حثّت الخطى إلى هناك لترى الحافلة التي تسيرُ على ذلك الخطّ، وأين يمكنُ لها أن تتّجه. لحسنِ حظّها، كانت الحافلة رقم ٩ ، والتي تستطيع أن تستقلَّها حتى منطقة سكنها. جلست في المحطة وحيدةً، قلقةً خائفةً في منطقةٍ لا تعرفُها ولا تعرفُ أين تقع. طالَ بها الانتظار، ففي اللّيل تقلُّ حركةَ الحافلات لذا كان عليها الانتظار لبعضِ الوقت. نصفُ ساعةٍ قضتها في ذلك الموقف كانت أطولَ نصف ساعة يمكن لها أن تعيشها. بكت خلالها إحساسَها بالخزي الذي جلَلها، بكَت إحساسَها بنفسِها الذي

وصلَ في تلك الليلة إلى أدنى مستوياته، بكت خوفَها وقلقَها خلال دقائقِ الانتظار. وسمّرَها الخوف في مكانها وعشّشَ في كلِّ ذرّةٍ من ذرّاتِ عقلِها وجسدِها، حتى طغى على كلِّ ما عداه من أحاسيس. ماذا لو تعرّض لها أحدٌ في هذا المكانِ تحت جنحِ اللّيل، ماذا لو تحرّشَ بها أحدُ السكارى؟ وتذكّرت كلَّ حكاياتِ القتلِ والاغتصابِ التي سمعت عنها، والتي تعرّضت لها نساءٌ في هذه المدينة. زادَ خوفُها فتقوقعت في زاويةِ المقعدِ لتحجبَ عن الآخرين إمكانيّةَ رؤيتِها، تتلو آياتٍ من القرآن وتستغفرُ ربَّها وتطلبُ منه السماحَ والمساعدة، فهي لن تحتملَ صدمةً أخرى في هذه الليلة. بكت غادة فرحاً وحمدت اللّه عندما رأت أضواءَ الحافلةِ تتقدمُ نحوها من بعيد. وقفت تحتَ أضواءِ المحطّة ليراها السائق ويتوقَّفُ لها. صعدت الحافلة وجلست في المقعد الأوَل تحتمي بالسائق من أيَ ضررٍ أو خطرٍ قد يتهدّد رحلتَها الطويلة التي ستقطع بها المدينة من غربِها إلى شمالها.

أسبوعٌ كاملٌ مرَّ لم تر غادة فيه أندرس، لم تردّ على اتصالاته، ولم تذهب حتى إلى زيارة ابنها حتى لا تصادفُه أو تراه. كتبت لمحمّد طلبَتْ منه الطلاقَ وتقدّمت بطلبٍ للطلاقِ من المحكمة السويديّة. حاولتْ ان تنسى أندرس، وتنسى تلك الليلة، وكلَّ ما جرى فيها. حاولت أن تعودَ كما كانت في السابق، أمٌّ ترعى بيتَها

وأولادَها، ولا تقومُ بمعصيةِ ربّها وضميرِها. إلاّ أنّ إصرارَها على محوِه ومحوِ ذكراه ووجودِه في حياتِها، كان له مفعولٌ عكسيّ، فلم تكن تتوقّف عن التفكيرِ به، ولم تفلحْ إطلاقاً بأن تمنعَ نفسَها عن استعادةِ مشاهدِ تلك الليلة وأحاسيسها. لم تستطعْ منعَ نفسِها عن التفكيرِ المستمرِّ بتلك الليلة، بنداءِ جسدِها وعطشِه وبنداء روحِها له، تحسُّ طعمَ قبلاتِه،قريبة، وطريّة ورطبة فوق شفتيها، وتذكرُ أصابعَه المجنونةَ الدافئةَ السارحة، تكتشفُ خبايا جسدِها، وتشعلُها كمدفأةٍ في ليلةِ اشتدَّ بردُها واشتدَّ عواءُ ذئابِها.

اعترفت لنفسها في النهاية بأنها تحبُّه، بأنَّها هي،غادة، تحبُّ أندرس كما لم تحبّ مرةً واحدةً في حياتِها، تحبُّه بكلِّ جوعِ سنينِها، وبكلِّ دموعِها، وبعددِ دقّاتِ قلبِها. متزوّجةٌ هي،أُمٌّ هي، تعرف ذلك، فلتتوقَّفْ تلكَ الأصواتِ الهادرةِ في رأسِها عن تذكيرِها، ليتوقف الطّنين.أسبوع مرّ،ثمَّ ضعفَت وردَّتْ على اتصاله، وخرجت للقائه،وجلست إلى جانبِه في السيّارة صامتةً ترتجفُ من الشوقِ والقلق. لم تقل شيئاً، ولم يقلْ شيئاً،أمسكَ يدَيْها بين يدَيه، وأدنى رأسَها من كتفِه. استرخت، تركَها القلقُ وتسرَّبَ بين يديه، من مسامِها، من كلِّ جسدِها، التوتر الذي عاشَتْه في الأيّامِ الماضية، وجلسَتْ إلى جانبِه هادئةً مطمئنّةً مستكينةً كحجرٍ في قاعِ النهر.

تكرّرت لقاءاتُهما حتى أصبحت مثل الإدمانِ الذي لا تستطيعُ غادة الإقلاعَ عنه. يأخذها من أمام بيتِها في الصباحِ بعد أن يخرجَ الأولادُ إلى جامعتِهم ومدارسِهم. تغيبُ معه لمدةِ ساعةٍ أو ساعتين، يجلسان في مقهى أوفي السيّارةِ عند البحر، يشربان القهوة، يثرثران يقهقهان لأسبابٍ واضحةٍ ولأسبابٍ غير واضحة.يكتفيان بفرحةِ إجتماعهما، بأن يكونا معاً، هي إلى جانبه وهو إلى جانبها، وكلّ ما تبقّى غيرُ مهمّ. ظلاّ على تلك الحالِ لشهورٍ طويلةٍ، ولم يحاولا أبداً بعد تلك الليلة ممارسة الجنس. تعرفُ غادة تماماً بأنَّ كلَّ ما فيها ينادي باسمه، وأنَّ عقلَها لا يعملُ عندما تكون إلى جانبه، فكلُّ ما تراهُ شفتين تتحرّكان، تنادي بالحبِّ شفتيها، وأصابعَ ترقصُ، تريدُ الزحفَ إليها، إلى أسرارِها،إلى اختراقِ الحاجزِ الذي فرضتْ شروطَه غادة على جسديْهما. فهي لن تكونَ له إلاّ بالحلال. تقضي ساعاتُ الليلِ على الهاتفِ تتحدّثُ إليه، تبثُّه أشواقَها وخوفَها، وهو بصبرٍ وأناة يفهمُ ويقولُ، «أنتظر».

حصلت على الطلاق من محمد، وذهبتْ بعدَها مع أندرس إلى جامعِ المدينة، وعقدت قرانَها عليه، ثم ذهبت معه إلى بيتِه في دعوةٍ أخرى وعشاءٍ آخر. دعاها الى العشاء، ولكن هذه المرّة في بيتِه،هو سيقدّمُ لها الطّعام، سيحضّرهُ بحبٍّ لامرأة طالَ انتظارُه لها،امرأة تعيشُ على حافّةِ القلق، بين الشّوقِ والمُحرَّم. لكنها

ستكونُ له هذهِ اللّيلة، يدركُ ذلك، ويحسُّه من ارتباكِ صوتِها حين تنظرُ بخجلٍ في عينَيه،من رجفةِ أصابعِها حين يدنو منها بأصابعِه. هيَ أيضاً تعرفُ ذلك، وتعرفُ أنَّ هذا بالضبطِ هو ما تريد، وبأنَّها تموتُ شوقاً إليه. كيف تغيَّرتْ؟ كيف أصبحَتْ على ما هيَ عليه؟ من أين أتتها تلك الجرأة فأحبّت رجلاً غيرَ زوجِها، وهي أُمٌّ لخمسةِ أولاد؟ كيف لصوتِها أن يتغيَّرَ ويصبحَ كمواءِ قطّةٍ في شباط وهي تردُّ على هاتفِه اللّيلي؟

جلستْ مقابلهُ على طاولةِ العشاء، ترتدي أجملَ أثوابِها، وترتدي أقراطَها الذهبيّة، وعطرُها يفوحُ صارخاً.أكلت القليلَ مما أعدَّهُ أندرس، فجوعُ جسدِها أكبرُ وأكثرُ من أيّ جوع، لا مكانَ لطعامٍ في جوفِها. هناك فقط فراش اتُتطير، وتحطّ، وتسدُّ البابَ حتى أمامَ نقطةِ ماء. بعد أن انتهيا من العشاء، حاولت أن تتلهّى عن أفكارِها، فقامت تساعدُه في ترتيبِ المكانِ ولملمةِ الصحونِ الفارغة. وقفَتْ على المجلى تضعُ الصحون، وأتاها من الخلف، ضمَّها وقبّلَها برفقٍ في أسفلِ الرأس وأعلى الرقبة.التفتَتْ لتقابلَه وتفتح ذراعيها لاستقبالِ حبّه، مالَتْ عليه واستسلمَت ليديه، لشفتيه، استسلمت لجوعٍ وعطشِ السنين، لم تعدْ ترى أو تسمع، وغابت كلُّ الأصوات في رأسِها، لا تسمع إلاّ موسيقى تصدح، ولا ترى إلا غاباتِ وردٍ وياسمين، حنينٌ، حنين، وآهاتٌ تعلو وتغيب،

في فراشِه هي، كأنَّه فراشٌ نامت عليه سنين، ومارستْ عليه الحبَّ سنين. حنين، وموسيقى، وجنون الرغبة، وجسدٌ تتفتّحُ كلُّ مسامه، يطلقُ كلَّ رغباتِه، ويطلبُ المزيد، وأصابعٌ تفكُّ أسراره، سراً بعدّ سرّ، ليغيبَ في السّرمدي، ويحلّق عالياً. أصابعُها تمتدُّ بجرأةٍ لم تعهدْها بنفسِها من قبل، تتعرّفُ على جسدِ الحبيب، جسدُها يطولُ ويطولُ ليصلَ السماء،ولا تعرفُ من أينَ وكيف أتت الصرخة، صرخَتْ وصرخت، وأحسَّت بانتفاضةِ جسدِها قبل أن يهبطَ إلى جانبِه فيهدأُ ويستكين. راقدٌ هو إلى جوارِها، يستمتعُ برفقٍ بمتعتِها، ويطبطبُ على روحِها وقلبِها. لأوَّلِ مرةٍّ يعرفُ جسدُها استكانةَ ما بعد رعشةِ الحبّ. لأوّلِ مرةٍّ تهدأُ روحُها وتطلبُ المزيد. مرَّ الليلُ كاملاً وهي تعبٌّ من رحيقِه وتمنحُه قلبَها وجسدَها من رأسِها حتى أصغر أسرارِها.

ملأ نورُ شمسِ الصّيف التي لا تغيبُ إلاّ لساعاتٍ قليلةٍ في اليومِ غرفةَ نومهما في وقتٍ مبكّرٍ جداً، وغادة تستلقي بكاملِ عريّها، لا تغطّي جسدَها إلاّ ذراع أندرس وأصابعه السارحة فوقها، تكتشفُ تعرّجاتِ جسدِها وأماكنَ اللّذة المخبّئةِ بين طيّاته. لم تخجلْ، لم تختبئ، ولم تحاول أن تغطّي عريّها، كأنَّ جسدَها امتدادٌ لجسدِه، وكأنَّ ما من شيء أكثر طبيعيّةً في الدنيا كلها من التحامِ جسدِها العاري بجسدِه العاري. كم تشعرُ بالاطمئنانِ بقربِه، بأمانٍ

لم تعرفْه يوماً . نظرَتْ إلى عريّه، . تتأمّلُ جسدَه، وتراقبُ صحوتَه. وضعت يدَها فوق يدِه، قبّلتْهُ بشبقِ عاشقةٍ وغرقتْ من جديدٍ في لجّة اللامنتهى لتصعدَ معه مرّةً أخرى إلى السماء.

مع الفجرِ لم تعدْ تقوى على تحمّلِ المزيد، لم يعد في صدرِها طاقة لتحمّل كلّ هذا الحبّ.تريدُ أن تخرجَ إلى العلن، إلى الشارع، إلى السّماء، تريدُأن تركضَ، فلا يسعُها هذا الحبُّ كلّه، لا يسعُها وحدها، بل أنّه يسعُ الكون. لتشارك به الكون، والريح، والشمس والشجر، ليسمعه منها كلُّ الناس. خرجتْ من بيتِه تركض، تضحكُ كطفلة، تلامسُ قدمَيْها الأرض، لأوّلِ مرّةٍ تركضُ بمهارةِ غزالةٍ وعنفوانِ مهرة. ركضَتْ كلَّ الطريقِ حتى الجسرِ القريب،أعلى جسرٍ في المدينة، حيث ينامُ البحرُ عند أقدامِه هادئاً وديعاً تحت سماءٍ لها زرقةٌ لم تعرفْها هذه البلادُ من قبل. ركضت حتى أعلى نقطةٍ من الجسر، ثم توقَّفت وصرخت بكلِّ صوتها:

عاشقةٌ أنا.... عاشقة... أحبُّ أندرس، أحبُّه كثيرا.

إن متُّ اليومَ فلا حرج عليّ، فلقد خبرتُ الحبَّ واكتملت لديَّ الحياة. اكتبوا على قبري

الاسم: غادة صالح

المهنة: عاشقة

رفعَتْ يدَيْها نحو السّماء، وعلى وجهِها كبُرَتْ الابتسامة، وكبُرَتْ، إلى أن تحوّلَت أجنحةً رفعتْها بخفّةٍ فطارَتْ.

●●●

رنا

لـو تعـرف كـم أحببتـك لـو تعـرف كـم أفرحـت هـذا القلـب كـم أسـعدته وكـم أحزنتـه، وكيـف إنتظـرت افراحنـا الآتيـة وايامنـا الآتيـة، وإنتظـرت اللهفـة التـي آتتنـي علـى غفلـة منـي حـين لامسـت يـدك يـدي لأول مـرة وحلمـت بـأن تكتمـل حياتـي بـك، وأن تأتينـي بالمزيـد مـن الحـب والفـرح والوعـود وبأنـه مـا زال لنـا في الدنيـا الكثيـر.

على عجل أقفلت رنا باب السيارة وركضت باتجاه مبنى حضانة أولادها إنها المرة الثانية التي تتأخر عليهم هذا الأسبوع وهذا الأمر لن يعجب بالطبع المشرفات في الحضانة. ما الذي يضير مروان لو يحضر الأولاد من الحضانة بدل من هذا العناء والتوتر النفسي الذي تعاني منه رنا يوميا لتصل في الوقت المحدد بعد انتهائها من عملها.

أربعة وعشرين سنة عمر رنا والحصيلة طفلين ولد في الخامسة من عمره وبنت لم تكمل الثلاث سنوات بعد، وزوج عاطل عن العمل يجلس كل يومه على الكنبة يتابع التلفزيون ويخرج ليلا مع أصدقاءه وكأن لا عائلة لديه.

مراهقة كانت في السابعة عشر من عمرها عندما رأته لأول مرة، شاب وسيم باذخ في أناقته طويل بإعتدال، شعر كثيف كستنائي وعيون خضراء كغابة زيتون، نظر إليها بجرأة ولم يرفع عيونه عنها طيلة فترة زيارتها وعائلتها لعائلته التي تربطهم بها علاقة قرابة، حاولت أن تراوغ نظراته أن تنظر بعيداً ولكن جراءة عيونه عطلت إرادتها، هي المراهقة التي التي داهمها الربيع على غفلة منها فتفتحت كل ورودها تطلب الماء والشمس والهواء. في البداية أربكتها نظراته وأحست أن فيها شيء من الوقاحة ثم عادت وأنتشت زهوا بهذا الإهتمام الذي أحاطها به.

في المساء في شقتهم في بيروت نظرت إليها أُمها نظرات ذات معنى وقالت لها هل رأيت مروان لم يرفع عيونه عنك وكأنك قد سلبته عقله، وأبتسمت لها مشجعة كأنها تقول تفضلي هذا هو الحب الذي طالما نهيتك عنه في السويد أقدمه لك هنا الان على طبق من فضة، فأحبي وأعشقي حبا حلال. أحبته رنا بعيون وقلب المراهقة وطارت في هواه حتى لم يعد للعائلة من حديث غير قصة حب رنا ومروان.

كانوا في لبنان يقضون إجازة الصيف بين الأهل بعد انقطاع طويل دام سنوات. السبب العلني للزيارة كان قضاء الصيف ولقاء الأهل والأحبة والسبب المضمر كان تدبير عريس لرنا بعد أن انفضحت قصة حبها لفتى سويدي في مدرستها قبل سنتين، ورغم أن رنا أكدت لأهلها بأنها قطعت علاقتها به ولا تكلمه أبداً، إلا إن شكوكهم لم تهدأ وخوفهم من القادم ومما قد تحمله لهم الأيام من مفاجآت كان أكبر من أي تأكيد وحلفان من رنا، فهم يعرفون تماما بأن تلك العلاقة كانت علاقة أولاد، ولكنها كانت بمثابة التحذير بما يمكن أن تحمله لهم الأيام وما يمكن أن يحصل في المستقبل، وما يخبأه لهم من هموم إن لم يحسموا الأمر ويضعوا حدا لأي احتمال في أن تحبَّ ابنتهم وترتبط بشاب سويدي. كان الحل في السفر إلى لبنان ليضعوا حدا لكل تلك الهواجس ويجدوا

لها عريس من بلادها ومن دينها قبل أن تفضحهم وتجبرهم على القبول بعلاقة مع شخص من غير دينهم وملتهم علاقة لن يرضى عنها الأهل ولا الشرع ولا الدين.

كانت رنا المراهقة صبية طيبه مطيعة عاقلة وعلى قدر كبير من الجمال، فتهافت حولها شباب العائلة والجيران كل يحاول طلب ودها ورضاها. فرحت بكل هذا الإهتمام الذي ارضى غرورها وأشعرها بجمالها وأنوثتها وبأنها إمراة كاملة يحبها ويشتهيها الرجال.

الأمر الوحيد الذي لم تفهمه رنا في ذلك الحين وآثار كثيرا حيرتها وإستغرابها هو موقف أُمها المشجع والمتواطئ، أليست هي نفسها أمها التي ما إنفكت تذكرها كل صباح بأن لا تنظر إلى الشباب لا تتعاطى معهم لا تكلمهم ولا تقف معهم في الطريق حتى لو كانوا من أبناء الجيران، وهي التي لم تكن تكف عن تذكيرها بأنها تختلف عن السويديات وليس مسموح لها بأن تقيم علاقة عاطفية مع أي شاب، فشرفها هو أغلى ما لديها ويجب أن لا تفرط به وأن لا تجلب العار لأهلها. كيف تغيرت أمها بهذه الطريقة المفاجئة ألم تكن هي التي فرضت عليها الحصار مباشرة بعد أن بلغت وبدأ جمسها يستدير، ألم تكن هي من حرمتها من الإختلاط بالصديقات بعد إنتهاء دوام المدرسة، وبعد أن عرفت

بقصة حبها لرفيقها، الذي بسببه أيضاً حبست في البيت ومنعت من الخروج إلا برفقة أمها أو أحد إخوتها، ألم تكن هي من سلط إخوتها الصبيان رقباء عليها يتابعون كل خطواتها، ينتظرها دائما واحد منهم على باب المدرسة كل يوم لإصطحابها إلى البيت.

سنة واحدة كان عمر رنا عندما هاجر أهلها إلى السويد كبيرة إخوتها كانت، تربت هنا ولكنها كانت دائما محكومة بقوانين هناك، فهي الكبيرة ويجب أن تتنازل عن حقها لباقي الإخوة، وهي البنت فيجب أن تخدم إخوتها الصبيان، وهي الكبرى يجب أن تتعلم كيف تساعد أُمها في شؤون البيت. لم يسمح لها أبداً بممارسة أي نوع من الرياضة أو الفنون، فلا وقت لديها لتضيعه في مثل تلك التفاهات، أُمها تحتاجها وإخوتها الصغار. كانت تغار من صديقاتها تحسدهم وتموت غيظا وهي تراهم يمرحون ويسرحون يضحكون ملأ وجوههن وقلوبهن ويعشن حياتهن بشكل طبيعي كما لإي مراهقة في هذا الجزء من الكرة الأرضية أن تعيشها، إلا رنا التي ترى الحياة تمر من أمامها وممنوع عليها أن تعيشها لأن قائمة الممنوعات عليها طويلة جدا، وطويل جدا أيضاً صف الرقباء.كيف تغير الحال لا تدري وها هي أمها اليوم تحضها على إختيار شاب من طالبي الود هؤلاء.

فرحت رنا جدا لهذا الكرم والتساهل العاطفي ولهذه الحرية التي منحت لها على غفلة وبدون حساب وقررت أن تقبل بالزواج الذي سيكفل لها حتما الحرية ويعفيها من السجن الذي فرضته أمها ويريحها أيضاً من رقابة الأشقاء. واختارت الوسيم مروان وقضت معه صيف لا ينسى تكلل بزواجها منه قبل عودتها إلى السويد.

كم من الأحلام ملأت مخيلتها طيلة تلك السنة التي قضتها وحيدة بعيدة عنه في انتظاره في السويد. لم تشبع منه بعد ولا من الحب الذي انتظرته وحلمت به طويلا، وخططت لمشاوير كانت محرمة عليها ستقوم بها مع مروان. ستذهب معه إلى الديسكو وسترقص، وستسافر معه لحضور الحفلات الموسيقية لمغنيين تحبهم، ستتسكع معه في الطرقات يداً بيد وستقبله بالشارع علناً كما يفعل هنا كل العشاق، كل هذا واكثر ستعيشه عندما يأتي مروان. مروان بدوره لم يوفّر جهداً طوال تلك الفترة ليعلن لها عن حبه يتصل يوميا ولا يمل من إسماعها أحلى الكلام عن شديد الشوق والهيام. ووعوده بأن تكون كل أيامها معه أحلى من العسل. اليوم لا تعرف رنا أين ذهب كل هذا الحب واين اختفت كل تلك الوعود، ولا تعرف كيف ولماذا تغير مروان.

لا زالت تذكر أول لقاء لهم بعد سنة من الفراق الجبري الذي فرضته عليها قوانين هذا البلد والتي لم تسمح لها بأن تضمه إليها إلا بعد بلوغها السن القانوني، حانقة كانت هي على القانون فهي تريده بقربها زوجها وحبيبها وهل يعترف الحب بالقوانين! وهي التي تفتحت حواس الأنثى ورغباتها لديها منذ سنين، لقد تركت رنا المدرسة منذ أن تعرفت بمروان ولم يعد لها من همّ إلاّ أن تتعلّم الاهتمام ببيتِ الزوجية وإعدادهِ لحياتها المقبلة مع حبيبها. أليس من الآولى بها أن تكون معه بدل من تعيش وحيدة بعيدة عنه تحترق شوقا له هي هنا وهو يحترق شوقا لها هناك؟

كانت الليلة الأولى التي قضتها مع مروان جميلة فيها الكثير من الرومانسية التي حرصت رنا ان تعيشها معه في ليلتهما الأولى، عروس جميلة كالحلم كانت في ليلة زفافها شهد بذلك كل من حضر حفلة الزفاف. بشرة بيضاء نقية وعيون عسلية تميل الى اخضرار خفيف، شعر كستنائي فاتح طويل رفعته من الأمام وتركتها ينسدل على ظهرها يلتمع صحة وجمال تحت طرحة العروس، كم تشبه غادة في صباها، الفرق الوحيد هو طولها فلقد ورثت رنا الطول والرشاقة عن والدها. فرحةً كانت بليلة عرسِها، لم تفارق الضحكة وجهها رقصت مع مروان طوال الليل، وبعد ان انقضى الحفل وذهبت معه للمرة الاولى الى بيتهم، بقيت ممسكة

بيد مروان، تخاف ان تفلتها فيهرب حلمها الذي انتظرته طويلا، وبرومانسية المراهقة خطّطت لليلةِ حبهما الأولى فأشعلت البيت كله بالشموع ونثرت الورود في كل مكان زينت بها سريرهم وتعطرت وتجملت واسدلت شعرها الجميل على كفتين عاريين تفوه منهما رائحة الحب والرغبة لم يمنعها ارتباكها وخجلها من تعيش حلمها معه، لم يمنعها توتر المراهقة العذراء من ان تفرش له بالحب جسدها وروحها ليدنو منها ليقطف ورودها التي خبأتها له وحده ولم تسمح ليد غير يده هو بأن تمسها.

جميلة كانت ليلتها رغم إنها لم تكن كما تخيلتها بالضبط ولكنها كانت جميلة حتى لو لم تكن بقدر تلك الصور التي نسجتها في خيالها وشاهدتها في الأفلام والمسلسلات الأجنبية، لم تصل الى النشوة لم تختبر رعشة الحب في ليلتها الأولى رغم كل توتر بدنها وابواب الشهوة التي فتحتها يد مروان التي كانت تمر على عجل فوق جسدها، خاب ظنها ولكنها لم تكترث للأمر، فكثير من الأيام ما زالت تنتظرهم، عوضها عن خيبتها احساسها بالرضا وبالخصوصية والدلال التي غمرها بها مروان، وبكلمات الغزل التي ملأت قلبها وعقلها، فهي له أجمل النساء وهو يشتهيها ويحبّها ولا يريد غيرها.

في الشهر الأول لعيشهم المشترك طافت به رنا على كلّ الأماكن التي كانت تتردد إليها، عرّفته على المدينة وقدّمته إلى كل صديقاتها، وكم شعرت بالرضا والتفوّق على زميلات الدراسة السويديات اللواتي كانت فيما مضى تغيظها علاقاتهم العاطفية العلنية الممنوعة والمحرمة عليها. هي اليوم تستطيع التباهي والتفاخر عليهن بأن لديها زوج لها وحدها ولن يشاركها به أحد وبأن علاقتها به كُلّلت برضا الله والعائلة الأمر الذي يميزها عن أولئك الفتيات اللواتي يمارسن الحب الحرام.

شهر واحد فقط وبدأت أعراض الحمل تظهر عليها، الأمر الذي لم تحسب له رنا أي حساب. لم لم تنبّهها أمُّها؟ هي لا تريد أولاداً، تريد أن تتمتّعَ بحياتِها، بشبابها وبحبها مع مروان. تريد أن تقضي أشهر عسل طويلة معه، فهي لا تزالُ صغيرةً على الأولاد، والحياةُ كلّها أمامها، تريد أن تعيشَها، أن تشبعَ منها، بعد ذلك فليأت الأولاد. فكّرت بالإجهاض، فوقف جميع أفراد العائلة ضدّها، وكان مروان أكثرَ المتشدّدين والرافضين لفكرة الإجهاض، واعتبرَ بأنّ إجهاضها لطفلِه علامةٌ على عدم حبّها له. فلم تجد بداً من الرضوخِ إلى مشيئة الجميع. وجاء رامي، وتبعته أخته سارة قبل ان تكملَ رنا الحادية والعشرين من العمر. وفي غمرةِ انشغالها بالحملِ والولادة، تغيّرَ مروان، وبدأ يعيشُ حياةً أخرى خارج حياتهما المشتركة، وترك لها وحدها مسؤولية البيت

والطفلين. وعندما كانت تشكو من إهماله لها وعدم تحمّله معها مسؤوليةَ البيتِ والأولاد، كان يقابل شكواها باللامبالاة، ويحاولُ إفهامَها بأنَّ دورَها كامرأة هو المحافظةُ على البيتِ والأولادِ وأنَّ للرجلِ دوراً آخراً، فهو يعملُ خارجَ البيت، ويعيلُ العائلة. لكنَّ مروان عاطلٌ عن العمل، يعيشُ على الإعانة الاجتماعية وراتبها هي من عملها في متجرٍ كبيرٍ في قلب المدينة. وعندما ذكّرته بالأمر، بأنّه لا يعيلُهم لأنه ببساطة عاطلٌ عن العمل، جنَّ جنونُه وضربَها. ولم تكن تلك المرة الأولى، فلقد ضربَها سابقاً وهي حاملٌ في ابنتها، لكن هذه المرة كانت من أكثر المرّات إيلاما، فهي تركت آثارها على وجهها و وجسدِها وروحِها. لم تكَدْ رنا تنهي كلامَها حتى هبَّ مروان من مكانه على الأريكة مندفعاً نحوَها، فركضَتْ من أمامِه تحتمي بغرفةِ النوم. أرادت أن تقفلَها على نفسِها لتمنعَه من الوصول إليها. إلاّ أنَّ يدَ مروان كانت أسرعَ منها، ففتحَ البابَ وأمسكَها من شعرِها وجرَّها أرضاً وهو يركلُها ويصفعُها في جميع أنحاءِ جسدها. حاولَتْ رنا الدفاعَ عن نفسِها بأن تسدّدَ له بعض الرّكلات، والتي لم تكن تصيبه من موقعها على الأرضِ تحته. كان كلُّ جهدِها في الدفاعِ عن نفسِها يذهبُ سدىً. كتمتْ صراخَها قدرَ ما استطاعَت، فلم تكنْ تريدُ أن تسبّبَ الفزعَ والهلعَ لولديها. إلاّ أنّ الألمَ الناتجَ عن ضرباتِ مروان كان أشدّ من قوّةِ احتمالها. بعد أن شفى مروان غليلَه منها، تركها مكوّمةً في أرضِ الغرفة.

التفتَ نحوَها بعينين يملؤهما الحقدُ والكراهية، وبصقَ في وجهها، نعتَها بأسوأِ النعوتِ ثم صفعَ البابَ وراءَه بقوّةٍ وغادرَ البيت. في غرفةِ المعيشة، التصق رامي بسارة في إحدى زوايا الصالة يصرخان ويرتجفان خوفاً. ولم يتركا مكانَهما في الصالة إلاّ بعد أن غادرَ والدُهما البيت، فركضا نحو أُمِّهما يبكيان ويمسحان بأيديهما الصغيرة خيطَ الدّمِ النازفِ من أنفِها وشفتيها والذي اختلطَ بدموعِها وأنينها.

لا تدري رنا كم من الوقتِ مرَّ وهي ملقاةٌ في مكانها، يلتصقُ بها طفلاها يبكيان خوفاً وذعراً. استجمعَت أنفاسها بعد أن بدأتْ تحسُّ بالمكانِ والزمان وببكاءِ طفليها حولها. قامت من مكانِها واتجهت إلى الحمّام لترى وجهَها في المرآة، لترى جرحَ شفتِها العليا الذي تسبّبت به إحدى صفعات مروان. غسلت وجهَها وجراحَها وعادت إلى طفليها لتهدّيء من روعِهم وتقولُ بأنّها كانت تلعبُ مع والدِهم، وأنّ الموضوعَ لم يكن جدّياً. نظرَ إليها رامي الذي كان قد بلغ الخامسة من العمر بعيونٍ تريدُ تصديقَ ادعائها، إلاّ أنّها تحملُ الكثيرَ من الشّكِ وعدمِ التصديق، عيونُ طفلٍ كبرَ قبلَ أوانَه واعتاد أن يرى أمَّه تُضربُ أمام عينيه. لم يصدّق تبريرات أمّه لأنّ ما رآه وسمعَه كان أبعدَ ما يكونُ عن كلّ قوانين اللّعب التي تعلّمها وشاهدها حتّى الآن. بعد ذلك أخذت رنا طفليها إلى الحمام للاغتسال، وغيّرت لهما ملابسهما، وتركتهما ليشاهدا

برنامج الأطفال على التلفزيون واتجهّتْ إلى المطبخِ لتعدَّ لهما طعامَ العشاء.

بعد الانتهاءِ من العشاءِ ونوم طفليها، ذهبتْ رنا إلى غرفتِها، وغيّرت ملابسَها، ودخلت فراشَها، ولم تنم. تنهمر دموعُها بصمتٍ فوق وجهِها، ويخنقُها إحساسَها بالعجزِ والخجل. وتوقّفَ بها الوقتُ، لا يمرّ. كم كان ليلها طويلاً. بكت كثيراً وتضرعت إلى اللّه بأن يطلقها مروان وخرجت منها صرخة مكتومة تشبه الرجاء «يا اللّه فليطلّقني مروان»!

ليته يطلقها، ليته يريحها من الحياة معه، تلك الحياة التي لم تعد تشعرها بغير التعاسة، لماذا لا يطلقها فهو رجل ويستطيع ذلك من دون الحصول على رضاها، فإن أقدم مروان على تلك الخطوة سيريحها من الشجار مع والدتها كلما شكت لها همها وطلبت مساعدتها في الحصول على الطلاق، لماذا لا يقدم على ذلك فهو قطعا غير سعيد معها، وما إنفك يعيرها بأنها لا تنفع أن تكون إمرأة، وبأنها تفتعل النكد والخصام، ولا تصلح لتكون ست بيت أو أن تربي الاولاد. فلماذا يستمر في الحياة معها؟

ليته على الأقل لا يعود، فكم هي هينة ووديعة حياتها مع أطفالها بدونه، فبدون وجوده تتفرع تماما لطفليها يأكلون ما يشتهون يلعبون يغنون ويضحكون، وفي المساء تشاهد معهم برامج

الأطفال في التلفزيون، وبعد أن ناموا تجلس وحيدة أمام التلفزيون تختار من البرامج ما يعجبها ويناسب مزاجها، دون أن تضطر لمشاهدة قنوات الأخبار العربية المليئة بالقتل والدم، أو أن تشاهد فيلم آكشن تجد نفسها مضطرة لمشاهدته مع مروان.

تدخن سيجارتها الليلية بعد أن ينام أطفالها بهدوء وتحلم بحياة أفضل لها ولأطفالها من دون وجوده في حياتها. تفكر رنا أحيانا بالحب وبأن تلتقي بشخص آخر تعيش معه تلك المشاعر المتوهجة التي سرعان ما انطفئت في داخلها قبل أن تختبرها بعمق مع مروان. الجنس سيأتي به الحب الحقيقي وستجرب حتما لغة الجسد، فهي قطعا ليست باردة جنسية أو قطعة ثلج والا فلماذا تحس بتلك بالحرائق التي تشتعل في أحشائها، والتي تعلمت ان تطفئها وحدها بعد ان ينام مروان، ووحدها تعرفت على جسدها وأماكن اللذة والاثارة فيه، ليست باردة هي بل أن العلة في زوجها جهله وفي اهماله لها وعشرته لغيرها من النساء.

عاد مروان في الصباح حزينا نادما رجاها ان تسامحه وحلف واغلظ بأنها المرة الاخيرة وبأنه لن يعود إلى ضربها من جديد. لكن رنا لم تعد تصدقه، لم تعد تصدق حلفانه ووعوده كما كانت تفعل في السابق.لقد صدقته سابقاً لأنها أرادت ببساطةٍ أن تصدّقَ ولأنها كانت تريدُ أن تسترجعَ علاقتها به وأن تستعيد ما كان بينهما

من حب قبل ولادة الاولاد وقبل ان يضربها لأول مرة، كم تمنت لو انها تستطيع أن تعود بالزمن إلى البدايات أن تعيد عقارب الساعة إلى الوراء لتبحث عن العلة التي اصابت علاقتهما. اليوم تدرك بأنّه لم تعد هناك فائدة في أن تعطيه فرصة أخرى أو أن تصدقه، لأن مروان كان دائماً يعود إلى ضربِها، وبعد كلّ مرة يقسم ويعدُ بأنّها المرّة الأخيرة. كفّت رنا أيضا عن الشكوى لأمّها، ففي كلّ مرة اشتكت فيها رنا سوءَ معاملةِ مروان وضربِها لها. كانت غادة تعنّفها وتقولُ بأنّها وحدها المسؤولة عن سوءِ معاملةِ زوجها لها، فليس هناك امرأة عاقلة تشعرُ زوجَها بالدونية وتعيّره بأنه لا يصرفُ على بيتِه.

جرّبت رنا كثيراً في السابق وبناء على نصائح أُمها بأن تكونَ أكثرَ حرصاً في اختيار كلماتها، جرّبت ألاّ تشعرُه بأنها هي التي تصرفُ على بيتِها وأطفالِها. جرّبت كلّ الحلول التي اعتقدت بأنّها قد تساعدها على تخطّي الأزمة التي تعيشُها علاقتهما. فهي قطعاً لا تريدُ أن تخربَ بيتَها، ولا تريدُ أن تتسبّبَ بالإحراجِ لزوجها. كلُّ ما في الأمرِ هو أنَّها أرادت أن يشاركَها مسؤوليةَ البيتِ والأولاد، أن يكونوا مثل أيّ عائلةٍ تتقاسمُ المسؤوليّة تجاه بيتِها وأولادها. حاولت رنا كثيراً، غير أنَّ علاقتِها به استمرّت بالتدهور والانحدار، وأصبح مروان يضربُها لأتفهِ الأسباب، ويعيّرها بأنها

ليست امرأة، بأنها باردةٌ كلوحٍ من الجليد، وبأنّه ما من رجلٍ يطيقُ مثل هذه الزوجة.

كم حلمّت بالحب وبحياة هنية، كم تاهت مع الأفكار ترسم أشكالاً لصورا وخيالات وردية لوّنت حلمها بلقائهما الأول، كم حمل هذا الرأس من أوهام، بأن حياتها معه وحبهما سيكون شيئا يشبه الأساطير، بأنه سوف يحملها بحبّه إلى عوالم بعيدة حيث تتحوّل كل الأشياء إلى أدوات للتعبير وأماكن للحس والنشوة. كانت تعلم أنه لا دراية لها بفنونِ الحبّ والهوى، فكلّ تجربتِها كانت قبلات تبادلتها مع أحد زملائها في المدرسة، ولكنها كانت تعتقد أن لمروان باع وذراع في الامور العاطفية وبأنه اكثر تجربة منها وسيعلمها ما تجهله، وبأنه سيكون رؤوفا حليما ويقدر جهلها. لكن أحلامها اصطدمت بالواقع عندما أدركت بأن مروان أكثر جهلا منها بتلك الأمور، والمؤلم في ذلك كله هو أنه يعتقد بأنه ملك في هذا المجال، يرقص أمامها عاريا كالبهلوان متباهيا بانتصابه يقبلها على عجل يلمسها على عجل ولا يراها لا يرى جسدها الغض الشاب الجائع للحب والمداعبة ولا يهمه إلا أن يطفئ شهوته ويروي وطره.

كان يسألها مزهواً بفحولتِه إن كان يرضيها، إن كانتْ تصلُ إلى متعتِها معه، تبتسمُ وتقولُ كاذبةً نعم، فخجلُها كان يمنعُها

من مصارحتِه بالحقيقة. وفي مرةٍّ يتيمةٍ تجرّأت وأخبرته ببعضِ ما تحسّه، فغضب وبقي شهراً كاملاً لا يقتربُ منها. في النهايةِ استسلمت، واعتبرت أن الحياةَ ستعلّمهما معاً وستزيد من خبراتهما. وأقنعت نفسها بأن الشيء الأهمّ والذي يجب أن تركّز عليه الآن هو بناءُ حياةٍ مشتركةٍ تقوم على الحبَ والمشاركة، وبأنها ومروان سيصنعان حياةً مختلفةً عن حياة والديها، سيتقاسمان كلّ شيء في السرّاء والضرّاء، ورأته يقفُ معها في المطبخِ يغسلُ الأطباق، فيما تقوم هي بطهو الطعام. وكم أسرَها شكلُه وإنفطر قلبُها حناناً عليه عندما تخيّلته يحملُ وليدَهما الأوّل على خصرِه ويقومُ بجولةٍ معه في حديقةِ المنطقة، فيما هي ترتاحُ قليلاً بعد عناءِ ليلةٍ لم تذقْ فيها الكثيرَ من النوم.

لا شيءَ من هذا تحقّق، وما رأته وعاشته أزال أوهامَ ورومانسيةَ تلك المراهقة التي كانتها. وها هي اليوم امرأةٌ ومسؤولةٌ عن عائلةٍ وحدها، تحاولُ استعادةَ إمكانية رسمِ مستقبلِها الذي ضاع في الحب والزواج. ومن أجل ذلك انتسبت إلى مدرسةٍ لتعوّضَ سنينَ الثانوية التي لم تنهها. حاولت جاهدةً أن تكمل تلك المرحلة الدراسية رغم صعوبة الأمر نظراً لوجود طفلين ومسؤولية عائلة ملقاة على عاتقها. وبدأت تحلم بدراسة جامعية تؤهلها لشغل وظيفة جيّدة براتبٍ جيّد فيما بعد. لكن مروان الذي لم يعجبْه

أبداً مشروعُها المستقبلي، عملَ ما بوسعه لوقفِها عن تحقيقه، فلم يدع وسيلة إلا ومارسَها لثنيِها عن عزمِها. فكان في الكثير من الاحيان عندما تتأخر غادة مثلا في إعداد الطعام، يقول متأففاً متذمراً بأن ما لها هي وللجامعة والمدرسة فإن بيتها وزوجها وأولادها أولى بوقتها من دراسةٍ لن تقدّم أو تؤخّر. تجاهلته واكملت مصممة ما بدأته، عندها بدأ مروان باستخدم أسلوب آخر، وهو السخرية منها، فيقول ساخراً بأنها لن تفلح في أي عمل، ولن تحصل ابدا على اية شهادة لأن لا عقل في رأسها الذي يشبه الكرة الفارغة إلا من الهواء، ويذكّرُها بأنّها امرأة، ناقصةُ عقلٍ ودين، وهل ستعترض على كلام الدين؟ ويخلصُ دائماً إلى القول بأنّ عليها أن تريحَ نفسها وتلتفت الى بيتها بدل من تضييع الوقت في التفاهات.

كان مروان فناناً في صياغة الكلمات الجارحة المؤلمة التي كانت تدمي قلبها وتسبب لها الأسى في أغلب الأحيان، وفي نهاية الأمر وبعد اشهر طويلة قضتها رنا تركض بين العمل والمدرسة والبيت والأولاد تحقق لمروان ما أراد وتركت فكرتها بالدراسة وتركت المدرسة، تخلت عن حلمها بعد ان ثقل عليها الحمل كثيرا كيف ستفلح هي في القيام بكل تلك الواجبات وحدها. ثم بدأت تساورها الشكوك تجاه نفسها وقدرتها على تحقيق أي شيء،

بدأت رنا تصدّق ما يقوله مروان عنها، بأنها لا تصلح لشيء وإلا فلم لا يشتهيها زوجها؟ حتى انه لا يجدُ حرجاً في تذكيرها يومياً بذلك ويعيّرُها بغيرِها من النساء. تفكر في أُمِّها وكلماتِ أُمّها التي تقولُ بأنّها هي المسؤولة الأولى والوحيدة عن كلّ ما أصابها، فالمرأةُ العاقلة هي التي تعرفُ كيف تحافظُ على زوجِها وبيتِها.

لم يكن لرنا صديقات تشكو لهنّ همَّها، تتشاور معهن، تتعلم من خبراتهن و تستفيد من تجاربهن. فصديقاتُ الدراسة انقطعت علاقتَها بهن بعد الزواجِ والحمل. الإنسانة الوحيدة المتبقّية لها والتي تودّ رنا كسبَ صداقتِها هي أُختُها سمر. آه كم تحسدُها، كم تتمنَى لو أنها كانت مثلها. فسمر قويةٌ وواثقةٌ من نفسِها، لا ترضخ أبداً لتهديدِ العائلة. لقد رفضت كل المغرَيات لانتقاء عريسٍ مستوردٍ لها من لبنان، وتصرُّ على إكمالِ دراستِها ورسمِ مستقبلِها بنفسها دون تأثيرٍ من أحد. لم تفلح في ثنيها عن عزمِها كلُّ محاولاتِ أُمّها في إرهاقِها بالأعمالِ المنزلية، أو حتى ضغط محمود عليها لكي تتحجّب.. لكنَّ المشكلة التي تقفُ عائقاً في أن تقوم صداقة حقيقية بينها وبين أختها، هي أنَّ رنا تغارُ من سمر، تغار من حريَتها، تغارُ من علاقتِها بوالدَيها. فهي لم يكن لها يوماً مثل تلك العلاقة بأهلها. ولكن رغم غيرةِ رنا وجفائها أحياناً تجاه أختها، كانت سمر ودودةً جداً معها، تحبُّها وتحبُّ

أولادَها وتدلّلهم كثيراً. وفي المرّات القليلةِ التي فتحت فيها رنا قلبها لأختها وشكت لها همومَها وتعاسةَ علاقتِها بزوجِها، وجدت في سمر سنداً حقيقيّاً ساهمَ في إزاحةِ الغشاوةِ عن عينيها وأعادَ لها القليلَ من ثقتِها بنفسِها.

لا تنسى رنا ذلك اليوم الذي اعتبرته مفصلاً حاسماً لمستقبلها ومستقبلِ علاقتِها بمروان، حين جلست مع أُختِها سمر في المطبخ، في بيت عائلتها، يوم عودةِ والدها من لبنان. فبعد العشاء وانصراف والديها إلى غرفتهما، جلست رنا حزينةً وحيدة. كانت تريدُ أن تتحدّثَ الى والدِها بشأنِ علاقتها بمروان، إلا أنّه خذلَها وذهبَ إلى النومِ متعلّلاً بالتعب، دون أن يعطيها أيّ فرصة لفتحِ حديثٍ معه. وعندما شكت استياءها من عدمِ اهتمامه بها وبمشاكلِها لأمّها، نهرَتها غادة وقالت، «دعي والدَك يستريحُ من عناءِ السفر».

جلست رنا بعد أن ذهبت أمُّها وحيدةُ في المطبخ تبكي بصمت، لحقت بها سمر وجلست إلى جانبها هناك. أمسكت بيدها، اقتربت من أختِها، وضمّتها، بقيَت بقربِها تجلسُ صامتةً وتشدّ على يديها، ولم تفتحْ فمَها بكلمةٍ إلى أن هدأَت رنا وبدأَت تخبرُها عن همّها. حدثتها عن فشل علاقتها الفظيع بمروان، كيف يعنّفُها، كيف يضربُها أمام الأولاد، ويخونُها، ولا يحبُّها ولا

يحترمُها أبداً. غضبَت سمر كثيراً واستغربَت خنوعَ أختِها وقبولَها بالعيش مع مثل هكذا رجل وفي ظلّ تلك الظروف. وذكّرت رنا بأنّها في السويد، البلد الذي قطع شوطاً كبيراً في طريقِ المساواةِ بين الرجل والمرأة. شجّعتها على الخلاصِ من تلك العلاقة، وبأن تنسى ولا تفكر بأهلِها وبرأيِهم وموقفِهم من القضيّة، وألاّ تفكّر بالعاداتِ والتقاليدِ وكلامِ الناس، فليس لأيّ منهم علاقةٌ في هذا الموضوع الذي يمسّ حياتها وحدها، وأنّ أهلَها و تقاليدَهم ليسوا من يتعرّض للضّرب والاذلال. ذكّرتها بأن الحلّ بيدها وحدها، وهي وحدها صاحبةُ القرار. وحرّضتها بشكلٍ مباشرٍ على الطّلاق، قالت، «خذي قرارَك بنفسِك ولوحدِك. إرفعي قضيّةَ طلاقٍ على مروان، لا تنتظري، فنحن في السويد ولك كاملُ الحقِّ في الطلاق مثله تماما. طلّقيه وضعيه هو وأهلَك أمام الأمر الواقع». هدأت رنا وارتاحت لكلامِ أختها. اقتربت منها، وقبّلتها من خدّها، ثمّ عانقتها عناقاً طويلاً، وذهبت كلٌّ منهنَّ إلى فراشِها لتنام.

نفع رنا كثيرا الحوار والحديث الذي دار بينها وبين سمر، واحست بأنه ازال الكثير من الأوهام التي غشت رأسها سابقا، بدأت تفكر بشكل صحيح ولوحدها، وقررت من جديد أن تنتسب إلى المدرسة، لم يعد يهمها بعد اليوم اعتراض مروان، فهي تعرف بأن مروان يرفضُ مشروعَ دراستِها لأنّه يغارُ منها. فكيف سيحتملُ

أن يكون زوجاً لامرأة تتفوّقُ عليه في المستوى العلمي والثقافي؟ وهي أدركت أيضاً بأنها ليست غبيّة، لو كانت كما يقولُ مروان، فكيف تديرُ وحدَها دفّةَ بيتِها وتربّي وترعى أولادَها؟ ولماذا يكنُّ لها كلّ من عرفتهم الودّ والاحترام إن لم تكن أهلاً له كما يدّعي مروان. هي أيضا امرأةٌ عاملةٌ ومحبوبةٌ في عملِها.. أصبحت رنا أيضاً على قناعةٍ تامّةٍ بأنها ليست باردةً جنسياً، بل هي فقط تنقصُها التجربةُ مثل زوجِها تماماً. الفرق بينها وبينه هو أنه حلَّ مشكلتَه بإقامة علاقاتٍ خارجَ الزّواج، أما هي فلا، و ذلك لأسبابٍ كثيرةٍ أهمُّها الأخلاقُ التي تربّت عليها، والتي تمنعُها من إقامةِ علاقةٍ مع رجلٍ آخر طالما هي مرتبطة ومتزوجة.

كبرت رنا ونضجت ولم تعد تلك المراهقة التي تقنعها وعوده بالتغيير بأنه لن يضربه بعد اليوم وبأنها المرة الأخيرة، وبأن تصرفاتها الرعناء مسؤلة عن نوباته العصبية وخيانته لها، كبرت رنا كبرتها التجربة والمسؤلية كبرتها الأمومة المبكرة، كبرت وهي ترى الخوف في عيون أطفالها في كل مرة تمتد يد مروان بالضرب على جسدها أمامهم، كبرت من خجلها بنفسها أمام أطفالها وأمام نفسها. لم تعد تصدق أحلام الحب والكلام المعسول ولا الوعود الفارغة التي أصبحت على يقين بأنها لن تتحقق، وفقد مروان كل تأثير له عليها، فجماله الذي أسرها عندما رأته لأول مرة قبل

الزواج وفي الفترة الأولى من زواجهم لم يعد له وجود، لم تعد ترى ابدا أي ملامح للجمال في قسماته، وكأنه أصبح إنسان آخر بملامح قبيحة شديدة القسوة، لم تعد ترى الحب في عينيه فكل ما تراه بعينيه اليوم هو فراغ وبرود، لم تعد تحبه وتحول حبها نحوه إلى اشمئزاز، أصبحت تحس بالكره نحوه تشعر بأن كرهها له يكاد ان يتحول إلى قوة هائلة في داخلها قادرة على قتله، أصبحت تخاف من نفسها ومن قوة تلك المشاعر.اصبحت تعرف بأنه لم يعد هناك مجال لتأخير قرارها، ولم تعد تنتظر بأن يأتيها الحل عن طريق الآخرين وأصبحت على يقين أن علاقتها بزوجها قد وصلت إلى طريق مسدود لا رجعة فيه، وبأنه يجب عليها ان تنهي زواجها قبل أن تصل بها مشاعر غضبها و بغضها له إلى ما لا تحمد عقباه.

لن تسامح أهلها على ضياع سنين عمرها على ضياع سنين طفولتها ومراهقتها والباسها دور أمراة أكبر منها عمرا وتجربة. لن تسامح أهلها على طمسهم لشخصيتها وتحويلها إلى إنسان سلبي غير قادر على الدفاع عن نفسه وعن أطفاله، فبسببهم لم تجرؤ يوما بالرد على صفعات مروان على تعنيفه وقتله اليومي لروحها وإنسانيتها وبسببهم حملت نفسها دائما المسؤولية عن كل الذي كان يحصل لها، بسببهم وسبب معاملاتهم اصبحت ثقتها

بنفسها شبه معدومة وباتت تصدق كل ما يقوله مروان في وصفها بأنها غبية لا تصلح لشيء وتستحق كل الذي يجري لها وأكثر، ويقول بتهكم فلتحمد الله الذي أعطاها زوج يرضى بها على علاتها بصبر ورضى.

لو كان لها أهل يقفون بقوة الى جانبها لو علموها كيف تدافع عن نفسها بدل من زرع الخوف في داخلها وافهامها بأنها لا تساوي أي شيئا أن هي خسرت أهم ما لديها ذلك العزيز الغالي الذي يقبع بين فخذيها، عذريتها فلتحافظ عليها فلا هي ولا أي شيء آخر دونها مهم، ما حاجتها لعقلها لمشاعرها لعلمها لعملها أن هي أضاعت عذريتها. عذريتها التي إن لم تحافظ عليها ستضيع وتضيع كل عائلتها معها. يا لهول وكبر هذه المسؤولية التي ارهقت منذ الصغر اكتافها، لماذا يرمون عليها بهذا الحمل الثقيل، ولماذا يكون شرفهم جميعا مسؤوليتها هي وحدها.

هؤلاء هم أهلها وهذا ما تركوه لها وما ورثته عنهم، أهلها الذين لم تجد فيهم يوما ظهرا صلبا تتكئ عليه، بل إنهم أسهبوا ايضا وكثيرا جداُ بلومها وحملوها الذنب وقالوا بأنها وحدها السبب الأول والأساسي لخلل علاقتها بمروان.

في الصباح الباكر وقبل ذهابها إلى العمل وقفت رنا أمام باب المحكمة تنتظر بصبر أن تفتح المحكمة أبوابها لتتقدم بطلب

الطلاق. لقد أخذت قرارها وحدها ولن تنتظر موافقة مروان أو رضا أهلها. قدمت الطلب ودفعت الرسوم وكلها ثقة بقرارها، ولأول مرة تحس بأنها تقف على أرض ثابتة وبأن لا شي سوف يثنيها عن عزمها وبأنها ستنتظر حريتها مهما طال الأمر، هي تعرف بأن مدة القضية ستطول بدون موافقة زوجها وتوقيعة على طلب الطلاق، لكن الأمر لا يهمها كثيرا فلحريتها ثمن وهي اليوم قادرة على دفعه، لن تستعجل الأمور فلديها الكثير من الأعمال والآمال، ستنتظر حريتها بقلب وعقل مفتوح.

وفي المساء في شقتها بعد أن نام الأولاد أخبرت مروان بأنها تقدمت للمحكمة بطلب الطلاق وبأن عليه أن يرحل أن يجد مكان آخر يقيم به، وإلا فسترحل هي واطفالها وتترك له البيت. جن جنونه وحاول أن يثنيها عن عزمها بالترهيب تارة وبالترغيب وبالوعود تارة أُخرى، وعندما لم يجدي أي من أساليبه التي تعودت عليها رنا والتي لم تعد تؤثر بها، إتهمها بأن لها عشيق وبأنها من أجله فقط تريد الطلاق، تريد أن تخرب بيتها وتشتت اطفالها، بأنها تريد أن تتخلص منه ليخلو لها الجو وتعيش على هواها وكما يحلو لها مع عشيقها. هادئة صامتة جلست أمامه ولا تعرف من أين جاءها كل هذا الهدوء وكل هذا الصبر وكل تلك العزيمة، لم ترد لم تضحك بل كررت عليه ما أخبرته به سابقا،

قالت له بهدوء بأنها مصرة جدا هذه المرة على الطلاق وعلى تنفيذ ما تريد، لان طلاقهم هو الحل الأمثل له لها وللجيمع، فهي بعد اليوم لن تفكر إلا بنفسها وبأولادها وبالأفضل لها ولهم، ثم قامت من أمامه وتركته امام التلفزيون جالسا على الكنبة يأكل في نفسه مستهجنا موقفها وعزمها وهدؤها، تركته هناك لينام على الكنبة وذهبت الى غرفتها لتنام بمفردها، تفرد كل جسدها على وسع السرير وتنام ملء عينيها وحيدة سعيدة في سريرها العريض.

أبلغت أُمَّها وإخوتَها بقرارِها، واستغربت من موقف غادة التي لم تَلُمْها كالعادة. كانت غادة سارحةً قليلاً على غيرِ عادتها، ليست معهم، تسمعُها، تحدّثُها، ولكنها بعيدةٌ بعض الشّيء عنهم، وفي عيونها لمحتْ رنا شيئاً جديداً، شيئاً يشبهُ البريق، لم يسبقْ لها أن رأتهُ في عيني والدتِها من قبل. نظرتْ اليها أُمُّها بوجهٍ يشعُّ طمأنينةً وهدوء، وأخبرتها بما كانت قد أعلنته في صباح اليوم لجميع إخوتها، بأنَّها قد تقدّمت بطلبِ الطّلاقِ من والدهم. اندهشت رنا كثيرا لقرارِ أُمّها المفاجئ في الطلاق. فهو شيءٌ لم تكنْ تتوقعه أوتنتظره من أمّها. نظرت حولها تبحث عن جواب في عيون إخوتها، التقت عيناها بعيني سمر التي هزَّت برأسِها هزةً خفيفةً مؤكدةً فيها لرنا صحّة هذا الأمر وجديّته. سكتت

غادة قليلاً لتمنح رنا الوقت لتستوعب ما أخبرتها به، ثم أمسكت بيد ابنتها وشدَّت عليها بحبّ وحرارة. قرّبتها من قلبها وداعبَت شعرَها وقالت لها بهدوء: هذه حياتك وأنت أدرى بها، افعلي المناسبَ لكِ ولأولادك، المهمّ عندي أن تكوني سعيدة.

سنةٌ كاملةٌ مرَّت منذُ أن غادرَ مروان بيتَها وحياتَها، لم تكن بالسنة الهينة. فمروان لم يستسلمْ للأمرِ بسهولة، ضيّقَ الحصارَ حولَها مرّاتٍ كثيرة، وبحجّةِ الأطفال لم تكن رجلُه تنقطعُ عن بيتِها في الفترة الأولى. لم يكن يمرّ يومٌ إلا ويأتيها طارقاً الباب بحجّةٍ من حججهِ التي لم تكن تنتهي. يراقبُها صباحاً وهي في طريقِها إلى العمل ليرى أن كانت تتحدّث مع أحد أو إن كان هناك من ينتظرُها عند محطة الترام أو أمام العمل. بعد أشهرٍ من المتابعةِ والحصارِ على حياتها وبيتها، ملَّ مروان، فتركَها لحالِها هي وأولادها، والتفتَ إلى حياتِه يعيشُها كما كان يعيشُ في السابق. حتّى الاطفال الذين طالما تحجّجَ بهم وبأنَه لا يستطيعُ أن يمرّ يومٌ دون أن يراهم، لم يعدْ يسأل عنهم وأصبحَ يختلقُ الحججَ ليتملّص من أخذِهم إليه في أيّامِ العطلِ التي من المفروض أن يقضيها معهم.

لم يشغل هذا الأمر بال رنا كثيرا، فقد كان همُّها منصباً على أطفالِها ودراستِها. أكلمت ما كان ينقصها من مواد وأخذت

علاماتِ المدرسةِ الثانويةِ، ثم التحقت بالجامعة، كليةِ التعليم لتصبحَ بعد التخرّجِ معلّمة. سعيدةٌ كانت بحريّتها وبوقتها الذي كانت توزّعه بين بيتِها ومستقبلها بالطريقةِ التي تناسبُها.

في الجامعة، أصبح لديها أصدقاء، وشيئاً فشيئاً استعادت ثقتَها بنفسِها، وبدأت تكتشفُ نفسَها من جديد من خلال علاقاتها بالأصدقاء، فترى نفسَها بأعينِهم ذكيّة، جميلة، لمّاحة وخفيفة ظلّ. كثيرةٌ كانت العيونُ التي لاحقتها في الجامعة وفي الحيّ. لكن رنا لم تكن أبداً تعبأُ لنظراتِ الإعجابِ التي كانت تلاحقها، ففي خطّتها الحاليّة لا مكانَ لرجل.

في أحد مساءات شهر أيار عادت رنا إلى البيت بعد أن أحضرت أولادها من الحضانة لتجد إشعاراً بوصول رسالةٍ مسجلةٍ تنتظرُها في مركز البريد. عادت أدراجَها برفقةِ طفليها لتستلمَ الطّرد. كانت رسالةً رسميةً من محكمة يتبوري، فتحتْها وقلبُها يكادُ يطيرُ من مكانِه، لتجدَ وثيقةَ طلاقِها من مروان.

ضحكَت، وحضنت أطفالَها وأخذتهم إلى الدكان القريب، وقالت، «اشتروا ما طابَ لكم، سنحتفلُ اللّيلة. اليومُ عيد».

●●●

سمر

عنيدة ورأسها كالصخر، صفاتٌ رافقتْ سمر طوال سنواتها العشرين وسمعَتْها في محيطِها منذ أن بدأ تشكّلُ ذاكرتِها الأولى.

وُلدتْ سمر في أحد مستشفيات مدينة يتبوري في يومٍ باردٍ بامتياز من أيامِ شهرِ شباط. ولادتُها كانت من أعسرِ الولاداتِ التي عاشتْها أُمُّها وعانتْ فيها من آلامِ المخاضِ الذي لم ينقطعْ أو يتوقفْ على مدى أربعةٍ وعشرين ساعة. تكوّرَ الجنينُ في رحمِها يأبى النزول، ولم تنفعْ كلُّ محاولاتِ طبيبةِ الولادةِ ومساعديها في ثنيِ الصغيرةِ عن عزمِها التشبّثَ بمكانِها قربَ قلبِ أُمّها، ولم تتركْه إلاّ في تلكَ اللحظةِ التي قرّرتْ فيها الطبيبةُ إجراءَ جراحةٍ قيصريةٍ عاجلة، عندها فقطْ مدّت الطفلةُ رأسَها وانزلقت على مهلٍ من رحمِ أُمِّها.

صغيرةُ الحجمِ وبعيونٍ مفتوحةٍ على وسعِهما هلّت سمرٌ إلى الوجودِ وصرختْ صرخةً عظيمةٍ جفلَ منها كلُّ من كانَ في غرفةِ الولادة. صرختْ سمر ولم تتوقّفْ عن الصراخِ طوال الأشهرِ الأولى من عمرها. ولم تنفعْ جهودُ الأهلِ ولا كلُّ الوصفاتِ التي خبروها من تجاربِهم السابقةِ في تهدئتِها أو الحدِّ من غضبِها، كما

لم تفلحْ كلُّ الوصفاتِ التي اقترحتها الجدَّةُ أو الأقاربُ والجيران، من الينسونِ المغليّ إلى الكمّونِ أو زنّارِ البطنِ أو المغطسِ الساخنِ وفركِ جسمِ الصغيرةِ بزيتِ الزيتونِ الدافئ. كما لم تنفعْ المريميّةُ المشهودُ لها بعجبِ العجابِ في أن توقفَ صراخُ الصغيرة. لم تنفعْ النصائحُ الأُخرى، مثل أن تنامَ على بطنِها أو على جنبها، أن ترضعَ من امرأة غير أُمّها، أو أن تنامَ في سريرَ أُمّها لتشمَّ رائحتَها فتهدأ وتنام، أو أن تنامَ بعيداً عن أُمِّها حتى لا تشمَّ رائحتَها فتهدأ وتنام. لم يبقَ شيءٌ إلاّ وجرّبوه، لكنَّ سمراً لم تسكتْ ولم تكفَّ أبداً عن الصراخِ إلاّ في ساعاتٍ قليلةٍ من اليوم. فِي تِلْكَ السَّاعَاتِ الَّتِي كَانَتْ تَنَامُ فِيهَا سَمَرُ كَانَ يَتِمُّ إِعْلاَنَ حَالَةِ الطَّوَارِئِ فِي الْبَيْتِ، فيمنَعُ الكلُّ من الكلامِ والحركة، ويُنصحُ الجميعُ بالنّوم، فلينمْ من يستطيعُ النومَ منهم ليشحنَ طاقتَه استعداداً للجولةِ القادمة.

عانت العائلة من أشهرٍ كاملةٍ من التوترِ وشدِّ الأعصاب، وخصوصاً غادة التي لم تعرفْ النومَ في الأشهرِ الأولى من عمر ابنتها إلا لساعاتٍ قليلةٍ في اليوم، فأهملتْ بيتَها وباقي أولادِها. كانت تسيرُ وتطبخُ وتقومُ على شؤونِ العائلةِ وهي في شبهِ غيبوبةٍ لا تصحو منها أبداً.

صغيرةُ الحجمِ وُلدتْ سمر، وَلَكِنْ كَانَ لِصَوْتِهَا قُوَّةَ وَمَفْعُولَ عَشَرَةِ رِجَالٍ أَشِدَّاء، وَلَمْ يَكُنْ أَيٌّ مِنْ أَفْرَادِ الْعَائِلَةِ يَجِدُ تَفْسِيرًا

مَنْطِقِيًّا لِهَذِهِ الْقُوَّةِ الْهَائِلَةِ فِي صَوْتِهَا وَهَذِهِ الْعَزِيمَةُ وَقُوَّةُ الاِحْتِمَالِ لِطِفْلَةٍ لاَ تَنَامُ وَتَصْرُخُ فِيهِمْ وَكَأَنَّهُمْ جَمِيعًا خَدَمَ وَجَدُوا خَصِّيصًا لِلْوُقُوفِ عَلَى رَاحَتِهَا .

ربّما كانَ هذا هو السببُ الرئيسيُّ في سمعةِ العنادِ والرأسِ اليابسِ التي التصقّتْ بسمر، وربّما كانَ هذا أيضاً هو أحدُ أهمِّ الأسبابِ التي فرضتْ على العائلةِ أن تعاملَ سمراً معاملةً مختلفةً عن بقيّةِ إخوتها، فطلباتُها مستجابةٌ ولا يمكن إقناعَها بتغييرِ رأيها، وتنفّذُ ما في رأسِها شاءَ من شاءَ وأبى من أبى. هذا الأمرُ كان بالطبعِ السببَ الرئيسيَّ لمعاركِها مع إخوتِها والسببَ المباشرَ أيضاً في الغيرةِ التي أكلتْ قلوبَهم الصغيرةَ وملأتْها حنقاً على سمر وعلى والديهم في نفسِ الوقت. من أين أتتهم هذه الصغيرةُ التي سلبَتْهم كاملَ حقوقِهم، ولماذا تُعامَلُ باللينِ والإقناعِ من والدَيْهم، على عكسِ الطريقةِ التي تربَّوا عليها، وهي التخويفُ والترهيبُ واحترامُ قرارِ الأهلِ مهما كان. حقدَ الكلُّ عليها وقتلَتْهم الغيرة، وكان أكثرُ من أحسَّ بالغبنِ والتمييزِ غيرِ المحقِّ في التعاملِ هي أختُها الكبيرةُ رنا.

لو سألَت أُمُّها عن السببِ في تمييزِها لسمرٍ عن باقي إخوتِها، لضحكَتْ ولمعَتْ عينيها حباً، وقالت، «سمر قويّةٌ قادرةٌ على كلّ شيء، ولا أخافُ عليها، هي ذكيةٌ جداً جاءَت من بطني وهي

تعرفُ ما تريد. أنا لا أميّزُ بينَها وبين باقي أبنائي في المعاملة، ولا أُحبُّ أحدُهم أكثرَ من الآخر، ولكنَّ سمراً هي التي فرضَت عليّ طريقةَ معاملتِها، أنا لم أقرّرْ فيها ولم أختر».

وما كانَ يمكنُ لوالدِها أن يقولَ شيئاً مختلفاً، بل كانَ يضيفُ أنَّهُ يحسُّ أحياناً بأنّها هيَ من تقومُ بتربيتِهِ وليسَ العكس، وترافقُ كلماتِه ضحكةَ حبٍّ كبيرةٍ من القلب.

ولمْ تضرّ هذهِ السمعةُ بسمرٍ بل على العكس، فقد استفادَت منها إلى أبعدِ الحدودِ في البيتِ وفي الشارعِ مع أصدقاءِ اللّعبِ وفي المدرسة، الكلُّ يحبُّ سمراً ويحسبُ لها ألفَ حساب، ليس لقوَّتِها وعزمِها فحسب، بل لأنَّها كانت أيضاً طفلةً محبوبةً من الجميع، عادلةٌ لا ترضى بالضّيم، وتساعدُ من يتعرّضُ للتنمّرِ من صديقاتِها في المدرسة، وتقفُ قويةً بوجهِ المعتدي حتى لو كانَ أشقى الصبيان. فتسابقَت جميعُ البناتِ في صفِّها على رفقتِها وهابَها كلُّ الصبيان.

ولعلَّ أهمَّ الصفاتِ التي التصقَتْ بسمر بعد العنادِ هي صفةُ الفضول. كانت فضوليّةً من الدرجةِ الأولى ومنذُ صغرِها، تريدُ أن تعرفَ وتتعلّمَ كلَّ شيءٍ في البيتِ كما في المدرسة، لا تتوقَّفُ عن السؤالِ ولا تتوقَّفُ عن التجربة، الأمر الذي كان له أيضاً علاقةً حتميّةً باكتشافِها المبكّرِ لجسدِها وإحساسِها بالجنس. أمّا الموضوعُ الآخرُ

الـذي كانَ يثيـرُ فضولَهـا فهـو موضـوعُ الديـنِ والعلاقـةُ بـالله، موضـوعُ الخلـق، كيـفَ نشـأَ هـذا العالـم، هـل هـو مـن صنـعِ الإلـهِ أم أنّـهُ وُجـدَ بالصدفـة، واذا كانَ الالـهُ هـوَ مـن خلـقَ الكـونَ فهـل هنـاك إلـهٌ فـوقَ هـذا الإلـه؟ أسـئلةٌ محرجـةٌ أرهقَـتْ أُمَّهـا التـي لـم تكـنْ تجـدُ لهـا في كثيـرٍ مـن الأحيـان جوابـاً، فتسـتغفرُ الله وتطلـبُ مـن سـمر أن تسـتغفرَ ربَّهـا هـي الأُخـرى. كانـت تجلـسُ قـربَ أمِّهـا بالسـاعاتِ تفسّـرُ لهـا الآيـاتِ القرآنيـةِ وتسـتمعُ الـى قصـصِ الأنبيـاءِ بشـغفٍ عجيـب. كمـا كان فضولُهـا يفـوقُ الوصـفَ في المدرسـةِ أيضـاً. لـم تفـوّتْ أيَّ حصـةٍ مـن حصـصِ الدّيـنِ التـي عرَّفتْهـا علـى ديانـاتٍ أُخـرى موجـودةٍ علـى الأرضِ غيـرَ الإسـلام. كانـت شـديدةَ الإصغـاءِ تمامـاً كمـا كانـتْ كثيـرةَ الأسـئلة، كالإسـفنجةِ تمتـصُّ كلَّ المعلومـاتِ التـي تصلُهـا، لا يتوقّـفُ فضولُهـا عنـد حـدّ، وتبحـثُ عـن المعرفـةِ بـكلِّ السُّـبل.

أبـدتْ سـمرٌ في المدرسـةِ ذكاءً فطريـاً واهتمامـاً بالغـاً بالتعلّـم، فكانـتْ طفلـةً لمّاحـةً أحبّهـا المدرّسـون وغـارَ منهـا الطـلاّب. تقـرأُ كلَّ مـا يقـعُ تحـت يدَيْهـا مـن كتـب، تذهـبُ إلـى مكتبـةِ المدرسـةِ تسـتعيرُ الكتـب، حتـى أنهـا حصلَـتْ في الصـفّ الرابـعِ علـى جائـزةِ أفضـلِ قارئـةٍ في المدرسـةِ كلِّهـا. كمـا كانَـتْ قبـلَ أن تتعلَّـمَ القـراءةَ وحدَهـا تجبـرُ أُمَّهـا علـى الجلـوسِ معهـا والقـراءةِ لهـا كلَّ ليلـةٍ قبـل أن تنـام، وهـو أمـرٌ لـم تفعلْـهُ غـادة في السـابقِ مـع أيٍّ مـن أولادِهـا.

كانت سمر طفلةً دائمةَ التفكيرِ والتحليلِ والسؤال، تريدُ أن تعرفَ كلَّ شيء، ولا تتردّدُ في أن تسألَ مَنْ حولَها عن أيِّ موضوعٍ قد يخطرُ على بالها، من علمِ الفضاءِ والنجومِ الى محرّكاتِ السيّاراتِ والطائراتِ وأشياءٍ أخرى كثيرة. لكنَّ الأمرَ الذي شغلَ بالَها كثيراً ولفترةٍ طويلةٍ كان ببساطةٍ من أين يأتي الأطفال ؟ تريدُ أن تعرفَ كيفَ يُصنَعُ الأطفال. وفي يومٍ لا تنساهُ غادة، كانتْ سمر آنذاك في السابعةِ من عمرِها، أتَتْها بعد المدرسةِ وقالتْ لها بكلِّ براءةٍ وحَيْرة، «أُمّي، أنا عرفْتُ اليومَ كيفَ يصيرُ الطفل، فهو بيضةٌ من الأمِّ وشيءٌ يشبهُ السمكةَ من الأب، يلتحمان ويصيران طفلاً، ولكنّي أريدُ أن أعرفَ كيف تتمُّ عمليةُ الالتحام؟ كيفَ تلتقي البيضةُ بالسّمكة؟» جفلتْ غادة، ولم تعرفْ كيفَ تجيب، تهرَّبتْ من سؤالِ ابنتِها، نهرَتْها وتحجَّجت بانشغالِها، وأقفلَت الموضوعَ نهائياً.

في وقتٍ مبكّر، في سنِّ العاشرةِ تقريباً، اكتشفَتْ سمرُ العلاقةَ الجسديّة، واكتشفَتْ أسراراً جديدةً لهذا الجسدِ الذي حيَّرَ عقلَها الصغيرَ في تفاصيلِ صنعهِ ودقَّةِ مهامّهِ وخلقَ في رأسِها ألفَ سؤالٍ وسؤال. لماذا نأكل؟ ولماذا ننام؟ وكيفَ تتحركُ يديّ؟ وكيفَ تنطلقُ وتتشكّلُ في فمي الكلمات؟ وأسئلةٌ أُخرى كثيرةٌ كانتْ تدورُ بلا جوابٍ في رأسِها الصغيرِ عن هذا السرِّ الكامنِ في جسدِ الإنسان.

اليوم، اكتشفت سمرٌ متعةً جديدةً ودوراً جديداً لهذا الجسدِ لم تكنْ قد خبرَتْها من قبل.

كانت مع عائلتِها يقضون الصّيفَ في لبنان كعادتِهم في كلِّ صيف، يهربون بعدَ قسوةِ شتاءِ اسكندينافيا وصيفِها المتقلّبِ الماطر، إلى حريقِ شمسِ المتوسّطِ الملتهبةِ تسكرُ رؤوسَهم وتلفحُ وجوهَهم وأجسادَهم التي شحبَتْ تحت سماءِ السويد بسمرةٍ تعيدُ لهم هويّةَ تلك البلادِ التي هجروها. يقضون النهارَ على شاطئِ البحر، وفي المساءِ يحلو السهرُ، فيمضون أوقاتٍ كثيرةٍ في لقاءِ الأقاربِ والأصدقاء، يسهرون اللّيلَ بطولِه، ولا ينامون حتّى الصباح، يجوبون لبنانَ من شمالِهِ الى جنوبِهِ يزورون الأهلَ في بيروت وفي المدن البعيدة عنها.

كانوا يومَها في زيارةٍ لعائلةٍ من أقاربِهم تعيشُ في مدينةٍ جنوبيَّةٍ ساحليّة، قضَوا نهارَهم كلَّهُ على شاطئِ البحر، وفي المساءِ توجّهوا إلى منزلِ أقاربِهم قضَوا السهرةَ هناك. طالَ بهم السهرُ ونامَ الجميعُ كباراً وصغاراً قبلَ الفجرِ بقليل. تقاسمَتْ سمرٌ الفراشَ مع ابنةِ أقاربِهم التي كانت تكبرُها بسنواتٍ قليلة. لعبتا، وضحكتا، وتقلَّبتا فوق بعضهما البعض. جلسَت الفتاةُ فوقَها تدغدغُها، تضحكُ وتضغطُ بجسدِها جسدَ سمرٍ لتكبّلَ حركَتَها، وتعلنُ انتصارَها عليها في لعبتِهم. وفجأةً وبدون أيّ تخطيطٍ أو إعلانٍ

مسبق، سادَ الصمتُ بينهما، واقتربَتْ منها الفتاةُ كثيراً حتى التصقَ جسداهما واحتكَّا ببعضها. أحسَّتْ سمر وقتَها كأنَّ قوةً مغناطيسيّةً في جسدِ تلك الفتاةِ تشدُّ جسدَها إليه وتَجعلُها تحتكُّ به لا إراديّاً. أبهرَها الأمرُ كثيراً، ولم تَهرب، ولم توقف التجربةَ وأحسّتْ لأوَّلِ مرَّةٍ برعشةٍ صغيرةٍ غريبةٍ مبهمةٍ لذيذةٍ تهزُّها. لم تنظرْ إلى وجهِ الفتاةِ الأُخرى، لم تكلّمْها، وهربَتْ ونامَتْ ليلتَها في السريرِ تحت أقدامِ والدَيْها.

فكَّرتْ سمر كثيراً بذلكَ الذي حدثَ بينَها وبينَ تلكَ الفتاةِ في تلكَ اللّيلة. حاولَتْ أن تجدَ له تفسيراً منطقيّاً، حاولَتْ أن تفهمَ هذا الذي أصابَ جسدَها، غيرَ أنَّها لم تجدْ له في مفرداتِها أيَّ وصفٍ أو تفسير. لم تسألْ أحداً، فهي بحَدسِها أدركَتْ أن لا كلامَ ولا سؤالَ في موضوعٍ كهذا، فصمتَتْ على جهلِها وخوفِها، وحلمَتْ بذلكَ الإحساسِ العذبِ اللّذيذِ الذي عاشَتْه ليلتَها.

بعد فترةٍ تجرّأتْ على ملامسةِ جسدِها، تريدُ أن تلمسَه، و أن تراه، وأن تكتشفَ من أينَ يأتي هذا الخدرُ اللذيذ، أين مصدره؟ دخلت إلى الحمّامِ وأحضرتْ معها مرآةً صغيرةً وضعتْها بين رجليْها، وأمعنَتِ النظر، ولم تفهمْ، من أينَ يأتي كلُّ هذا الإحساس؟ لامسَتْ بظرَها برفقٍ بأصابعِها، أغمضَتْ عينَيْها على إحساسِها، وتملّكَها العجبُ والذهول، فكيفَ يمكنُ لهذا الجزءِ الصغيرِ من

جسدِها، الذي لا إسمَ لهُ أن يكونَ مُفعماً بكلِّ تلك الأحاسيسِ القويّة، ذلك العضوُ من جسدِها الذي طالما حذّرتْها أُمُّها من لمسِه و من السّماحِ لأحدٍ بلمسِه أو الاقترابِ منه. في السابقِ كانتْ حيرتُها كبيرةً بهذا الشأن، كيف يكونُ هناكَ في جسدِها جزءاً لا تعرفُ اسمه وممنوعٌ عليها أن تنظرَ إليه أو أن تلمسَه، ثمَّ لماذا هناكَ لعضوِ أخيها الصغيرِ أكثرَ من اسم، «حمامة»، «فرفورة»، «هبورة»، ولا يكونُ لعضوِها هي أيُّ اسم؟ كيف يمكنُ أن يكونَ هذا الأمرُ ولماذا؟، فيدُها لها اسم، وشعرُها، وركبتُها، وكوعُها، وبطنُها، وظهرُها، وساقُها، وعينُها، وأنفُها، وفمها كُلُّها لها أسماء، حتى أصغرَ أجزاءِ جسمِها لها أسماءٌ مثلَ الأظافرِ ومساماتِ الجلد، فلماذا لا يكونُ لهذا العضوِ من جسدِها المختفي عالياً بين فخذَيْها اسم؟

تكرَّرتْ تجربتَها الجسديّةَ مع بعضِ البناتِ بعد أن عادَتْ إلى السويد، فكانت تمارسُ معهن لعبةَ الجسدِ بدونِ كلامٍ وبدونِ سابقِ اتفاق، وكأنَّه جزءٌ من لعبةٍ سريّةٍ لا يجبُ ذكرُها أو الحديثُ عنها، هي شيءٌ يُمارسُ فقط لاكتشافِ الجسدِ وسرِّ الرَعشة، من أينَ وكيفَ تأتي تلك الصعقة، كأنَّها ماسٌ كهربائيٌّ يهزُّها حين يحتكُّ الجزءُ السفليُّ من جسدِها بجسدٍ آخر، وبعد أن تنتهي العمليةُ يعودان إلى ما كانا عليه من قبل، وكأنَّ شيئاً لم يكنْ، لا حديثٌ

ولا سؤال. فالأمرُ بالنسبةِ لهنَّ لم يكنْ ليتعدّى الاكتشافَ المذهلَ لما يحملُه هذا الجسدُ من مفاجآتٍ وأسرار. بالطبعِ شغلَ هذا الأمرُ تفكيرَها، إلا أنَّها كفَّتْ عن البحثِ عن أجوبةٍ وعن محاولةِ إيجادِ المبرّراتِ له، إلى أن داهمَها البلوغُ وتعلَّمت في المدرسةِ ومن الصديقاتِ أسرارَ الحبِّ ومصدرَ تلك اللّذةِ وسرَّها وسرَّ الجَسد.

أتاها البلوغُ على غفلةٍ منها، لم تكنْ مستعدةً له، رغم أنَّ ممرّضةَ المدرسةِ كانتْ قد شرحَتْ لهم في وقتٍ سابقٍ الموضوعَ بإسهابٍ وبكثيرٍ من الدّقة، عن الدورةِ الشهريةِ وكيفَ ولماذا تُصابُ النساءُ بالطمثِ مرةً كلَّ شهر. لم تكنْ مستعدّةً عندما أتاها الطمثُ ولم تعرفْ كيف تتصرّف. لم تخبرْ والدتَها بالأمرِ وأبقته سرّاً لا تبوحُ به لعائلتِها لأشهرٍ عدّة، إلى أن ضبطَتْها والدتُها متلبّسة، فضحكَتْ منها غادة وأخبرتْها أن لا خجلَ في الأمرِ بل على العكس، يجبُ أن تفرحَ فهذا تأكيدٌ على أنَّها كبرَتْ وأنَّها في طريقِها لأن تصبحَ امراة.

كانت الصدمةُ الأكبرُ في دروسِ التربيةِ الجنسية، حيث تعلَّمتْ سمر مع زملائِها من الطلابِ في صفِّها عن العلاقةِ الجنسيةِ وعن الحملِ والولادة. ولأوّلِ مرةٍّ تفهمُ سمر قلقَ أمِّها وتحذيراتِها بأن تحافظَ على ذلك الجزءِ الصغيرِ من جسدِها، فلا عجبَ في ذلك، إذا كان سرُّ الحياةِ يبدأُ من هناك، وهذا قطعاً يبرّرُ خوفَ أُمِّها من أيِّ مكروهٍ قد يصيبُه فيتعطّلُ عندها سيرُ الحياة.

دروسُ التربيةِ الجنسيةِ منحتْ سمر تفسيراً لحالة الانتشاءِ التي تصيبُها، الأمرَ الذي لم تكنْ قد فهمتْه جيداً وبشكلٍ تشريحيٍّ وتفصيليٍّ حتّى اليوم، وتعلّمتْ عن العادةِ السريةِ وما تعنيه، وبأنها شيءٌ طبيعيٌّ يمارسهُ الناسُ بشكل عام، والمراهقون في فترةِ البلوغِ الأولى بشكلٍ خاص. أراحتْها المعرفةُ حين عرفتْ بأنَّ ما تقومُ به من ملامسةٍ لجسدِها أمرٌ طبيعي، لكن وفي نفس الوقت أثارت تلكَ الدروسُ هلعَها وقلقَها عندما شرحتْ لهم المعلّمةُ عن العلاقاتِ الإنسانيّةِ وأنواعِها، وبأنَّ العلاقاتِ الحميمةَ تكونُ عادةً بين امرأةٍ ورجل، وبأنَّ هناكَ أنماطاً أُخرى من العلاقات، وهي العلاقاتُ المثليّةُ بين امرأة ومرأة و بين رجلٍ ورجل. وتكلّمتْ عن العلاقاتِ المثليّةِ وقالتْ بأنَّ السويد بلدٌ يحترمُ حريةَّ الإنسانِ ويحترمُ رغباتِه وحاجاتِه، وبأنَّ القانونَ يكفلُ حقَّ الفردِ في أنْ يختارَ شريكَه في العلاقةِ بغضِّ النظرِ عن جنسه، وعليه فإنّه يجبُ احترامُ ميولَ الفردِ الجنسيّة، وللمثليين في السويد حقُّ الزواجِ والتبنّي.

جفلْتُ واضطربْتُ وغرقْتُ في بحرٍ من التساؤلات. هل يكونُ هذا تفسيراً لعلاقتِها الجسديّةِ مع البناتِ في عمرِها؟ هل تكونُ مثليّةً وهي لا تدري؟ هل يعني هذا أنَّها لن تتزوّجَ ولن تنجبَ أولاداً ولن يكونَ لها عائلة كأُمّها وأُختها؟ لا، هي لا تريدُ ذلك أبداً، لا تريدُ أن تكونَ مثليّة. ولكن هل هناك تفسيرٌ آخرٌ للأمر؟ فلماذا

إذن لم تشعرْ يوماً بالحبِّ أو الانجذابِ لأيِّ صبيٍّ من الصبيان في صفِّها؟ لماذا لم تفكرْ يوماً بأن تضمَّ أحداً منهم إلى صدرِها، أن تقتربَ منه؟ وعلاوةً على ذلك، فهي لا تطيقُ الصبيانَ في سنِّها وتعتبرُهم تافهين ومزعجين. حيّرتْها تلك الأفكارُ لأيّامٍ طويلةٍ، ولم تجرؤْ كالعادةِ على السؤال. ولكن، حتّى لو فكّرت بالسؤال، فمن ستسألُ في موضوعٍ كهذا؟ وأيقنَت تمامَ اليقينِ بأنَّ كلَّ ما تعرفُهُ اليومَ هو أنَّها لا تريدُ أن تكونَ مثليّةً، فحتماً سيقتلُها أهلُها لو عرفوا بالأمر. يا لهولِ مصيبتِها! لا تريدُ أبداً أن تكونَ مثليّة. وقرَّرتْ من فرطِ هولِها ألاّ تقتربَ من أيِّ فتاةٍ بعد اليوم، وألاّ تلمسَ نفسَها أبداً، مهما أنهكَتْها الرغبةُ وأثارَها الفضول.

في غمرةِ انشغالِ سمر بأمرِ ميولِها المثليّة، أتاها ما يبدّدُ حيْرتَها ويبعدُ عنها تلك الفكرة، متمثلاً في شخصِ فتىً يكبرُها بسنتَين ويعيشُ في حيّهم. ولم تكنْ قد انتبهت لوجوده من قبل. كانت في الثالث عشر من العمر، وقد غزَتْ جسدَها أنوثةٌ مبكرة، فتكوَّر صدرُها، واستدارَ بطنُها وثقلَتْ أردافُها. كانت سمرسعيدةً جداً بهذا التغييرِ الذي طرأ على جسدِها. كانت تمشي في الطريقِ بغرورِ مراهقةٍ متباهيةٍ بتفتُّحِ ربيعِها، بالاستدارةِ البديعةِ لجسمِها، تسيرُ بقدمَين لا تكادان تلمسان الأرض، ورأسٍ يحلّقُ عالياً في السماء، لا تنظرُ لأحدٍ ولا ترى أحداً. فجأةً انتبهت إلى ذلك الفتى

الذي كان يختلسُ النظراتِ إليها ويبتسمُ كلّما مرّتْ أمامه. شغلَ الأمرُ تفكيرَها، وبدأتْ تبحثُ عنه في رواحِها ومجيئِها. ومن حيث لا تدري، نشأَ بينهما شيءٌ يشبهُ التواطؤَ المشتركَ على أمرٍ ما لم تستطعْ أن تحدّدَ ماهيّتَه. فهي لم تتحدّثْ إليه ولا مرة، وهو لم يباشرْها أبداً بالكلامِ رغم أنهما يذهبان إلى نفس المدرسةِ ويسلكان نفسَ الدرب. كلُّ ما بينهما كان نظراتٍ سريعةً وابتساماتٍ خاطفة، الى أن عادت يوماً من المدرسةِ لتجدَه يقفُ منتظراً على بابِ المصعد. صعدَتْ معه ووقفَت في الزاويةِ حذرةً قلقة، فاقتربَ منها وابتسمَ لها وقالَ بأنّهُ يحبُّها. سألَها إن كانتْ تقبلُ أن يكونَ صديقَها، هزَّتْ رأسَها موافقةً وابتسمت، فاقتربَ منها، وأمسكَ رأسَها بيديه وقبّلَها قبلةً سريعةً وهربَ عندما توقَّفَ المصعدُ أمامَ بابِهم. كانتْ تلك قبلتَها الأولى. تجمَّدتْ في مكانِها بعد أن ذهبَ الفتى، تتحسَّسُ وجهَها وشفتَيها ولم تفهمْ ماجرى. أهكذا تكونُ القبلةُ إذن؟ شفاهٌ تلتقي لقاءً سريعاً ثمَّ تنفلت؟ تكرَّرتْ التجربةُ، ولم تعدْ تتوقّفُ على قبلةٍ سريعة، بل تجاوزَتْها إلى لمساتٍ تسعى لاكتشافِ الآخر، لمساتٍ سريعةٍ ليدٍ فتيّةٍ خائفةٍ مرتعشة، لا تعرفُ عمَّ تبحث. وسريعاً توقّفتْ لقاءاتُ سمر بذلك الفتى عندما رحلَ وعائلتَه عن حيِّهم وانتقلوا للعيشِ في مدينةٍ أُخرى.

أسعدَتْها جداً تلك العلاقةِ التي فتحتْ أمامَها أبواباً جديدةً للاكتشافِ ومعرفةِ الجسد. تعرَّفَتْ على فعلٍ جديدٍ لشفتيها، وتعرّفتْ على الإثارةِ التي تسكنُ تلك الشفاهِ وسحرِ القبل. الأهمُّ كانَ بالنسبةِ لها أنَّ تلكَ العلاقةِ شكَّلت الاثباتَ الدامغَ والدليلَ القاطعَ بأنَّها غيرُ مثليّة، فها هي قد أحبَّتْ ولداً.

ولعلَّ احتمالَ المثليّةِ لم يغادرْها تماماً إلاّ عندما جرّبَت الحبَّ وعاشت العشقَ ولوعتَه لأوَّلِ مرّة. كان شاباً من مدرستِها، وكانتْ في الصفِّ التاسع، وستة عشر ربيعاً تضجُّ بالحبّ، والشوق والحياة. أحبَّتْه، فتىً أشقرُ بشعرٍ متموّجٍ كالذهب، وعيونٍ بلونِ السماءِ تلمعُ سحراً. وجهُهُ مستديرٌ دقيقُ الملامح، تنيرُه غمازَتين سلبَتا عقلَ سمرٍ وخطفَتا قلبها. أحبَّتْهُ وأحبَّها، ومعه جرّبتْ قلبَ العشاقِ مثلَ الأفلام، وليس كما خبرَتْها مع فتى الحيِّ في مصعدِ دارهم. ومعهُ جرّبتْ العلاقةَ الجنسيّةَ لأوّلِ مرّةٍ وهي في هذا العمرِ المبكر.لم تأبَهْ لما قد تقولُه أُمُّها أو لموقفِ والدِها من الموضوع. لم تفكّرْ بهم، ولم تشغلْ بالَها كلُّ الوصايا التي قرأتْها على رأسِها غادة ليلَ نهارْ عن العذريّةِ والعارِ وشرفِ البنت. هي تعرفُ بأنَّ الجنسَ وفقدانَ العذريّةِ قبلَ الزواجِ ليس بالأمرِ العاديِّ لفتاةٍ تحملُ خلفيَّتَها الاجتماعيةَ والثقافيةَ وتربّتْ على عاداتٍ وتقاليدٍ تفرضُ العذريةَ قبلَ الزواج على الرجالِ والنساءِ على حدٍّ سواء، وتسبغُ

على الجنسِ والحبِّ دلالاتٍ غيرَ أخلاقية. وفي العادةِ يغفرُ المجتمعُ للشابِ زلَّتَه بل يضحكُ بسرِّهِ على فعلتِه ويعتبرُها فحولة، ولكنه لا يغفرُ أبداً للفتاةِ أيَّ هفوةٍ أو زلّةٍ مهما كانت صغيرة، وقد تدفعُ حياتَها ثمناً لمثلِ هكذا خطأ. تعرفُ سمرٌ كلَّ هذا، وكم من قصةٍ سمعَتْها من أمِّها عن فتاةٍ قُتلتْ بسببِ شكوكِ أهلِها في سلوكِها. لكنَّها لا ترضخُ لمثلِ تلك التهديدات، لأنَّها وبقدرِ ما هي عربيةٌ فهي أيضاً سويديةٌ تعيشُ في السويدِ وتنتمي إلى ثقافتِها أكثرَ مما تنتمي إلى ثقافةِ أهلِها. واستطاعتْ رغمَ عمرِها الصغيرِ أن تجدَ المبرِّرَ الأخلاقيَّ لحاجتِها، واقتنعَتْ بأنَّ الجنسَ والعاطفةَ شيءٌ مهمٌّ لها ولتوازنِها ونموِّها كما الأكلِ والنوم، وبأنَّهُ شأنٌ خاصٌّ بها وحدَها ولا شأنَ لأحدٍ آخرٍ به. هو شأنُها هي، وجسدُها هي، وهي حياتُها وهي وحدُها من تقرّرُ كيفَ تعيشُها.

لم تكنْ تجربتَها الأولى في الجنسِ مع حبيبِها الأوَّلِ وزميلِها في المدرسةِ على ذلك القدرِ من الجاذبيةِ والرومانسية، لأنّ خبرتَها كانت ضحلةً جداً وتقتصرُ على علاقاتِ الطفولةِ وقُبَلِ ابنِ الجيران، ولأنّ صديقَها كان بكراً مثلَها ولم يسبقْ له خوضَ تجربةِ الجسدِ الكاملة. فجاءت المرةُّ الأولى مليئةً بالعثرات، بالضحكاتِ والخجلِ والأعصابِ المشدودةِ والتّوتر. إلاَّ أنَّ أهمَّ إنجازاتها أنَّها أثبتَتْ لسمرٍ وبالدليلِ القاطعِ أنَّها ليستْ مثليّةً وأنَّها تحبُّ وتنجذبُ جنسياً إلى الرجال، وبأنّهُ سيكونُ لها يوماً بيتٌ وعائلة.

عرفَتْ سمر لاحقاً من خلالِ قراءاتِها أنّ ذلكَ النوعِ من العلاقاتِ وكتشافِ الجسدِ شائعٌ جداً وغيرُ مستغربٍ بين الأطفالِ من نفسِ الجنسِ أو من الجنسين. كما عرفتْ بأنَّه وفي أحيانٍ كثيرةٍ تنشأُ علاقاتٌ حميمةٌ بين البالغين من أفرادِ الجنسِ الواحدِ ليس بسبب الميولِ المثليّةِ وحسب، وإنَّما بسببِ عدمِ توفّرِ فرصةِ لقاءٍ طبيعيٍّ خارجَ إطارِ الزواجِ بين الجنسين، فيستعاضُ عنها بعلاقاتٍ حميمةٍ بين أشخاصٍ من نفسِ الجنسِ لإشباعِ الرَّغباتِ الجنسيّة.

كانتْ سمرٌ صغيرةً عندما أدركتْ أنَّها تعيشُ في عالَمَيْن مختلفَيْن وتنتمي إلى حضارتَيْن مختلفتَيْن لا وجهَ شبهٍ بينهما، لا وجهَ للتقاربِ بينهما أبداً. في البداية، كانت دائمةَ السّؤال، تسألُ أُمَّها عن كلِّ كبيرةٍ وصغيرة، عن الاختلافاتِ التي كانتْ تراها ولا تفهمُها بين أهلِها وعاداتِهم وبين السويديين من أهلِ أصدقائِها في المدرسة، وفي أغلبِ الأحيانِ لم تكنْ تجدُ جواباً شافياً عندَ أُمِّها، اللّهمَّ إلاّ بعضَ تلك التبريرات التي تسردُها أُمُّها، مثل نحنُ مختلفون وبأنَّ لنا عاداتُنا ولهم عاداتُهم، وعاداتُنا لا تسمحُ لنا بأن نعيشَ مثلَهم. كانت تحكي لها قصصاً كثيرةً عن التفوّقِ الحضاريِّ والأخلاقيِّ للشّرقِ على الغرب، وسمرُ تسمعُ ولا تقتنع، وفي النهايةِ سكتَتْ عن السؤالِ وأصبحتْ تعيشُ حياتَيْن منفصلتَيْن

تجيدُهما تماماً وبأدقِّ التفاصيل: حياةُ فتاةٍ شرقيّةٍ عربيّةٍ في المنزل، وحياةُ أُخرى لفتاةٍ سويديّةٍ غربيّةٍ في المدرسةِ وفي الشارعِ وفي حياتِها الخاصّة. كانت تفصلُ بينهما بكلِّ حرَفيّةٍ وإتقانٍ فلا يعرفُ أهلُها شيئاً أبداً عن تلك الحياةِ الأُخرى التي تعيشُها خارجَ البيت. عاشتْ سمر حياتَها وعلاقاتِها العاطفيّةَ والجنسيّةَ بعيداً عن سمعِ ومعرفةِ أهلِها، بعيداً عن بيتِهم. وما كان أهلُها ليصدِّقوا أبداً لو أخبرَهم أحدُهم بذلك. فسمر تعتزُّ بأصولِها العربيّة، وهي الوحيدةُ بين إخوتِها التي أصرَّتْ على تعلُّمِ اللغةِ الأمِّ وتجيدُ العربيّةَ قراءةً وكتابة، مجدّةٌ مجتهدةٌ في مدرستِها، ووقتُها كلُّه للدراسةِ في بيتِهم أو في بيتِ إحدى الصّديقات، وتساعدُ أمَّها في البيتِ وفي تدريسِ أخيها الصغير.

عندما كبرتْ ودخلَتْ الجامعة، كبرَ عالمُها ولم يعدْ يقتصرُ على حيِّها ومنطقتِها ذات الأغلبيّةِ الأجنبيّة، بل كبُرَ وتوسّعَ ليشملَ المدينةَ كلَّها. وأذهلَتْها الفروقُ الاجتماعيّةُ والثقافيّةُ والخدماتيّةُ بين أحياءِ المدينةِ الواحدة. كانتْ في سنتِها الجامعيّةِ الأولى تستغربُ ردودَ فعلِ زملائِها عندما تذكرُ اسمَ المنطقةِ التي تعيشُ فيها، ثم اكتشفت أن الكثيرين منهم لم يسبقْ لهم أن زاروا تلك المناطق أبداً، وكلُّ معرفتِهم بتلك الأحياءِ التي لا تبعدُ أكثرَ من عشرة دقائقَ إلى عشرينَ دقيقة عن مركزِ المدينةِ تأتي من الصحفِ التي لا تكتبُ إلاّ عمّا هو سيّءٌ

في تلك المناطق، وتبرزُ عناوينَها الرئيسيةَ بأخبارِ العنفِ والقتلِ الذي يحدثُ هناك. لذلك يعتقدُ بعضُ زملائِها اعتقاداً راسخاً بأنَّ أغلبيّةَ السكانِ هناك ينتمون إلى عصاباتِ الجريمة، وبأنَّ البناتِ يسجَنَّ في البيوتِ ولا يسمحُ لهنَّ بالعملِ والدراسةِ ويتزوَّجنَ بالإكراه وقبل أن يبلغْنَ الثامنة عشرة.

مدينةٌ عجيبة، يتجاوزُ عددُ سكانِها النصف مليون بقليل، ومقسَّمةٌ بشكلٍ لا يمكن إلاّ أن يكون عنصريّاً موحشاً بامتياز. تكفي رحلةٌ في الحافلةِ التي تربطُ غربَ المدينةِ بحيِّهم في شمالِ المدينةِ لكي ترى سمر كم هي قاسيةٌ هذه المدينةُ التي تحبُّها، كم هي مدينةٌ مقسَّمةٌ وكم هيَ مجحفةٌ بحقِّ أهلِها. ففي الغرب، وفي تلك المنطقةِ المطلّةِ على البحر، حيثُ يبدأُ الترام رحلتَه، تكادُ سمر أن تكونَ الراكبةَ الوحيدةَ ذاتِ الملامحِ الشرقيّة لركّابٍ من أغلبيةٍ سويديةٍ خالصة. يسيرُ الترام وسمر تجلسُ إلى النافذة، تنظرُ إلى تلك البيوتِ الجميلةِ المترامية على التلالِ المحيطةِ بالبحر، تحسُّ وكأنَّها سائحةٌ آتيةٌ من بلدٍ آخر. يستمرُّ الترام في التقدّمِ وتتوالى نفسُ المشاهد، تراقبُها سمر بذهول، وكأنَّها تعي للمرّةِ الأولى طريقةَ تقسيمِ المدينة. فعلى الجانبِ الأيمنِ للمحطّةِ التي توقَّفَ بها الترام، يقعُ مرفأٌ صغيرٌ لليخوتِ والسفنِ الشراعية، يمتلئ في أيامِ الصيفِ بأصحابِ تلك السفنِ وعائلاتِهم يقضون

على متنِها أيّامَ العطل. وكانت سمر في أحيانٍ كثيرةٍ تراهم من وراءِ زجاجِ شبّاكِ الحافلةِ بعد لقاءٍ لها مع صديقِها نافيد في الطرفِ الآخرِ من المدينة لتتجنَّبَ أن يراها أحدٌ من أهلِها أو معارفِهم معه فينفضحَ سرُّ علاقتِهم التي حرصَتْ سمر على أن تخفيها عن الجميع. كانت تمرُّ من أمامِ تلك اليخوت، تراقبُ أصحابَها يجلسون على ظهورِها، يتسامرون، يمرحون، أو يتناولون وجبةَ العشاء. كم أسرَها ذلكَ المشهد، كم تمنَّتْ لو أنَّها كانت تجلسُ على متن إحدى تلك اليخوت مع عائلتِها .وتتركُ العنانَ لخيالِها، فتحلمُ بأنَّها تجلسُ هناك، إلى جانبِ والدَيْها وإخوتِها يستعدّون للانطلاقِ في رحلةٍ بحريّةٍ إلى إحدى الجزرِ التي يمتلئُ بها بحرُ مدينتِهم.

يكملُ الترامُ رحلتَه، وتتقلَّبُ المشاهدُ وتختلفُ أمامَ عينَيْها. فبعد أن يتركَ الترام وراءَه مناطقَ البيوتِ الكبيرةِ الجميلةِ على البحر، يعبرُ منطقةً أخرى، بيوتُها قديمةٌ ذات دورَين أو ثلاثة، إنها منطقةُ مايورنا، تلك المنطقةُ التي كانَتْ في الماضي مدينةً لعمّالِ المرفأِ ومعاملِ السفن، والتي رُمِّمَت اليومَ بيوتُها وأصبحَتْ مساكناً لأغلبيّةٍ ذات خلفيّةٍ أكاديمية. وجوهُ الناسِ هنا تختلفُ عن الوجوهِ التي تراها يوميّاً في حيّها، حتى طريقةُ سيرِهم مختلفةٌ تماماً عن طريقةِ سيْرِ أبناءِ حيِّها. فهنا يسيرُ الناسُ رغمَ الطقسِ برؤوسٍ

مرفوعةٍ إلى الأعلى، لا يأكلُهم البردُ ولا الهمّ. لا بسطاتَ لبائعي الخضار، كلُّ شيءٍ مغلّفٌ ونظيف، لا شبابَ وشيبَ يقفون بالساحةِ عاطلين عن العملِ يقضونَ الوقتَ في التسكّعِ داخلَ السوقِ المغلقِ أو في الجلوسِ على بعضِ المقاعدِ الموجودةِ في الساحةِ يراقبون المارّةَ كما هو الحالُ في منطقتِهم. هنا الكلُّ يسيرُ على عجلٍ وكأنَّهُ على موعدٍ مهمٍّ أو كأنَّه في سباقٍ مع الحياة.

وكلما اقتربَ الترامُ أكثرَ من قلبِ المدينةِ كلَّما بدأتْ أشكالُ الرّكابِ بالتنوّع، ثمَّ فجأةً وكأنَّ هناك اتفاقيةً مبرمةً بين سكّانِ تلك المدينةِ المقسَّمةِ بألاّ يجتمعوا في ترامٍ واحد. فما أن يصلَ الترام إلى مركزِ المدينة، حتّى يتغيّرُ الحالُ بالكامل، فينزلُ أغلبُ الركابِ السويديّي الأصل، وتمتلئُ الحافلةُ بركّابٍ أغلبُهم من المهاجرين الذين ينتمون إلى ملٍ وبلادٍ تتوزّعُ على سائرِ أقطابِ المعمورة. وكلَّما استمرَّ الترامُ بالتقدمِ باتجاهِ منطقتِها، كلَّما قلَّ عددُ الوجوهِ السويديةِ الملامحِ وتغيَّرتْ كذلك أشكالُ البيوت، فلا بحرَ هنا ولا يخوت. هنا لا ترى البيوتَ الفاخرةَ ولا حتى المبانيَ الصغيرةَ الجميلةَ ذات الطابقَيْن. فالمنطقةُ كلُّها عبارةٌ عن مسطَّحاتٍ سكنيّةٍ لبناياتٍ عاليةٍ من الحديدِ والإسمنت، تزيّنُ شبابيكَها وشرفاتِها صحونُ الساتلايت.

إبتسم، فأنتَ في مقاديشو أو في كابول أو في دمشق.

رحلةٌ كهذهِ قامَتْ بها سمر أوَّلَ عهدِها في المدينةِ وأحيائِها الأُخرى، وكانت الفاتحة، لتدركَ فيها بوعيها المحسوسِ ما رأَتْ دلالاتِه في السابقِ آلافَ المرَّاتِ دون أن تولِيَه نتباهاً أو اهتماماً خاصاً. أحقّاً هي مدينةٌ واحدةٌ تلكَ المدينةِ التي تعيشُ فيها؟ أم هما مدينتان منفصلتان تنتميان إلى عالَمَيْن منفصلَيْن مختلفَيْن، إحداهما تقعُ في شمالِ أوروبا، سكانُها بيضٌ شماليّون، يعيشون في رَغَدٍ ويُسر، والثانيةُ يمكنُ أن تقعَ في أيِّ مكانٍ من آسيا، أو أفريقيا، أو جنوبِ أمريكا، سكّانُها فقراء، وتحكمُها أقليّةٌ بيضاءُ من سكّانِ المدينةِ الأولى. لعلَّ الشيءَ الوحيدَ الذي يتقاسمونَه هنا هو المناخُ القاسي ودرجاتُ الحرارة، ولكنَّهم حتّى في هذا يختلفون. فالمهاجرون، و رغم أنَّ بعضَهم قد مرَّ على إقامتِه في السويدِ سنواتٍ طويلةٍ مثل عائلةِ سمر، فهم لا يعرفون حتّى اليوم كيفيةَ اختيارِ الملابسِ التي تتناسبُ مع كلِّ موسمٍ وطقسِه. فمثلاً، لا يمتلكُ أيٌّ من أفرادِ عائلتِها معطفاً واقياً من المطر، أو جزمةً خاصةً بالمطرِ يرتدونَها في الأيّامِ الماطرةِ الكثيرةِ جداً في هذه البلاد، وخصوصاً في فصلَي الرّبيعِ والصّيف.

وسمر التي تغيظها جداً تلكَ الفروقاتِ ويستعصي فهمُها على عقلِها الصّغير، تحسُّ مرّاتٍ كثيرةٍ بغضبٍ عفويٍّ فطريٍّ تجاهَ المجتمعِ ككلّ، والذي لا يتعاملُ مع كلِّ أبنائِه سواسية، وأحياناً

كثيرةً تغضبُ من سلبيّةِ أهلِها والمهاجرين من أمثالهم لتقوقعِهم على أنفسِهم، يعيشون كالغرباءِ ولا يعتبِرونَ أنفسَهم شركاءً في مجتمعِهم الجديد، يعيشونَ على الهامش، الكثيرُ منهم عاطلٌ عن العملِ ويعتمدُ على الإعانةِ الماليّةِ كدخلٍ لهُ ولعائلتِه. لا يتفاعلونَ مع المجتمع، لا يعرفونَ شيئاً عن السياسة، عن الأحداثِ التي تجري في هذه البلاد، أغلبُهم لا يشاركُ في الانتخابات، أغلبُهم لا يقرأُ جريدةً سويديّةً أو يتابعُ برامجَ التلفزيونِ السويديّ. تحنقُ سمرٌ كثيراً لهذا الأمر، لهذهِ السلبيةِ التي يتَّسمونَ بها، ولكنَّها في الوقتِ نفسِه تحبُّ أهلَها، وخصوصاً أمّها، تشفقُ علَيْها وتجدُ دائماً الأعذارَ لجهلِها، لتشدُّدِها، ولعدمِ تمكّنِها من الحصولِ على عمل. كيفَ لها هذا وهيَ تقومُ على خدمةِ بيتِها وأولادِها وحيدةً ليلَ نهار؟ وهي غيرُ متعلّمة، لا تملكُ شهادةً وليسَ لدَيْها خبرة في العملِ خارجَ المنزل، لم تؤهَّلْ أو تُعّ للعملِ خارجَ بيتِها؟ تحبُّها سمر وتشفقُ عليها، وتجدُ لها المبرّرات، وتسعى دائماً لمساعدتِها وإسعادِها في أن تخفِّفَ عنها بعضَ أعباءِ البيتِ والعائلةِ وتتكفّلُ بكلِّ المعاملاتِ ذاتِ العلاقةِ بالمجتمعِ السويديِّ ودوائرِهِ الرسميّة.

اليوم وقفَت مع أُمِّها في المطبخِ طيلةَ بعدِ الظهر، ولم تتركْها وتذهبُ لترتاحَ في غرفتِها إلا بعد أن انتهى عمل ذلك اليوم الطويل الشاق، استعداداً للحدثِ الكبير، عودةُ والدِها من

السّفر، استعداداتٌ لم يشهدْ لها بيتُهم مثيلاً من قبل، وفاقَتْ كثيراً استعداداتِ وقفةِ العيد. كلُّ ما في البيتِ يلمع، حتّى غادة وأولادها. ابتسمَتْ سمر عندما فكَّرتْ بأمِّها وشعرَتْ بالحبِّ الشديدِ والحنانِ نحوَها، هذه الغادةُ التي تبدو أحياناً قاسيةً ولا تجيدُ التعبيرَ عن مشاعرِها بالكلمات، وتقنّنُ كثيراً في تعابيرِ الحبِّ أمامَ زوجِها وأطفالِها، ولكنَّها تعبّرُ لهم عن حبِّها بطريقةٍ أُخرى وبسخاءٍ بالغٍ من المشاعرِ والجهدِ تضعهُ في تحضيرِ ما لذَّ وطابَ من الطعام، يملأُ العينَ ويشبعُها قبل أن ينزلَ المعدة، تعدُّهُ وكأنَّها تعدُّ نفسَها لموعدِ غرام، وتتفنَّنُ في إتقانِه حتّى تبلغَ في أحيانٍ كثيرةٍ حدَّ الكمال. وللحبِّ ودلالاتِه عندَ أُمِّها أيضاً وجوهٌ أُخرى، كأنْ تحرمَ نفسَها من شراءِ فستانٍ جديدٍ أو زجاجةِ عطرٍ أو قلمِ حمرة، وتضعَ القليلَ ممّا توفّرُهُ من مصروفِ البيت في يدِها، هي سمر، لتشتريَ لنفسِها ما ينقصُها. وكم تفرحُ أُمُّها بها ويرقصُ قلبُها طرباً عندما تراها كالفراشةِ تكادُ تطيرُ أمامَها مزهوّةً بفستانٍ جديد.

استلقّتْ سمرٌ في سريرِها، حملَتْ هاتفَها وبدأت تكتبُ لصديقِها وحبيبِها نافيد تلغي لقاءَ الغد. ففي هذا اليوم سيعمُّ بيتُهم حظرُ تجوّلٍ فرضتْهُ أمُّها، وقالتْ بأنَّ عليهم جميعاً إلغاءُ كافّةِ مواعيدِهم، لا مدارس، لا جامعات، وأنَّ علَيْهم جميعاً أن

يكونوا في البيت، فلا شيءَ أهمُّ من العائلة، لا شيءَ أهمُّ من أن تجتمعَ العائلةُ كلُّها في يومٍ كهذا ترحِّبُ بالعودةِ الميمونةِ لربِّها ورأسِ هرمِها.

ظهرَ اليومِ التالي انتظرَها نافيد كالعادةِ في المقهى المطلِّ على البحر. وحيداً جلسَ إلى طاولةٍ بعيدةٍ عن البابِ ينظرُ إلى ساعةِ يدِه بشكلٍ متواصلٍ وعيناهُ متسمَّرةٌ على مدخلِ المقهى. قلقاً كان حين لمحَها تأتي من بعيد، هتفَ قلبُه في صدرِه وامتلأَ وجهُه بالابتسام وهتف «ما أحلاها» ثم قال فرحاً وهو يراقبها تمشي باتجاهه تقفز كعصفورٍ تكادُ أن تطير، «إنها قلبي يمشي على الأرض». دخلت سمر إلى المقهى وشعرُها الأسودُ الطويلُ المتموّجُ يتراقصُ فوقَ كتفَيْها وابتسامةٌ عريضةٌ تملأُ وجهَها الأسمرَ الدقيقَ الملامح، تكادُ تختفي تلك العينان المستديرتان اللّتان تشعّان سحراً وجاذبية، وقد زادَهما الكحلُ الأسودُ جمالاً على جمال. اقتربتْ منه، فوقفَ مرحّباً، أخذَها بين ذراعَيْه وطبعَ قبلةً سريعةً خاطفةً على شفتَيْها، ثمَّ قالَ معاتباً محتضناً يدَيها:

ـ تأخَّرْتِ كالعادة!

غمرَتْه بفرحٍ وضحكَتْ من قلقِه وعتابِه، وأخبرَتْهُ بحالةِ الطوارئِ التي أُعلنَتْ في بيتِهم، وبأنَّها بالكاد استطاعَتْ التملُّصَ من قبضةِ أُمِّها اليوم، وأنَّها اخترعَتْ سيلاً من الحججِ والأكاذيبِ

كـي تـراه. لأوَّلِ مـرَّةٍ تعيـشُ سـمرٌ علاقـةً جدّيـة. فقـد سـبقَ أن كانَ لهـا بعـضُ العلاقـاتِ في المدرسـة، لكنَّهـا لـم تكـنْ تتعـدَّى الفضـولَ في تجربـةَ المشـاعرِ وتجربـةِ الجسـد. علاقتُهـا اليـومَ مـع نافيـد علاقـةٌ مختلفـةٌ تمامـاً، فهـي خيـارُ القلـبِ والعقـل. هـو زميـلٌ لهـا في الجامعـةِ يـدرسُ العلـومَ السّياسـية، وهـي تـدرسُ القانـون. التقيـا في اتحـادِ الطـلاب، فكلاهمـا عضـوان نشـيطان في الاتحـاد. كان حبّـاً مـن النظـرةِ الأولـى. التقَـتْ العيـونُ وطـابَ الـكلام، ورغـمَ الاختـلافِ الكبيـرِ بـين خلفيتيهمـا الاجتماعيّـةِ والثقافيّـة، اسـتطاعا أن يجـدا بينهمـا لغـاتٍ عـدّةٍ للتواصـلِ وجسـوراً كثيـرةً للّقـاء.

ينتمـي نافيـد إلـى عائلـةٍ إيرانيـةٍ مـن الطبقـةِ الوسـطى . كان والـدُه أسـتاذاً جامعيـاً في إيـران وأُمُّـه طبيبـة. هاجـروا مـن إيـران بعـد الثـورةِ الاسـلاميّة ولجـأوا إلـى السـويد، وهـم ويعيشـون هنـا متوافقـين تمامـاً مـع العـاداتِ والتقاليـدِ السـويديّة. تنتمـي سـمر إلـى عائلـةٍ مـن الطبقـةِ العاملـة. أبوهـا عاملٌ بالـكادِ يعـرفُ القـراءةَ والكتابـة، وأمُّهـا ربَّـةُ بيـتٍ لـم تعمـلْ ولا مـرّةً في حياتهـا. تركَـتْ المدرسـةَ في الصَـفِّ السـادسِ لتصبـحَ زوجـةً صالحـةً وربَّـةَ منـزل. تعيـشُ عائلتُهـا في السـويد وفقـاً للعـاداتِ والتقاليـدِ العربيّـةِ الإسـلاميّة. لا شـيءَ تغيَّـرَ في حياتهـم، يمارسـون الحيـاةَ وكأنَّهـم لـم يغـادروا حيَّهـم في بيـروت، وتعتقـدُ سـمر، بـل تـكادُ تجـزمُ بـأنَّ أقاربَهـم في لبنـان يعيشـون حيـاةً

أكثرَ انفتاحاً وتطوّراً من الحياةِ والعاداتِ التي يعيشُ عليها أهلُها في السويد. فأهلُها قد توقَّفَ بهم الزمانُ عندَ ذلكَ التاريخِ الذي غادروا به لبنانَ إلى السويد.

جلسَتْ بقربِه، أخذَ وجهَها بين يديَه وقبَّلَها. تناوَلا طعامَ الغداء، شربا قهوتهما وملآ الوقتَ بالثرثرةِ والكلامِ عن الجامعةِ والامتحاناتِ المقبلة، وبالحدثِ الأهمّ، بأنَّ سمراً ستنامُ عند نافيد وللمرَّةِ الأولى هذهِ الليلة. هو لقاءٌ طالما حلما به ورتّبا له. كم تمنَّى ذلك، كم طلبَهُ منها مرّاتٍ ومرات، وكم كانتْ هي أيضاً ترغبُ وتحلمُ بذلك، ولكنَّها لم تكنْ تفلحُ في إقناعِ أُمِّها لتحيدَ عن ذلك القانونِ الصارمِ الذي فرضَتْهُ عليهِم، والذي يمنعُ أيّاً من أبنائِها أن ينامَ خارجَ البيت، ذلك الأمر الذي لم تكنْ لتتنازلَ عنه غادة مهما كانت الأسبابَ والحجج. ولهذا، اكتفَتْ سمر حتى اليوم من لقاءاتِ الحبِّ بساعاتٍ قليلةٍ عجولةٍ تقضيها مع نافيد بعد انتهاءِ دوامِ الجامعةِ في غرفتِه في سكنِ الطلاب.

تركوا المقهى وساروا اليد باليد على الشاطئ القريب ولم يكن ليسع من يراهم من بعيد إلا أن يبتسم لمشهد الشباب والحب الذي يسر القلب والعين معا، خيالين لعاشقين شابين يسيرا بخفة تلتصق أجسادهم لقبلة عاجلة ثم تعود وتنفلت ويبقى تشابك إيديهم يشد القلب إلى القلب.

سنةٌ كاملةٌ مرَّتْ على علاقتِهما، كبُرَتْ فيها سمر، وغيَّرَتْها التجربةُ والأيامُ فنضجَتْ نفسيّاً وجسديّاً وعاطفيّاً، ولم تعدْ تلكَ الطفلةَ الساذجةَ كما كانَتْ في أولى علاقاتها.. التقّتْ به في أوَّلِ اجتماعٍ حضرَتْهُ للهيئةِ الإداريَةِ لاتّحادِ الطلاّب. كانت أوَّلَ تجربةٍ لها بمثلِ هذا العمل. كانت مرتبكةً، حيثُ أنَّها لم تكُنْ قد التقَتْ بكلِّ أعضاءِ الهيئةِ الإداريّةِ بعد. جلسَ نافيد بقربِها ورحَّبَ بها بحرارة، وعرَّفَها على نفسِه بأنَّهُ رئيسُ الهيئةِ الإداريّةِ للاتحاد، وبأنهُ يرأسُه للسّنةِ الثّانية. وأخبرَها بأنَّهُ أيضاً نشيطٌ في العملِ السياسي وأنَّهُ ينتمي إلى حزب الخضر. مرَّ وقتُ الاجتماعِ سريعاً، وكان مفعماً بالنشاطِ والأفكارِ الجديدةِ للمشاريعِ التي سيقومون بتنفيذِها. غير أنَّها لم تغفلْ عن اهتمامِ نافيد بها ونظراتِه إليها طيلةَ الاجتماع. وبعد أن انتهى الاجتماع، رافقَها إلى قاعةِ المحاضرات، واقترح علَيْها عقْدَ لقاءٍ بينَها وبينَه يُطلعُها فيه على بعضِ الاقتراحات بشأنِ نشاطاتِهم المشتركة. وبكلِّ بساطةٍ أحبَّتْه دون كلامٍ أو مقدمات، بسلاسةٍ ودونَ تعقيد، بدأتْ حكايتُهم واستمرَّتْ بعيداً عن أعينِ أهلِ سمر.

هوَ يومٌ يستحقُّ الاحتفال، فهي المرّةُ الأولى التي سيقضونَ فيها الليلةَ كاملةً معا. ستنامُ عند حبيبِها في شقَّتِه، ولقد حضَّرا لهذا الحدثِ وانتظراه بصبرٍ وتأنّ. استغلَّتْ سمرٌ انشغالَ أُمِّها

بعودةِ والدِها وبالامتحاناتِ المقبلة، فاقتنعَتْ غادة وسمحَتْ لها بالمبيتِ عند صديقتِها للدراسة. سمر لا تحبُّ الكذبَ ولا تحبُّ أن تمارسَه، ولكنَّها مقتنعةٌ تماماً بأنَّ السّببَ الوحيدَ لكذبِها على أهلِها هو أهلُها أنفسُهم. فهيَ لا تخجلُ من حياتِها، ومقتنعةٌ تماماً بتصرُّفاتِها، وبأنَّ لها وحدَها حريةُ القرارِ بشأنِ حياتِها وجسدِها. ولكنَّ أهلَها لا يحتملون الحقيقة، لا يحتملون صدقَها، فهمْ الذين فرضوا عليها الكذب، ليَنْعَموا بهِ إذَن، إن كانَتِ الحقيقةُ لا تناسبُهم.

تعرفُ سمر أيضاً أنَّها إن أخبرَت أهلَها عن علاقتِها بنافيد وعن نيَّتِها الارتباطَ به، فسيكونُ لدَيْهِمِ الكثيرُ من التحفُّظاتِ على قرارِ ارتباطِها بشابٍّ من أصولٍ إيرانية، بلْ تعتقدُ بأنَّ الأمرَ قدْ يكونُ أسهلَ بالنسبةِ لهم لو أنَّهُ كانَ من أصلٍ سويدي. فالعربيُّ في السويدِ لا يطيقُ الإيرانيَّ والعكسُ صحيح: العربيُّ يتّهمُ الإيرانيَّ بالتخلي عن أُصولِه، وبأنَّهُ منحلٌّ بلا أخلاقٍ ولا دين، وبأنَّهُ أصبحَ سويدياً أكثرَ من السويديِّ نفسِه. والإيرانيُّ يتهمُ العربيَّ بالتخلّفِ والجهل، ويرفضُ أن ينتسبَ الى ثقافتِه ودينِه.

أن يكونَ نافيد مسلماً لا يسهّلُ الأمرَ كثيراً، بل يزيدُهُ تعقيداً بالنسبةِ لأهلِ سمرٍ البيارتةِ السنّةِ أباً عن جدّ، وهو المسلمُ الشيعيُّ الإيرانيّ، حتى لو كانَ الأمرُ بالنسبةِ لنافيد إرثاً يحملُه بالهويّةِ فقط، فهوَ وعائلتُهُ علمانيّون لا يؤمنون بالأديان، ممّا يعقّدُ

الموضوعَ أكثر على أهلِ سمر، شيعيٌّ ومرتدٌّ عن دينِه، هذا هوَ الهولُ الكبيرُ بالنسبةِ لهم.

لا تفهمُ سمرٌ كلَّ هذه التعقيدات، ولا تستوعبُ أبداً أن يكونَ لمثلِ تلك الفروقاتِ تأثيرٌ على لقاءٍ يجمعُ بين البشر، بين شخصّين مُتحابَّين. فهي تحبُّ نافيد وتثقُ به، وتعرفُ أنَّ حبَّهُما قادرٌ على تحدّي كلِّ الاختلافات، بل إنَّها ترى أنَّ ما يجمَعَها به أكثرُ بكثيرِ ممّا يجمعُ أختَها رنا بزوجِها مروان، رغم انتمائِهما إلى نفسِ المجتمعِ والمذهبِ والتقاليد. فسمر عاشَتْ وتربَّتْ في السويدِ مثلَ نافيد تماماً، واللغةُ السويديةُ هي بمثابةِ لغتِها الأمّ، والحضارةُ والتقاليدُ السويديةُ أقربُ إلى قلبِها ووجدانِها من الحضارةِ والتقاليدِ العربية، مثل نافيد تماماً.

كمْ تَتمنّى لو تزولُ تلك الحواجزِ الوهميّةِ التي يضعُها البشرُ لتفرّقَ بينَهم، وكثيراً ما تتساءلُ حانقةً، لماذا لا يَنتمي الجميعُ إلى حضارةٍ واحدة؟ لماذا لا تتكلَّمُ كلُّ الشعوبِ لغةً واحدة؟ ولماذا لا تكونُ العلاقاتُ بين البشرِ بعيدةً عن التعقيدِ والتكلُّف؟ لماذا لا يرى الناسُ أنَّ اختلافَهم ثروةٌ تُغني الجميعَ وتزيدُ من معارفِهم، بدَلَ أن تفرِّقَ بينَهم وتجعلُ الحياةَ بين الشعوبِ المختلفةِ مباراةً يتحدَّى الناسُ فيها بعضَهم البعض، والكلُّ يعتقدُ بأنَّ حضارتَه هيَ الأرقى، ولغتَه هي الأسمى، ودينَه هو الأكمل؟ تؤمنُ سمرٌ أنَّ

الكمالَ لا يكونُ إلاّ بالحبِّ الذي يجمعُ بين الناسِ ويقرّبُ القلوبَ من بعضِها البعض، ويفتحُ بصيرةَ الشخصِ ليرى الآخرَ كما هوَ بدون تعقيدٍ أو حواجز تفرضُها اللغةُ المختلفةُ والحضارةُ المختلفةُ والدينُ المختلف.

نعم، فعندما تكونُ معَه تذوبُ كلُّ تلكَ الفوارق، ويحملُهما الحبُّ والانسجامُ إلى مناطقَ راقيةٍ في وجدانِهما، فتكونُ هيَ ويكونُ هو، يكونان قلبَيْن وجسدَيْن يحلمان بالالتحامِ الأبديّ، ينظران بأملٍ وفرحٍ إلى مستقبلٍ يبنيَاهُ معاً، ببيتٍ صغيرٍ يجمعُ كلَّ أحلامِهما وأفراحِهما وأشواقِهما، بعيداً عن احتمالاتِ وقلقِ الآخرين من فوارقَ حضاريةٍ واجتماعيةٍ ليس لها بينَهما أيُّ حساب.

ما لها ولهذا القلقِ الليلة؟ هي ليلتُها، ولن تدعَ أيُّ قلقٍ يفسدُها. ستفرحُ بلقائهما، ستعدُّ الطعامَ معَه، وستأكلُ معه، وستنامُ في حضنِه كطفلة تشتاقُ إلى صدرِ أُمِّها. في الصباح، ستصحو على قبلاتِه يعدُّ لها القهوةَ والفطورَ في السريرِ بعد أن يأخذَها إلى قلبه، يشمُّ رائحتَها، تشمُّ رائحتَه، ويزرعُ في أحشائِها الوردَ والريحانَ وزغردةَ الطيور، وتعانقُ أياديهم السحابَ للمرَّةِ الألفِ بعد المئةِ في ليلةِ حبِّهم الأولى.

في غرفةٍ صغيرةٍ كبيرةٍ بوسعِ الكونِ بحبِّهم وأشواقهم، سمرٍ ونافيد وسريرٌ في الزاوية، ونافذةٌ كبيرةٌ تطلُّ على سوادٍ يلفُّ

المدينة، ويشهدُ على همساتِ وفرحِ عاشقَيْن صغيرَيْن وجسدَيْن متعانقَيْن كأنَّهما جسدٌ واحد. مستسلمةٌ هيَ لعزفِ أصابعِه، تطرقُ أوتارَ جسدِها وتراً وتراً، وتبحثُ بدقّةٍ في مخابئِه وكهوفِه عن أماكنَ جديدةٍ للإثارة. قبلاتٌ دافئةٌ تلامسُ نتوءَ كتفِها، لمساتُ أصابعِه فوقَ ظهرِها تكفي لتشعلَ على مهلٍ نارَ الجسدِ وتفتحَ للشهوةِ ألفَ بابٍ وباب، وللحبِّ أماكنَ بعيدة، فتسقطُ من السماءِ نجومٌ تسكنُ فراشَهم، تضيءُ طريقَ لهفتِه إليها. كيفَ له، هو نافيد أن يعرفَ جسدَها بهذهِ الطريقة، وكأنَّهُ ساحرٌ يخرجُ الحمامَ من تحتَ جلدَها في كلِّ مرّةٍ يصيبُ بأصبعِه وتراً لم تكنْ قد خبرَتْهُ من قبل، كيف يمكنُ للجسدِ أن يغَنيَّ بكلِّ مسامه، أن يقيمَ صلاتَه في محرابِ العشقِ وأن يذوبَ في جسدٍ آخر؟ كيفَ للألمِ أن يتحوَّلَ إلى متعة، إلى شهوة، إلى شّهْقة، فيشتعلُ شموعاً وبخوراً، ويقيمُ صلواتٍ لأعيادِ الجسد؟ كيفَ للمسةٍ لباطنِ القدمِ أو لقبلةٍ داخلَ كفِّ يد، لوشوشةٍ أن تُطيرَ الفراشات، تضربَ أعاصير، وتنفجرَ شلّالات؟ وهيَ هناك، تذوبُ من شديدِ العشق، تطلبُ وتستزيد، وهو يعيثُ في مسامها، يفتّتُها، يشعلُها يرميها في لججٍ جديدةٍ من الشهوةِ ثم يلمُّها المرّةَ تلوَ المرّة، لتنتصبَ كاملةً كشهبٍ من نار. يضمُّها إليه بحنوٍّ وحبّ، امرأةٌ كاملةُ الأحاسيس، وبقوّةٍ لا تكونُ إلاّ لأصلبِ الرجال، يحضنُها كلَّها، تحضنُهُ كلَّه، ينصهران في جسدٍ واحد، يصيران ماء، يصيران زوبعة، ويصعدان معاً إلى السّماء.

مرَّ الليلُ سريعاً كما لو كانَ لحظاتٍ معدودات. عاشا حبَّهما فيها المرّةَ تلوَ المرة، وفي كلِّ مرةٍ كان إحساسهم به وكأنَّهُ المرَّةُ الأولى، وكأنَّهُ لم يحدثْ بينَهما لقاءٌ من قبل، وكأنَّها لأوَّلِ مرّةٍ تمارسُ الحبّ، وكأنَّهُ لم يكنْ له من قبلِها علاقات، وكأنَّ طرفَه لم يلمسْ يوماً امرأةً غيرها. لم تعشْ مثلَ هذا الإحساسِ من قبل، فهيَ معه ولأوّلِ مرّةٍ تحسُّ بأنَّها امرأةٌ كاملة، امرأةٌ واحدة، امرأةٌ متصالحةٌ تماماً مع نفسها، مع كلِّ شخصياتها، سمرٌ واحدةٌ بكلِّ تناقضاتها وكلِّ الهويّاتِ التي تحملُها. ستكونُ معَهُ بعدَ اليوم، ستعلنُ عن حبِّها وعزمِها. قرَّرَتْ هذا ونامّتْ عندَ الفجرِ مستسلمةً سعيدةً هانئةً بين ذراعَيْه.

صحّتْ باكراً جداً لم تأخذْ من النومِ إلا قليلَه، فهي لا تريدُ أن تنام، كيفَ تنام، فهي لا تريدُ أن تفوتَها أيُّ لحظةٍ من ليلتِها تلك، تريدُ أن تعيشَ كلَّ تفاصيلِها. لم يكنْ رأسُها في مثلِ هذا الوضوحِ يوماً، وأحسَّتْ بأنَّها وجدَتْ نفسَها أخيراً بعد أن أضاعَتْها وسطَ الضجيجِ عندما حاولَتْ بأن تكونَ هنا وهناك، أن ترضيَ وتناسبَ الجميع، ونسيَتْ بأنْ تكونَ هي، إلى أن أوشكَتْ أن تخسرَ سمر.

اقتربَتْ منهُ بحذرٍ لا تريدُ أن توقظَه، تريدُ فقطْ أن تشمَّ رائحةَ النومِ تعبقُ من مسامِّ جسمِه، أن تستعيدَ ذاكرةَ بقايا عطرِهِ ورائحةَ أنفاسِ الأمس. قبَّلَتْهُ قبلةً خفيفةً على شفتيه، تملْمَلَ في

الفـراشِ وفتـحَ عينَيْـه قليـلاً، ابتسـمَ لهـا في نومـه، أمسَـكَ يدَهـا، ضمَّهـا بـين يدَيْـه بقـوّةٍ وبقيَـتْ يدُهـا بـين يدَيْـه إلـى أن أفلتَـتْ منـهُ عندَمـا غـرقَ بالنّـومِ مـن جديـد.

قامَـتْ مـن الفـراشِ عاريـةً كمـا ولدَتْهـا أمُّهـا ووقفَـتْ وراءَ نافـذةِ غرفتـه في الطابـقِ العاشـرِ تنظـرُ إلـى المدينـة، إلـى بيوتهـا وشـوارعِها التـي تتكوَّمُ تحتَ قدمَيْهـا وتغـرقُ تحتَ غطـاءٍ أبيضَ مـن الثلـجِ الكثيـف. لا فـرقَ بـينَ منطقـةٍ وأُخـرى مـن مدينتِهـا مـن علـوَّ نافذتِهـا في هـذا الصبـاح. فالمدينـةُ كلُّهـا بيضـاء، وأهلُهـا كلُّهـم نيـام. سـمرٌ هـي المسـتيقظةُ الوحيـدة. المدينـةُ كلُّهـا لهـا وحدَهـا، بشـرقِها وغربِهـا، ببهرجـةِ الآيـاتِ القرآنيّـةِ المطـرَّزةِ بخيـوطِ الذهـبِ في بيتِهـم وبيـوتِ جيرانِهـم، بعربـدةِ صحـونِ السـاتلايت تئـنُّ حـينَ تشـتدُّ الريـحُ وتحجـبُ المسلسـلاتِ التركيـةِ عـن أُمِّهـا، بوقـارِ البيـوتِ الأنيقـةِ ذاتِ الطـرازِ الكلاسـيكيِّ الاسـكندنافيِّ وذوقِ أصحابِهـا المحافـظِ المحتشـم، وتحفِهـم ولوحاتِهـم الفنيّـةِ الباهظـةِ الأثمـان. المدينـةُ كلُّهـا بيضـاءُ في هـذا الصبـاح، كورقـةٍ بيضـاءَ تسـتطيعُ سـمرٌ أن تشـكِّلَها علـى مزاجَهـا وكيفَمـا تريـد.

اقتربّـتْ أكثـر مـن النافـذة، فتحّتْهـا علـى وسـعِها ووقفَـتْ هنـاكَ بعريِّهـا التـام، وتركّـتْ جسـدَها ملعبـاً للريـحِ وللثلـجِ يعانـقُ مسـامَّها، ترتجـفُ مـن البـرد، ترتعـدُ أوصالَهـا، لكنَّهـا تتـركُ نفسَـها لـه، لذلـكَ

الخدرِ يهزُّها كلَّها من رأسِها إلى أخمصِ قدمَيها، ولا تبالي بجنونِ الريحِ وعصفِ الثلجِ يغسلُ عريَّها، يعبثُ بجسدِها ويعمّدُهُ بصفاءِ مائهِ لتتطهَّرَ بهِ وتولدَ بالعشقِ من جديد.

لسعَتْ رياحُ البردِ التي دخلَتْ من النافذةِ وجهَ نافيد، فتحَ عينَيْه ورآها تقفُ هناكَ عاريةً كإلهةٍ إغريقيةٍ تضربُ بجسدِها الريحَ ويطيرُ شعرُها مختلطاً بحبّاتِ الثلج. أشرقَ وجهُهُ بابتسامةٍ كبيرةٍ وصرخَ ضاحكاً، مجنونَتي معشوقَتي! نظرَتْ سمرٌ في قلبِ الليلِ في بياضِ الثلجِ وهتفَتْ بعزم، بكلِّ صوتِها، صرخةً مزَّقَتْ صمتَ المدينةِ النائمةِ وقالَتْ:

أنا هنا والحياةُ كلُّها لي! ثمَّ أغلقَتْ النافذةَ واستدارَتْ نحو نافيد وقفزَتْ بفرحٍ في حضنِه.

●●●

سلوى

هو عينُه الجنونُ الذي أصابني، قالتها سلوى في سرِّها وهي سارحةٌ مع أفكارِها، نعم هو بالتأكيد الجنون. ليس هناك وصف أكثر دقة من الجنون يناسب الحالة التي أصابتها وهي على أبواب الخريف. زلزال بقوة مليون درجة ضرب عميقاً في القلب، هزَّ وجودَها وقلبَ عالمَها رأساً على عقب. هي لا تفهم كيف تكونُ مشاعرُ الخريف أكثر صخبا من فورة الربيع.عاشقة هي، ولا تريد إلا تلك العيون، ولا تريد إلا ذلك الصوت يهمس بأذنها كم هو يريدها، وكم يشتهيها فيصيبها البللُ، وتتوتّر أحشاؤها، ينتفضُ صدرُها، تغمرُها نشوةٌ تسري كالنار في مسامها، تغرقها حباً وتطلب المزيد.

أيمكنُ وصف مثل هذا الأمر بغير الجنون، لامرأة مثل سلوى، وبعمرها، مجرِّبة خبرت الحياة، وعاشت تجاربَ وأزماتٍ وحكاياتٍ عديدة. نعم، إنه الجنونُ الجميل، إنه قلبُها يضرب ألف ضربة في الدقيقة، إنه الألمُ اللذيذُ الذي سكنَ الفؤاد، تحسّ قبضته تمسكُ بقلبها ليل نهار، تحسّ بلهيب الشّوق يلسع أحشاءها، يسكن فكرَها ورأسَها ولا تنام، يساورُها في الحلم عن نومها، فتصحو وتنتظر الصباح، تنتظرُ صوتاً حميماً رطباً قد يأتي.

تجلس مع غادة، صديقتها الحميمة، في دارها تشرب القهوة، تبتسم ابتسامة عاشقة بلهاء، لا تركّز على شيء. ومهما حاولت غادة أن تفتحَ معها مواضيع أُخرى للحديث، أن تشدَّ إنتباهَها وذهنَها الى أماكن أخرى، إلى أحاديث أُخرى، تعودُ سلوى وتجرُّها إلى موضوعها الأثير، بدر وحبّها له، تخبرها كيف أنها تضبط نفسَها في البيت، في الشارع، تمشي وبغير إرادة منها وبصوتٍ عالٍ تقول، أنا أُحبّ بدر، تخاف على نفسها من الجنون. تسأل سلوى صديقتها بقلق هل تعتقدين بأنني أُصبتُ بالهوس؟ تبتسمُ لها غادة برفق وتقول، هو العشق يا صديقتي، فحضرتك عاشقة غارقة في الغرام. تغمرُ السعادةُ وجهَ سلوى،تتنفسُ بثقلٍ وتقول لغادة الصابرة والشاهدة على نوبات الجنون التي تعيشها صديقتها، والتي لم يعد لها حديث في الفترة الأخيرة إلا عن هلوسات الغرام، نعم أنا عاشقة،أعشقه.

غادة صديقة سلوى منذ سنين طويلة، كاتمةُ أسرارِها، تفرحُ لفرحِها، وتحزنُ لحزنِها. سعيدةٌ هي بحالةِ العشقِ التي تعيشُها سلوى، لكن يكدّرُ فرحَها بعضُ القلقِ بسبب اندفاع سلوى في علاقتها ببدر. تخافُ عليها من نفسها، فهي أكثرُ من يعرف سلوى وتعرف كم هي مرهفة المشاعر رغم مظاهر القوّة التي تظهرُها للناس. تعرفُ كم هي طريّة وقابلة للكَسر، وتعرفُ كلَّ الحسرات والويلات التي مرَّت بحياةِ سلوى، تعرف خوفَها وقلقها

وعدد المرّات التي تحطم فيها قلبها. تقول لسلوى بحذرٍ، أخافُ عليك ممّا أنتِ فيه، أخافُ عليك من اندفاعك وتهوّرك، إنتبهي كي لا يستغلّك، تردّ سلوى مهلّلة «ليفعلْ، ليستغلَّني، فأنا أقدّمُ له سذاجَتي على طبقٍ من ذهب». تحذّرها غادة من صديقها، فهو شرقيّ، وسلوى خبرَت رجالَ الشّرق، وتعرف جيداً كم تسبّبوا لقلبها من آلام، فتقول غادة لا تنسي يا صديقتي أبداً بأنّه شرقي، وأنت ملمّة بالشرقِ ورجالِه وكيف يفكّرون. فتجيبُ سلوى على عجلٍ وبدون تفكير، لا يا صديقتي فبدر مختلف، هو لا يشبهُهم، واذا كنت تقصدين بأنه سيعتبرني سهلة ولن يقدم على الزواج بي، فباللّه أن لا يفعل.من قال أنني أُريد الزواج؟ أنا أُريده هو،أُريد أن أكون معه وله، وبأن يكون لي، أريده أن يروي صحراء عطشي، أن ينفخَ في جسدي وفي روحي اكسير الحياة، روحي التي حُكمَ عليها بسجنِ الجسد، وجسدي الذي حَكمتُ عليه أنا بالصوم سنوات طويلة، ظلماً، وبهتاناً، ونفاقاً لشرقٍ يمعنُ في تعذيبي، شرق ظلمني وفرض عليّ أعرافه، حتّى حين ابتعدتُ عنه وعشتُ وحيدةً، أكفّرُ عن ذنبٍ لم أقترفْه، وحكمتُ على نفسي بالغربة، بالمنفى، في بلاد الغير، في بلادٍ لا تشبهُني.

حانقةٌ سلوى على هذا الشرق الذي حمّلها الآثام منذ صغرها، جلّل جسدَها وتاريخَها بالعار. لاحقها إلى أقاصي شمال الكرة

الأرضيّة، جعلَها تعيشُ عمرَها على حدِّ الخطر والخوف، يسكنُها القلق، شرقٌ لم يتركْها وشأنَها، لم يتركْ لها الفرصة لتتنسى، لتسامح، لتتنفس ولتعيش.

حانقة هي على هذا الشّرق الذي وضعَها على الرّفِ منذ سنين، وكم تستشيطُ غيظاً وهو يلقّبها بالحجة، وفي أفضل الأحوال بالخالة.بحنقٍ تقولُ حجةٌ أنا، أنا التي أقف من كلّ الأديانِ على حذر. حجة،أي ليس لي شأنٌ في أمورِ الدّنيا بعد اليوم، وجلّ مبتغاي منها الالتفات لآخرتي، أن أقضي أيامي في الصّوم، والصلاة والعبادة، ليغفر اللّه لي ما تقدّم من أمري وما تأخّر. حجّة أنا، تقولُ بغضب، ولا حقَّ لي بالحياة، بالحبّ، بالجنس، لأنني أصبحت في نظر هذا الشرق مخلوقاً لا يعرفُ الشبقَ ولا الشهوة.توقّف دوري كأنثى مع توقّف نزفي، ولم أعدْأصلح حتى لأن أكونَ زوجةً لعريسٍ في الثمانين.

فلتسمع إذن يا شرقي العزيز، أنا سلوى، سلوى فقط، لست حجّة، ولست بحطبةٍ جافة، وشهوتي لم تنضبْ بعد. عاشقة أنا، وأنا أوشك أن أغادر الخمسين، وجسدي ثائر، شبق تملؤه الرغبة حدَّ الجنون، ولي عشيق شايب مثلي، في قلبِه الشهوة والحب، وبقوة ألف شاب. أيها الشرق العفن سأفك حبسي،سأتمرد عليك، سأتحرر منك وسأحرر من خرافاتك جسدي وأفكّ قيوده، فالحبّ

يا شرقي العزيز قضيّتي وايماني، وسأقيم للحب مراسيم العبادة، وأقدم من روحي وجسدي قرباناً لجسد الحبيب، لنار حبّه الدافئة ولمائه،سرّه المقدس.

التقته في بيت صديقة لها في دعوة على العشاء، وكان سيّد السهرة بلا منازع يتحدث في الحب وفي الشعر وفي السياسة ويفور ويغلي بالحماس بالحياة وينتقل من حالة إلى حالة ومن موضوع إلى موضوع آخر بسلاسة وبدون أي تعقيد، بيّاع كلام لا يكلّ ولا يملّ. أسمر، معتدل القوام، يكلّل البياض رأسه، ولحيتَه التي تركها تنمو وتملأ وجهه على هواها. له شفتان مكتنزتان تتدفقان شهوة وحباً للحياة، وعينان لعوبتان تلتمعان جاذبيةً وذكاءً، وفيهما بعضٌ من دهاء. كان اهتمامه بها واضحا، فلقد كان يراقبها بدقّة يراقب حركتها طوال السهرة، يستمع الى حديثها، ويخصّها دون غيرها بالكلام، الأمر الذي أربكها قليلا .غير أنها لم تتوقّف كثيراً عند هذا الأمر، فسلوى ورغم تقدّمها في العمر، لا زالت تحتفظ بجمال وجاذبية، واعتادت على لفت أنظار الرجال إليها. شعرُها كثيف، وطويل ومتموّج، وصباغه الأحمر الداكن أعطى للون بشرتها البرونزي الملوّح بالشمس الكثير من البهاء. معتدلة الطول والوزن، وتنتقي من الملابس ما يناسب جسمها تخفي عيوباً لا تريد كشفها، وتظهر الفاتن من جسدها بأبهى حلة. سلوى تعرف

نفسها، وتعرف أماكن القوة وأماكن الضعف في روحها وجسدها. لذا لم تندهش كثيرا لاهتمام بدر الواضح جداً بها، وحاولت أن تتجاهله قدر المستطاع لأنه أربكها. لكن وفي نفس الوقت شدّتها شخصيته، ولم تستطع أن تتجاهل وجودَه الطاغي على المكان، أسرَها هذا الحماس، هذا الإقبال على الحياة لرجل تجاوز الستين.أسرتْها قدرتُه على السّرد، على الإقناع والإقتناع،وأسرها كم هو مطواع ليّن، وما فيه من حسن، وثقافة واطلاع. لكن اندفاعَه نحوها أقلقها، ولم ترتح لطريقتِه في إبراز إعجابه بها بتلك الطريقة الواضحة للجميع. لم يلجأ بدر أبداً الى المواربة أو إلى التجمّل في تصرفاته نحوها، رغم أنها كانت المرّة الأولى التي تقابله فيها. أثار استغرابها طريقة تعامله معها وكأنهم معرفة قديمة. لم ترتح لتصرّفاته، هي الحذرة المسكونة بالشّك والوساوس. حاولت أن تتهرّب من إهتمامه بها، أن تتشغل عنه بالحديث لصديقتها صاحبة الدعوة، لكنه كان يعود ليشدّ انتباهها إليه دون أي اهتمام بالآخرين. انتهت سهرتهم في وقتٍ متأخر. سألها إن كانت تريد أن يوصلَها بسيارته، فاعتذرت وقالت بأنها ستعود بسيارتها، أوقفها على الباب مودعاً، ولم يتركْها إلا بعد أن حصلَ على رقم هاتفها.

هاتَفها بعد أن وصلت إلى البيت بقليل، فاجأها اتصاله واعتبرته انتهاكاً لخصوصيّتها. فكيف يتّصل بها في مثل هذا الوقت المتأخّر، ويتحدّث إليها وكأنه يعرفها من قبل وكأنهم على موعد، يتصرف معها وكأنها سهرت الليل كلّه في انتظاره؟ لم تخف انزعاجها من اتصاله بها في هذا الوقت المتأخر فاعتذر منها بشدّة وأنهى الاتصال.

لكنه لم ييأس، وعاود الاتصال في الليلة التالية.حاولت التملّص منه، فهي لم ترتح أبداً إلى إلحاحه الذي أخافها ورفع درجة الحذر عندها إلى أقصاها. لم تفهم السبب الذي يجعله لحوحاً إلى هذه الدرجة. لماذا يتصرّف رجل مثله، لديه كل هذه الصفات بهذه الطريقة مع امرأة لا يعرفها؟ أيكون في الأمر علّة ما لم تستطع اكتشافها في لقائهم الأوّل؟ هل هو ماكرٌ إلى هذه الدرجة بحيث يستطيع إخفاء عيوبه عن عيونها الفاحصة المجرّبة؟ أيكون صيّاد نساء يهوى الإيقاع باللوات يستعصي عليه إيقاعهنّ في شباكِه من النظرة الأولى؟ ربما لا يحتمل صدَّ امرأة له، أو حتى تردّدها تجاهه فيسعى جاهداً وبكل الطرق حتى يحقق نصراً جديداً بصيدٍ جديد؟ تحدّثا على الهاتف، كان مؤدباً ظريفاً، اقترح عليها لقاءه، أن تتناول معه فنجان قهوة في مكان عام، أن تعطيه فرصة وتتعرف عليه بجو طبيعي، أن يلتقيا وحدهما دون رقابة

حشد من الأصدقاء. أكّد لها بأنه لن يزعجها أبداً بعد هذا اللقاء إن هي قررت بأنه لا يناسبها وبأنها لا تريد أن تراه مرّة ثانية. قبلت سلوى طلبه رغم كلّ تردّدها. قالت في نفسها، لن يضيرَني الأمر، فنجان قهوة لأتعرّف عليه عن قرب، وإن كانت ظنوني في محلّها، أُوقفه عند حدّه وأُنهي الأمر من بدايته.

التقوا في مقهى في وسط المدينة بعد أن انتهت من عملها. أخبرها عن نفسه، عراقيّ غادر بغداد في السبعينات هرباً من حكم البعث، وعاش في بيروت لسنين طويلة حين كانت بيروت ملاذاً لكل المبدعين والمفكرين والمعارضين العرب. هؤلاء المثقفين الفارّين من بلادهم بسبب أنظمة قمعية تصادرُ حريّةَ الفكر والسياسة، ولجأوا إلى تلك المدينة التي منحتهم مساحةً من الحريّة لم تستطع أي عاصمة عربية أُخرى منحها لهم في ذلك الوقت. كاتب هو، يكتبُ الشّعر والقصة القصيرة. وعمل في الصحافة الفلسطينية لسنوات طويلة، وغادر بيروت بعد عام ١٩٨٢، وعاش متنقلاً بين قبرص، وتونس وباريس، إلى أن هاجر في بداية التسعينات نهائياً إلى السويد، وأسّس لنفسه ولزوجته حياة هناك.، أرمل رحلت زوجته ورفيقة دربه الطويل عن الحياة في السويد وتركته وحيدا، لا أولاد له، زوجته كانت مثله عراقية التقاها في بيروت. هي أيضا عملَت في الصحافة إضافة إلى الفن

التشكيلي. يعيشُ بدر وحيداً بعد وفاتها منذ عشرة سنوات. هو غزير الإنتاج، يكتب كثيراً، حتى أنه يشكّ بأنه يكتب وهو نائم. يحبّ الشّعر، وصدرت له الكثير من الكتب في الشعر وكذلك في القصة. ويعمل أيضاً كمحاضر في جامعة يتبوري في قسم اللغة العربية. يمارسُ الرّسم لكن كهواية وليس كاحتراف، يعشق القراءة ويقضي الكثير من وقته في قراءة الكتب وخصوصاً الأدب.

أخبرها بأنه لم يحب امرأة بعد زوجته، رغم محاولات عديدة كلها باءت بالفشل. يضحك وهو يتذكر، «ربما كنت أنا السبب»، يقول، «لم أكن جاهزاً لبدء علاقة بعد تحرير، ربما كانت تحرير تسكنني بهوس وترفضُ الرّحيل، ولم تسمح لأُخرى أن تأخذ مكانها في حياتي وفي قلبي». يسرح قليلا مع الذكرى ثم يقول، «أتعرفين لا أدري لماذا أحس بأنها كانت ستحبك لو عرفتك، ولا أعرف لماذا راودني هذا الأحساس عندما التقيتك. أحسست بأنه كان من الممكن أن تكوني صديقة لزوجتي الراحلة وصديقة حميمة جداً. وأضاف قائلا بحماس وبعض من استغراب، هل تصدقين لو قلت لك بأنني أحسّ بأنها هي من يدفعني إليك، هي من تمسكني من يدي وتشدّني وتقول أقدم ولا تخف، فهذه هي المرأة التي يمكن أن تكون خليفتي في قلبك».

أخبرها عن تحرير، عن مرضها وموتها وحالته بعد موتها. أخبرها كيف أنه كان سيجنّ بعد وفاتها، كيف أحسّ بأن الحياة كلّها كانت تنسحب من جسده أمام عينيه، وبأنه بفقدانها أحسّ بأنه يفقد كل الناس. فتحرير لم تكن له الحبيبة وحسب، بل كانت أعزّ وأقرب صديقة في الحياة كلها. كانت ابنته وكان ابنها حين سرقتهما الحياة ولم تمنحهما الوقت فرصة لتحقيق حلمٍ جاء متأخراً بعض الشيء، بأن ينجبا طفلاً. كانت أخته وأمه وكل عائلته. أخبرها بأنه فكّر مرّاتٍ كثيرة بالانتحار، وخصوصاً في الفترة الأولى بعد وفاتها عاش أيّامه في غيبوبة طويلة صحا منها ليصطدم بالواقع القاسي يخنقه، يخطف أنفاسه، يشدُّ على قلبه ويتكئ ويقول أنها رحلَت، أنها لن تعود.

كم تمنّى الموت كم طلبه برجاء ولم يأته. بكاها كثيراً، بكاها بحرقة. لم يكن قبل وفاتها يعرف أنّ له كلّ هذه القدرة على البكاء والنحيب، لم يعرف من أين كانت تأتي كلّ تلك الدموع، لم يكن يعرف كيف كانت عيناه تطاوعه وتسكب الدمع غزيراً كلّما أفاق من تيهه على صورتها وصوتها يضجّ برأسه، يملأ المكان. لم يكن يأكل إلا اذا غُصب على الأكل، وكم أكثر من التدخين هو الذي كان قد توقّف عن التدخين لسنوات طويلة، عاد ليلتهم السجائر بشراهة يستعيض بها عن طعامه وشرابه، يشعلها لتطفئ حرائق

الحـزن التـي تأكلـه مـن الداخـل وتعتصـر قلبـه وأنفاسـه. اسـتعصى عليـه النـوم، فـكان يبقـي أياماً كاملـة بـلا نـوم ولا ينـام إلا اذا تنـاول أقـراص المنـوم، وتوقـف عـن الكتابـة والعمـل، بقـي في بيتـه لا يخـرج منـه فهـو لـم يكـن يرغـب أبداً بـأن يلتقـي بالآخريـن. مـرّت شـهور وهـو علـى هـذه الحـال، ثـم بـدأ تدريجيـاً يعـود الـى الحيـاة. بـدأ يذهـب الـى عملـه في الجامعـة، لكـن الكتابـة اسـتعصت عليـه لفتـرة طويلـة جـداً. أكثـر مـن سـنتين مـرّت بعـد وفاتهـا ولـم يسـتطع أن يكتـب كلمـة واحـدة، عـدا إعـداده للمحاضـرات. ثـم بـدأ يعـود الـى الحيـاة رويـداً رويـداً، يلتقـي بالمقرّبـين جـداً مـن الأصدقـاء، سـاعده في ذلـك طبعَـه المتفائـل وحبَّـه للحيـاة والزمـن . عـاد الـى الحيـاة يحمـل تحريـر وفقدانهـا ندبـاً في قلبـه يحملهـا معـه ويمضـي معهـا وتمضـي بهمـا الحيـاة.

الأصدقـاء هـم كنزنـا الـذي تخبئـه لنـا بعنايـة شـديدة الحيـاة، هـم كنزُنـا الـذي يسـير أمـام أعيننـا حتـى نعتـاده ونصبـح لا نـراه. تعـدّه الحيـاة لنـا بحـرصٍ، وتفاجئنـا بـه كأجمـل وأثمـن العطايـا حـين نقـع، حـين تشـتدّ الأزمـات، حـين تحلـك أيامنـا. وهـذا مـا حـدث لبـدر، فـكان الأصدقـاء خيـرَ مـن سـاعدَه في تخطّـي تلـك المرحلـة، فوقفـوا الـى جانبـه في محنتـه ولـم يتركـوه أبـداً.

جلسـا في ذلـك المقهـى لسـاعات طويلـة، وحدثهـا كثيـراً عـن نفسـه وعـن حياتـه بـكل إسـهاب، كان تلقائيـاً وعفويـاً، فتسـلّل هـو وحديثُـه

وشخصُه إليها بمنتهى الانسياب. مرَّ الوقت سريعاً، ولم تحسّ بثقل الساعات. قرأ لها بعضاً من أشعاره، فأبهرَها حُسن حَرفِه وبهاءُ كلمته. أهداها قبل الوداع ديوان شعر له قال بأنه الأقرب إلى روحه وقلبه، فالديوان كلّه عبارة عن قصائد حبّ ورثاء في حبيبته الراحلة. ودّعَته بحرارةٍ وتركَتهُ وهي مبهورةٌ تفكّر بتلك الشخصية المميزة التي لاقت في نفسها الكثير من الاستحسان والقبول. ورحبت به، وبصداقته، وبوجوده في حياتها، ولو بقليل من الحذر.

جلست تقرأ شِعره مندهشة، مقطوعة الأنفاس حين رنَّ هاتفها، كان هو المتصل. تحدثا طويلاً، تحدثا طوال اللّيل، لم يناما، ومن يومها وهي لاتنام.التقيا لقاءً إنسانياً فتح لهما أبواباً من المودّة ربطت بالألفة قلبيهما وأشعلت شبق الحياة في أيامهما الرتيبة. كانت تسيرُ نحوه بخطواتٍ مترددةٍ خائفة، تخطو خطوةً إلى الأمام، وتعود بعدها خطواتٍ إلى الخلف. يشدُّها إليه الفضولُ واللهفة، وقلبٌ بدأ يتفتّح بين يديه، ويبعدُها عنه خوفُها وقلقُها من نكسةِ حبٍّ جديدة، لا تحتاجُها ولا تريدُها في هذا العمر. وهو يصرّ، ويقنعها بالإقدام، ويسحبُها بكلّ قوّة نحوه، يقول أُدخلي التجربة، أُدخليها بكلّ قلبك، بقوّة الحياة في صدرك، أُدخليها باندفاع، فالحياة لا تحتملُ الجبناء، والحبّ ياحبيبتي مغامرة خوضيها ولا تترددي، خوضيها بكلّ ما فيك من شغف للحياة.

استسلمت لندائه وغلبَها شوقُها، غلبَها نداءُ الحياة. ذهبَت إليه في ليلة عصى فيها عليها النوم. ركبت سيّارتها واتجهت إليه بغير ميعاد. صعدت درجات السلم راكضةً، كأنّها تخاف إن هي ابطأت أو تمهلت أن تخونَها إرادتُها، فتعودُ من حيث أتَت. رنّت جرسَ الباب ووقفت تنتظر، سمعَت صوتَ خطواتِه تقترب، فتح الباب ووقف مدهوشاً للحظات، ضحك وضمَّها إليه وأغلق خلفهما الباب. قادها إلى حيث يجلس في ركنه الأثير، حديقته، جنّته التي أخبرها عنها الكثير. شرفة صغيرة مغلقة من كلّ جوانبها بالزجاج، تطلّ على شارع هادئ وغابة كثيفة، تكسو جوانبها أصص الزرع، خضراء فيحاء كبستان ليمون كثيف العطاء. وعلى الجدار فوق الطاولة تعرّش ياسمينة صغيرة تعطّر بشذى زهرها المكان. كتب في كل مكان وكأنها مكتبه من مكتبات الرصيف، كتبٌ جديدة وكتبٌ قديمة متنوعة في الأدب، و السياسة، والفلسفة لكتّاب عرب وكتّاب عالميين، روايات كلاسيكية، وروايات حديثة، طاولة صغيرة ومقعدان، جلس ودعاها للجلوس. سألته ماذا تقرأ؟ أجاب أقرأ كتاب «نساء» لشارلز بوكوفسكي. أخبرها بأنه قرأ هذا الكتاب عدّة مرات، وفي كلّ مرة يكتشف فيه أشياءَ جديدةً لم ينتبه إليها من قبل. تململَت سلوى وقالت، قرأته ولم يعجبني، لم أفهم ما يريد. شاعر سكّير عربيد يتباهى بصيته وبقوة جاذبيته كشاعر أمام الصغيرات من النساء، يغرّر بهن بالجنس والكحول

والمخدرات. أعتقد بأنه كان خصياً، لذلك كان يبالغ في وصف قوته وتعدّد علاقاته. ضحك وقال بأن القراءة أذواق.

بهرها بيته، بهرتها الزركشة التي تطغى على ذوقه، مرايا ولوحات فنية مختلفة الأنماط تكسو كلّ الحيطان، وعلى أرض الغرفة تمتد سجادة شرقية بديعة النقوش والألوان، كنبة وحيدة بلون الربيع تحتلّ صدر المكان، ومكتبه كبيرة تطفح بالكتب، حتى لم تعد تتّسع ، فاصطفّت الكتبُ على الأرض أمامها وعلى جوانبها. كم هزيلة مكتبتها أمام هذا الازدحام من الكتب في بيته. سألته مستغربة إن كان قد قرأ كلّ هذه الكتب، فقال ببساطة أنه قرأ أغلبها، وبأنه يودّ أن يوزّعها ويحتفظ لنفسه منها بالقليل، فهو لا يحبّذ فكرة حبس الكتب على رفّ في مكتبة، بل يحب أن يبقى الكتاب فعالاً يدورُ بين الأيدي، يُقرأ ليعمَّ الدنيا نورُ الحروف وقوّة الكلمات.

أحبت بيته رغم زركشته، ففيه تناغمٌ عجيب.كم يشبهُه، كم هو مثله، صاخب بالألوان، بعكس بيتِها، الذي يغلبُ عليه البياض وأناقة غربية محافظة، لا بهرجة فيها ولا زركشة ألوان. جلست مقابله يغلبُها التّوتر، لا تهدأ على حال، وهو يجلسُ هادئاً على كرسيّه كملكٍ أفريقي، يرتدي عباءةً مزركشةً تظهرُ خضرةَ عينيه وسمارَ بشرته. كم فاتن هو، وكم يليقُ هذا المكان به. أمسك يديها وقال لها بأنه سعيد جداً بهذه المفاجأة، فهدأت واستراحت في مجلسها، وبقيَت على

جلستها أمامَه كلّ اللّيل، تكلّمه ويكلّمها. تكلّما في الأدب، وفي السياسة، وفي الفن والسينما، عن الحبّ والعلاقات. تكلّما وتكلّما حتى أشرقَ الصباح فسكتا عن الكلامِ المباح.

سألها يوماً إن كانت تحبه، فقالت أخشى بأن أكون أحب حالة الحب فيك، فكيف أعرف أنني أحبك ، كيف أعرف بأن ما أحسه نحوك حب وليس وهم حب. فيقول لها لا هو ليس وهما أنه الحب. الحب يا حبيبتي لا يفسر، الحبّ يُعاش. كم تمنّت لو كان عندها يقينه، لو تعافت من قلقها وشكوك قلبها وهواجسه، من إرث شرقها الذي يعشّش كالسوس، ينخر في وعيها، يخيفها إن هي استسلمَت له ولحبّه من غدر الرجال. إلا انها ورغم كل القلق الذي عمر قلبها، ورغم كل الهواجس التي تسكنها، وتلاحقها وترميها في حبّه، قد تعلّمت معه وفي حبّه ما لم تتعلّمه في علاقاتها السابقة. عرفت بأن الحب هو أن تغامر بقلبك، هو الاستسلام التام لأهواء قلب المحبوب. الحبّ هو القلق هو حالة اللايقين ترميك بلا هوادة، بلا رحمة في بحور الشكّ والحيرة. اليوم تفهم سلوى عشّاق التاريخ الذين قتلهم الحب، تفهم قيس ابن الملوّح الذي قتله حبّ ليلى العامرية. تفهم جميل بثينة وحبّ عنترة لعبلاه. تفهم كيف ولماذا قتلَ هؤلاء العشّاق عِشقُهم. فإذا كان الحب داءً فلقاء الحبيب له خيرُ دواء. وهؤلاء العشاق لم يقتلهم الحب بل قتلهم

الفراق، فلا خيرَ في حبّ لا يخطف قلبك من صدرك، لا يَعتصره ولا يُضرم فيه النّار. ولا شيءَأطيبُ من لقاءِ الحبيب عندما تلقي يديك بين يديه، فتسكتُ أوجاعُ القلبِ وتستكين، ويقينُك لا تجده إلاّ في اللحظات التي يلامس فيها جلدك جلده وعندما يختلط لهاث صدره بلهاث صدرك وتناغي دقّات قلبه دقّات قلبك.

واستسلمت لحبّه، صار لها وصارت له. وقلّ أن يفترقا، يتحدثان على الهاتف لساعات، يقرأ لها، يحدّثها عن شوقه وتصبّ أشواقها نحوه أنهاراً. هو الفرح الذي أتاها دون استئذان، الفرح الذي طرق باب بيتها وقلبها وهي على أبواب الخريف دون رهبة أو كلل. من قال بأن الخريف موت، من قال بأنه حسنُ الختام؟ إنه أُهزوجة ألوان وغزير الشتاء.إنه الماءُ واللونُ والدهشة.أهلاً بالخريف، أهلاً بالجمال. وفتحت له الباب بغير حساب،أدخلته قلبها، وبيتها وسنين عمرها التي عاشت كل أيامها في انتظار. واستفاق من غفوته الطويلة جسدها، بكل جلاله، وبهائه وشوقه،استفاق.

الجسدُ صندوقُ العجائبِ والأسرار، كم من الحكايا، كم من الأسرار يحفظها الجسد رعشات، شهقات، لمسات وقُبل، يخبئها بإتقان، بفنٍّ بين مسامه لسنين وسنين، لا تغيب ولا تموت. محمد كان أوّل قبلة، أوّل لمسة، وأوّل حب، وأوّل علاقة واشتهاء حقيقي

تحسّ به سلوى نحو رجل. معه كانت المرّة الأولى التي تسمح فيها لرجل بالاقتراب من روحِها وقلبِها وجسدها، هي المتوَّجة بالإثم والعار، تحمل عارها معها أينما ارتحلت. تعيشُه عارياً أمام عينيها، تذكرُها فيه نظرات الناس، همسات الجيران وراءها، يذكّرها به صاحب معمل الملابس الذي تعمل فيه، والذي لم يكنْ يكفّ يوماً عن التحرّش بها في السّر وفي العلن، مذكرا إياها دائما بذلّة أُمّها، وبأنه سمح لها بالعمل في معمله شفقةً منه على حالهم، وإكراما لوالدها ومصيبته، ويتوعّدها ويقول بأنه يراقبُها وسيطردُها عند أولِ تصرفٍ لا يعجبُه، فهو يخافُ على سمعة معملِه وعلى سمعةِ باقي العاملات من البنات. ورغم ذلك لا يكفُّ عن مراودتِها عن نفسها، لا يكفّ عن التحرّش بها، ولمسِها لمساتٍ يدّعي إن هي ثارَت في وجهِه أو اعترضت على تحرّشه بها بأنها بريئة حصلت دون قصد. كم كرهَته، كم كرهَت شبابَ الحيّ الذين ما فتئوا يلاحقونها بنظراتهم وبتعليقاتهم السافرة. الكلّ يريدُها، يريدُ أن يأخذَ حصّته منها، حصّته من جسدها، بلا خجلٍ أو حياء، وكأنّها مشاع وحقّ للجميع. لم يكن حالُها أفضل في البيت، فكان والدُها الحانق الغاضب لا يكفّ لحظةً واحدةً عن تذكيرِها بأنّها مثل أمها، وبأنّها لن تكون أفضل منها، ويتوعّدُها بالقتل إن هو سمعَ حتى لو همسةً من أحدهم عن سلوكها، يعد ويتوعد ويهدد بأن ثمنها لن يكون أكثر من ثمن رصاصة يطلقها على رأسها ويدفنها فوق أُمّها.

محمّد كان مختلفاً، كانت نظرتُه إليها مختلفة. لم يكن وقحاً، وكان يعيش بعيداً عن حيّها،لا يعرف شيئا عن ماضيها ولم يسمع بقصتها. تذكر لقاءاتهما وعلاقتها بجسدها في ذلك الحين. كم من الآثام حمّلت نفسَها وحمّلت جسدَها. محمّد كان في عمرها أو أكبر قليلاً، عديم الخبرة مثلها، ولكنّه كان أكثر جرأة منها. يداعبُها، يغازلُها، وتمتدّ يدُه تفكّ أسرارَ جسدها، وسلوى تجلس بقربه كالتمثال، تريدُ أن تمنعَ يدَه من التسلّل إلى حرمةِ جسدِها، ولا تفعل، تمنعُها نشوةٌ تحسُّها، تريدُها ولا تريدُها. تجلس خائفةً لا تحرّك ساكناً، تخبئُ يديها تحتها، وراء ظهرِها أو في جيوبِها حتى لا تلمسَه. لا تلمسُه أبداً، تخافُ إن هي لمسَته أن لا تستطيعَ غسلَ ملمسِ ذكورتِه من ذاكرةِ يديها، فتغرق أكثر في الإثم. تجلس بقربِه لا تتحرّك ولا تتكلّم، بالكاد تخرجُ من صدرها الأنفاس.

النشوةُ والعارُ كانا رفيقي دربِها طيلةَ فترة علاقتها به. كانت سلوى تعود بعد كلِّ لقاءٍ معه إلى بيتِها مكلّلةً بالخزي، فما أن تتركَه وتسلكَ دربَ العودة، حتى تستبدَّ بها الهواجسُ والأفكار، كيف سمحت له أن يقبّلها، كيف سمحت له أن يداعبَ جسدَها؟ كيف سكتَت، واستسلمت، وانتشت للمساتِ يدِه. تخاف من نظراتِ والدِها، تخاف أن يكتشفها، رغم كل الحرص الذي مارسته في علاقتها بمحمد ، أن يقرأ على جسدها آثاره، أن يرى بعيون الشك

التي تسكنُ عقلَه وقلبَه بصماتِ أصابعِه على وجهِها وشفتيها، أن يقتلَها ذلك المهووس بكرهِه للنساء. تغيّر والدُها كثيراً، انقلب من رجلٍ عاملٍ جادٍّ مسكين، يعملُ ليلَ نهار ليعيلَ عائلتَه ويرعاها، إلى عجوزٍ هرمٍ، ومتبجحٍ، وحانقٍ ومهووس، يجلسُ في البيتِ ليل نهار، قلَّ أن يذهبَ إلى عمل، ويعيش على حسابها وحساب إخوتها، وفوق هذا كلّه لا يدعها وشأنها، يلاحقُها، يحسبُ عليها أنفاسها، يستعبدُها ويجعل منها بين ليلة وضحاها أماً لإخوتها، يعيّرها في كلّ لحظة بذلّة أُمِّها، يضربُها لأقلّ سبب، ويقول أنت مثلها، لن تكوني أفضلَ منها، وتصدّق سلوى، أنا مثلها، أنا ابنتها، جسدي دنس، والخطيئة تسري في عروقي وفي دمي، هي إرث يلاحقُني ولن يتخلّى عنّي حتى أموت.

تدخلُ الحمّام تغسلُ عارَ جسدِها، تعاقبُه على فعلتِه، تفركُه بماءٍ ساخنٍ جداً، بليفةٍ خشنة، تفركُ وتفرك حتى تفرَّ منه الدماء، ثم تتوضّأ وتجلس خاشعةً على سجادةِ الصلاة، تطلبُ من اللّه باكيةً أن يسامحَها على فعلتِها، أن يغفرَ لها، وتعدُ بأنّها المرة الأخيرة، فلن تسمح لنفسِها بأن تُجرَّ الى الرذيلةِ مرةً أخرى. لن تسمح بعد اليوم أبداً بمثل هذا الدنس. تبكي وتبكي وتستغفر ربها وتنام على توبتها أياماً. وما أن يتّصلَ بها محمّد حتى تشتاق، تحنّ إليه، إلى حبّه، وملمسه ورائحته، فتعود.

كم أحبّت محمّداً في شبابها، كم طرّزت لنفسها معه من أحلام، هو لا شبيهَ له في الكون، لِحيتُه ما أجملَها، قوامُه، رشاقتُه، أناقتُه، وأصبح في عينيها الأمثلَ بين الرجال. فلا جمال في نظرِها لوجهِ رجلٍ غير ملتحي، لا شعرَ بلمعانِ شعرِه الأسود الكثيف، لا عيون فيها سحر عينيه، ولا عطر أطيبُ من رائحةِ عطرِه التي ما زالت تسكن ذاكرتَها حتى اليوم. تضحكُ عندما تتذكّر كيف أنّها، وبعد انتهاء علاقتها به، كانت تمشي وراءَ أيّ رجل تصادفه في الطريق وتشمّ فيه رائحة عطر محمد، تسيرُ وراء رجل لا تعرفه، تتنفّس عطرَه الى أن ترتوي، تخزن في وعيها رائحةَ ذلك العطر الحبيب، تخزنها في الذاكرة ثم تعودُ من حيث أتت. كم تغنّى محمد بجمالِها، وجمالِ جسدِها، كم قال أنه جميلٌ، ومغرٍ ومثير ولم تصدّق. جسدي ليس جميلاً، وتتفنّن في اختراع القبح فيه. لم تكنْ على علاقةٍ طيبةٍ بجسدها في صباها، وأقنعَت نفسَها بقبحه. فلولاه

لولا رغباته ما غرقت في الدنس، تمنعه ولا يطيعها، يسيرُ على هواه، سيُحرَقُ في نارِ جهنّم، سيكونُ السببَ في عذابِ روحها. تخجل به وتحاول أن تخفيه عن العيون، فلم يكن يعجبها أن يراه محمّد أو إحدى صديقاتها .كم كانت في أول أيام المراهقة والصبا تحنقُ على أُمِّها إن هيَ دخلتْ عليها دون إستئذان وهي عارية تستحمّ أو تغيّر

ملابسَها. أما على البحر مع الصديقات، فكانت تركض على عجل، تلفُّ نفسَها بالمنشفه ولا تتركها إلا عند الشاطئ قريباً من الموج، ترميها على الرمال وتغطس سريعاً بكامل جسدها بالماء.

هذه العلاقةُ المريضةُ بالجسدِ لسلوى لم تفارقْها إلا بعد أن نضجَت وبدأت ترى عيوبَ مجتمعِها وبدأت تجدُ أجوبةً لأسئلةٍ دأبَت على طرحِها على نفسِها منذ أن كانت صغيرة، عن العلاقةِ باللّه وبالوجود، وعن الحب. تصالحَت مع جسدِها وأحبَّته، بدأت تكتشفُ أسرارَه وتراه جميلاً، وعرفَت أن الجسدَ والحبَّ رديفان، فلا يمكن للعشقِ أن يكتملَ إلا عندما يقيمُ الجسدُ أفراحه وأعراسه ويلتحمُ بجسدِ الحبيبِ في ذروةِ اللّذةِ والانتشاء.

انتهت علاقتَها بمحمد حين طلبَت منه أن يتزوَّجَها، أن يأتيها خاطباً لتصبحَ علاقتُهما شرعيةً ويكون ارتباطُها به في النورِ وأمامَ كلِّ الناس. لقد تعبَت من الأسرار، تعبَت من خوفِها أن يراها أحدٌ برفقتِه، أن ينفضحَ أمرُها ويكونُ مصيرُها كمصيرِ أُمِّها تُذبحُ كبقرةٍ أمامَ أعينِ كلِّ الشّامتين الطامعين بجسدِها من الرّجال. رفضَ محمد وقالَ بأنّه لا يفكّرُ الآن بالزواج، فهو صغيرٌ لم يكملْ جامعتَه بعد ويعيشُ عالةً على أهلِه، ولا زال أمامَه المشوارُ طويلاً. قال إن لم يعجبْك ما نحن فيه فلنفترق، وتركَها وغاب. تركَها ببساطة، هكذا، وكأنّه لم يكنْ بينها وبينه أيّ قصَة أو أيّ لقاء، اختفى من حياتِها وكفَّ عن الاتصال بها وكفَّ عن لقائها.

بعد محمد لم تنجح لها أي علاقة،حتى بعد أن تركتْ لبنان وهاجرت إلى أوروبا هرباً من ماضيها والعارِ الذي يلاحقُها. قطعَت علاقتَها نهائياً بوالدِها وبماضيها كلِّه، وقرَّرت أن تبدأ حياةً جديدةً في السويد. ابتعدَت عن العربِ المقيمين في المدينة، لم تعاشرْ أياً منهم، فكانت علاقاتُها كلُّها مع أجانبَ من دولٍ أخرى وسويديين. صديقتُها العربيّةُ الوحيدةُ هي غادة، تعرّفَت عليها خلال دراسة اللغة السويدية، غادة الطيّبة التي تحمّلتْها وتحمّلَت كلّ تقلّباتِ مزاجِها. مارسَت دورَ الأمّ على سلوى، رغم أنَّ غادةً كانت تصغرُها بأعوام، ترعاها تسألُ عن حالِها، وتدعوها دائماً الى بيتِها للطّعام. لا تسألُها عن ماضيها، بل تترك لها حرّيةَ أن تخبرَها بما تريد، وعندما تريد. أصبحَت غادة وعائلتُها عائلة سلوى في الغربة. جرّبَت غادة أن تجدَ لسلوى العريسَ المناسبَ بين معارفِهم من عرب، ولم توفّقْ لأنَّ مشاريعَها كانت دائماً تصطدمُ بماضي سلوى وعارِها فيهرب العريس. في النهاية، اقتنعَت غادة وكفَّت عن المحاولة، وارتضت بسلوى صديقةً عزباءَ كما هي.

أقامَت سلوى بعضَ العلاقاتِ مع رجالٍ سويديين وأجانبَ من دولٍ أُخرى، ولكنَّها كانت علاقاتٍ قصيرةً تنتهي قبل أن تبدأ. فبقدرِ ما كانَت سلوى مقدامةً جريئةً في الحياةِ وفي العمل، ولا تهابُ أن تكونَ هي المبادرة في العلاقات، ولا تتردَّد في أن تبدي

إعجابها برجل، بقدر ما كانت عاجزةً عن الحفاظ على العلاقة. كانت تنسحبُ من العلاقات قبل أن تغوصَ بها عميقاً، قبل أن تصلَ بها إلى مُستقَرّ، فتجدَ الحججَ والأعذارَ وتختلقُ الكثيرَ من العيوبِ في الآخرِ لتتركَه وتنهي العلاقة. وفي المرّات التي أحبَّت فيها بصدق، كان هوسُها وعدمُ ثقتِها بحبِّ الآخرِ لها يتعبُ الحبيبَ فيهجرَها قبل أن تجدَ به العللَ لتهجرَه.

لم تتزوج ولم تنجب، وكانت النشاز بين بنات عائلتها، فكلهن زوجاتٌ وأمّهاتٌ وربّاتُ بيوت، إلاّ هي، تعيشُ قلقَها ولا يهدأُ لها بال، تعاني بين الحين والآخر من نوباتِ الكآبة تؤرقُ ليلَها، فتلجأُ الى العقاقيرِ تداوي بها جروحَ روحِها كي تعيشَ وتستمر. طموحةٌ، مثابرةٌ، عنيدةٌ لا تكلُّ، ولا تلينُ ولا تكسرُها الضربات. في السويد جاهدَت، وكدَّت، وأصرَّت على بدايةٍ جديدةٍ لحياتها، ونجحَت في ذلك. أكملَت دراستَها بعد أن كانت قد انقطعت عنها في لبنانَ بسببِ الحرب أوّلاً، ولاحقاً بسببِ فضيحةِ أمِّها. دخلَت الجامعةَ وحصلَت على شهادةٍ جامعيةٍ من كلّيةِ علمِ الاجتماع، وهي اليوم مشرفةٌ اجتماعيةٌ في إحدى المدارس. في الجامعةِ وفي العملِ تعرّفَت على أناسٍ من مستوياتٍ ثقافيةٍ وعلميةٍ واجتماعيةٍ مختلفة، وأصبحت لديها اهتماماتٌ جديدة، تشغلُها أسئلةُ الوجود، همُّها الناسُ والسياسةُ والحروبُ التي تدورُ هنا وهناك في وطنِها،

وفي شرقِها كلِّه، وتحصدُ الكثيرَ من الأبرياء. قضيةُ المرأةِ تشغلُها، يشغلُها الظلمُ الذي وقعَ عليها بسببِ جنسِها، والعارُ الذي حمَّله المجتمعُ الذكوريُّ لها ولجسدِها. همُّها أن تجدَ دوراً لها ضمن كل ما يجري حولَها، أن يكونَ لها منه موقفٌ ومكان، أن تمارسَ انسانيّتَها، أن تقولَ لا، ألاّ تكونَ زائراً أتى وغادرَ الدنيا دون أن تتركَ أيَّ أثرٍ أو ذكرى. لا تتّسعُ حياتُها لرجل، لا تريدُ رجلاً مثلَ والدِها، يقيّدُ حرّيتَها، ويستعبدُ جسدَها وفكرَها، ويعيّرُها بعيبِ أُمِّها. كلُّ علاقاتِها السابقةِ شواهدٌ على الخيباتِ وتأكيدٌ لها، بأنَّ وحدتَها كانت وما زالت هي الخيارُ الصّحيح. أما الأطفال، ما لها هي والحملُ، والولادةُ، والأطفال، ولماذا تحكمُ على آخرين وتأتي بهم إلى عالمٍ هي نفسُها لا تعرفُ كيف تتدبّرُ أمرَها وتعيشَ فيه. قانعةً كانت سلوى بوحدتِها وتكتفي بالحياةِ من الأصدقاء.

جاءَها بدرٌ وقلبَ كلَّ حياتِها ومفاهيمِها رأساً على عقب. معه ولأولِّ مرّة تحسُّ بأنها في كاملِ نضجِها، في كاملِ وعيِها لنفسِها، لحاجتِها الروحيّةِ والنفسيّةِ والجسديّة. يلتقيان فلا تسعهما أرضٌ ولا سماء، يعتصران رحيقَ العشقِ من جسديهما ويرتشفان من الحبِّ كلَّ قطرة، ويعوّضان بالحبِّ كلَّ ما فاتهما، عاريان أمام بعضهما، عاريا النّفسِ والجسد، لا يبقيان على لباس، جسدُها صارَ أحلى، صار أصغر، لم يعد يؤرقها وزنَها الزائد أو ترهّلَ

صدرِها ورقبتِها، لم تعدْ تخبّئُ جسدَها أمامَه ولا تجمّلُه ولا تخفي عيوبَه وعمرَه عن عينيه.أصبح جسده بكلِّ سنواته وتعرّجاته ملعباً لشفتيها وأصابعِها، تحبُّه وترى في عمرِه جمالاً، تحبّ ُجسدَ بدر، تحبُّ كلَّ شبرٍ فيه، تحبُّ طيّاتِ بطنِه تحجبُ عنها ذكورتَه وتستدرجُها للاكتشاف. تحبّ ُالشيبَ في صدرِه وفي رأسه، تحبُّ لهاثَ التعبِ يحرقُ أنفاسَه، تحبُّه مستلقياً على صدرِها بعد أن أفرغَ الحبَّ والحياةَ في أحشائها، تحبُّه عندما يأتيها شبقاً مشتاقاً، ويأبى نورسُه أن يطيعَه رغم سيلِ الحبِّ والرجاءِ، يعاتبُه بحبٍّ ومرحٍ ثم يتركُه وديعاً كالطفلِ ينام. تحبُّ فيه أنه طيّعٌ ليّن، لا حالةَ عجزٍ مؤقّتٍ تقلقُه، ويجدُ لكلِّ علةٍ دواء، ويتركُ دائماً ليدَيْها جسدَه ملعباً تسرحُ به، تمرُّ بأصابعِها فوق مسامّه، تتفقّدُها كلَّها، تستفزُّها، تستنفرُها، وتجرُّه معها يمارسان بحريّةٍ البحثَ والاكتشافَ لسرِّ الجسدِ المقدَّس.

تحبُّ حكمتَه وهو يراقبُها في عزِّ شهوتِها تكبتُ صرخةَ ألم تسبَّبت بها حركةٌ غير مدروسةٍ لجسدٍ لم يعد يافعاً فتشنّجَت عضلاتُه. يغمرُها، يمسّد ربلةَ ساقِها الموجوعة ويستمرُّ في العناقِ والشّبق، ويقول ُلها لاحقاً، بعد الانتهاءِ من صولةِ الغرامِ أنّ الجسدَ الذي فقدَ مع السنين ليونتَه يخذلُنا أحياناً، ونعرفُ جيداً أن الآهاتِ التي تخرجُ منّا خلال وصلاتِ الغرامِ ليست كلُّها آهاتِ

نشوة، بل أن جزءاً كبيراًمنها بسببِ تشنّجِ المفاصلِ وسطوة الآلام، ويضحكان من ضعف جسديهما، ولا يكفان عن التحايل عليهما لتصل بهما إلى عوالمَ جديدةٍ من النشوةِ والإحساس.

الجرأة، من أين أتتها؟ كم هي جريئةٌ في علاقتِها به، لم تعدْ تخافُ ماضيها، وأخبرت بدراً به، فاحتضنَها كقلبِها، وشاركَها غضبَها على مأساةِ أمِّها. كانت المرّةَ الاولى التي تسمعُ فيها رجلاً من الشرقِ لا يدينُ أُمَّها، بل يسمّيها الضّحية. قالَ بأنَّها ضحيةُ مجتمعٍ حكمَ عليها بالزواجِ من رجلٍ كان يودّعُ حياةَ القلبِ والجسد، بينما كانت هي ما تزالُ تستعدُّ لدخولها. لم يوجّه مطلقاً أيَّ لومٍ لأُمِّها، بل لامَ القوانينَ المجحفةَ، والمجتمعَ وأعرافَه وأحكامَه. لم يلمْها هي على فعلةِ أمِّها، ولم ينظرْ إليها نظرةً شبيهةً بنظراتِ كلٍّ من عرفَتهم في السابق، كأنَّ جسدَها وليمةٌ مجانيةٌ مفتوحةٌ للجميع. كم أسعدَها وأدهشَها موقفُه هذا، وفتح لها أبواباً جديدةً تطلُّ منها على علاقتِها الملتبسةِ بأمِّها.

تلاشت في علاقتِها به كلُّ الأطرِ والحدود، فهي أمامه كتابٌ مفتوحٌ تخبرُه بأدقِّ التفاصيل، وتبوح له بكلِّ هواجسِها وأحلامِها. كم أصبحَت نديّةً زاهيةً بحبِّه، وكم أصبحت الكلمات في فمها طيّعةً سهلة! أهيَ حكمةُ الأيّام، أم أنّهُ خوفُ الخريفِ من أن يدركَهُ الشّتاء؟ الحبُّ يصنعُ المعجزات، وهذا الحبُّ غيّرَ سلوى كثيراً،

فدبَّت في قلبِها وجسدِها رعونةُ الصّبا والشّباب، وأصبحت تهتمُّ أكثر بمظهرِها، فأصبحت أكثرَ دقّةً في اختيارِ ملابسِها. فمع كلِّ قطعة تضعُها على جسدِها، باتت فكّرُ به وبتأثيرِها عليه، هل ستعجبُه؟ هل ستثيره؟ في السابقِ كان لها موقفٌ من ملابسِ النومِ المغرية، لا تشتَريها ولا تلبسُها، وتعتبرُها للفارغات من النساء فحسب. أما اليوم، كأنّها صحَتْ فجأةً على ما فاتَها من رغباتِ الحبِّ ولعبِه وحيَلِه بسببِ العقدِ التي سيطرت عليها أيّامَ الشّباب. تضحكُ سلوى من نفسِها وتقولُ لغادة، سأشتري لنفسي منها الأكثر إغراءً، ففي الحبِّ كلُّ سلاحٍ مسموح، وكلُّ ما يفرحُ قلبَ الحبيبِ حبيب، ولا عيبَ في أيّ شيءٍ يثيرَ شهيَّته وإقبالَه على الحياة. عادت لعطورِها، لحليِّها، لزينتِها، لأثوابها التي هجرَتْها، واشترَتْ منها الكثير، اشترت كلَّ ما يحبُّه بدرٌ وكلُّ ما يراه جميلاً.

في مساءٍ ربيعيٍّ جميلٍ، جلسَتْ سلوى وبدرٌ على مائدةِ الطعامِ في منزلِ سلوى، بعد أن أمضَت نهارَها كلَّه في المطبخ. أعدَّت لبدرٍ الطيباتِ من المازاتِ اللبنانية الشهيّة. وسلوى لا تتقنُ فنَّ الطبخِ، ولا تحبُّه ولا تحبُّ المطبخ، بل تطبخُ فقط بسبب حاجتِها للطعام. كم تتمنّى لو أن هناكَ كبسولات بنكهاتٍ طعمات مختلفةٍ تشبعُ وتغني عن الطعام، كبسولة بنكهة كبّة، وكبسولة بطعم المقلوبة، وأخرى بطعم ورق عنب وكوسا محشي، وكبسولة بنكهة الكنافة

تعمّرُ فمَها بطعمٍ حميمٍ طيّبٍ لبلادٍ تشتاقُها ولم تعد إليها. نعم، ليكن الطعامُ كبسولات بكل النكهات ، فلا حاجةَ لأن تطبخَ وتضيعَ وقتَها الثمينَ في إعدادِ الطعام. هي لا تطيق تحضيرِ الأكلاتِ المعقّدة، وهي عادة تعدُّ الأكلات التي لا تحتاجُ الى الكثيرِ من الوقت، ولا تتجاوزُ مدّةُ إعدادِها نصف ساعة.

اليومُ هو يومٌ مختلفٌ لأنّه يومُ عطلة، ويومُ العطلة هو يومُ زيارةِ الحبيب. وسلوى العاشقةُ أعدت لبدرٍ بحبٍّ، وشغفٍ، وتأنٍّ كلَّ ما يحبُّ ويشتهي من طعام. كان عشاءً لذيذاً مشغولاً بحبّ، أكلا وشربا نبيذاً فاخراً أحضرَه بدر. بعد العشاء جلسا على شرفةِ بيتِها يشربان القهوةَ ويتسامران. ثم سألَته أن يقرأَ لها بعضاً من شعره، فهي تحبُّ جداً طريقتَه بالقراءةِ التي تجعلُها تعيشُ كلماتِه، تحسُّها فترى الحروفَ والكلماتِ تخرجُ من بين شفتيها وترتسمُ كصورٍ تتحركُ أمامَها، فترى النهرَ منحدراً يجري سريعاً، ترى ماءه وتعرّجاتِ مجراه، حتى الحجارةَ المستقرَّة في قعرِ النهر، تراها وترى ألوانَها، ترى الشجرةَ بتفاصيلِها، بعلاماتِ الزمنِ على جذوعِها، بتدرّجاتِ اللونِ في أوراقِها، بثمارِها تتدلّى بثقلٍ يكادُ أن يطأَ الأرض، ترى المدنَ التي يحبُّها ببيوتِها القديمة، بشوارعِها، وبكلِّ آثارِها، تلالِها، وهضابِها، ترى الأسواق، الناسَ والبائعين، ترى النساءَ، تجادل الباعةَ لتحصلَ منهم على ما تريد

بسعرٍ أقلّ، وترى الحبَّ وفعلَه، تحسُّ بقلقِ عشّاقِه وتحسُّ بطعمِ القبَلِ في كلماتِه. كلّما قرأَ أكثر، كلّما ازدادَ إحساسُها بالتّوترِ وبالرّعشةِ تجتاحُها، وتشتهيه كما لم تشته رجلاً من قبل، تثيرُها كلماتُه، يثيرُها صوتُه الذي يحرّضُ أنوثتَها، يحرّضُ كلَّ مسامِها، فتُستَفزُّ للقاءِ عشقٍ لم تعشْ مثله مع غيرِه من قبل، ولا تعتقدُ أنه قد يتكرّرُ مع أيّ رجلٍ آخر.

قرأَ لها بدرٌ بعضاً من قصائدِه الجديدة وسألَها عن رأيِها. قالت بأنَّها في غايةِ الروعةِ والجمال، مبهرة، مدهشة، وبحزنٍ وحذرٍ أضافت بأنَّها تحسُّ بأنَّ المرأةَ التي يتكلمُ عنها في قصائدِه لا تشبهُها، بأنها لم تجدْ نفسَها في تلك القصائد، وبأنَّها تشمُّ فيها رائحةَ امرأةٍ أخرى. ضحك بدر لظنِّها وضمَّها إليه، وطبعَ بأنفاسِه الدافئةِ قبلةً فوق شعرِها الأحمر المتموّجِ الطويل، وأسكنَ رأسَها بحنوّ فوق صدرِه فتسمع دقّاتِ قلبِه. تثورُ سلوى على نفسها، تكرهُها، تكرهُ شكَّها وظنونَها التي تؤرقُها وتقفُ حاجزاً بينها وبينه، فلا تستطيعُ أن تفتحَ قلبَها على وسعِه للحبِّ وله، ولا تستطيعُ أن تدعَ قلقَ الغدِ للغد، ولا تعرفُ لماذا تسمحُ لهواجسِها بأن تفسدَ أجملَ أوقاتِها.

غيَّرها حبُّه، أفقدَها توازنَها، فأصبحَت شديدةَ الهشاشة، كأنّها مراهقةٌ تعيشُ تجربةَ الحبِّ الأوّل، تأكلُ صدرَها نيرانُ

الغيرة، تتلفُ أعصابَها. تغارُ من كلّ امرأةٍ مرَّت يوماً في حياتِه أو في خيالِه، تغارُ من أصابعِهن التي تركَتْ بصماتِها على صدرِه، من كلِّ كلمةِ حبٍّ قالها يوماً لغيرِها، تغارُ من ذاكرتِه، آه لو ينسى كلَّ ما قبلَها، لو يعيشُ بلا ذاكرة، لو كان بإمكانِها أن تمحو ذاكرتَه كما تُمحى ذاكرةُ كمبيوتر قديم، فيبدأ يسجّلُها من جديد. تخترعُ قصصَ الخيانةِ وتعيشُ معاركَها مع نساءٍ تظنُّ بأنّهن يختَبِئن بين حروفِه، فتدخلُ كلماتِه، تفلّيها وتسحبُ أيَّ طيفٍ لأُخرى، تجرُّها من شعرِها، وترمي بها بعيداً حيث لا تسمعُه ولا تراه. معه تخلعُ نسويّتَها على الباب، وتتحوّلُ إلى أنثى، إلى لبؤةٍ شرسةٍ همُّها الوحيدُ أن تبعدَ الأعداء عنها وعن حقِّها في رجلِها.

تتناوبُها الأهواء، فتارّةً تكونُ متفهّمةً متسامحة، وتارّة أُخرى غيورةً تشكُّ في كلِّ كلمةٍ يقولها، تغضبُ وتعصفُ بها الهواجسُ إذا نسيَ أن يتّصلَ بها يوماً، أو إذا صدفَ أن زارَتهُ ولم تجدْهُ في البيت، أو عندما تتصلُ به ويخبرُها بأنَّه مشغول. والأسوء من ذلك كلّه، حين تتصلُ به ويكونُ هاتفُه مشغولاً، فتتصلُ المرّة تلوَ المرّة، وتعدُّ الدقائقَ التي قضاها على الهاتف، ثمّ تتهمُه بالخيانة، بوجودامراةٍ أُخرى في حياتِه. تحنق، تثور، وتحلفُ بأن تقطعَ علاقتِها به عندما تتخيّلُ أنَّ ثمّةَ ما يخفيه، فتبحثُ وتفتشُ في كلِّ التفاصيل، وتركّبُ التفصيلَ فوق التفصيل، لتنسجَ قصةَ

غرامٍ تربطهُ بهذهِ أو تلك، وتُجَنُّ وهي تتخيّلُه يبثُّهن أشواقَه ويبوحُ لهنَّ بنفسِ كلماتِ الغرامِ التي كان يسكبُها على مسامعها. تقتلُها الشكوكُ ولا تصدّقُ تبريراتِه، فحتماً هناك غيرُها، سيتركُها قريباً بكلِّ تأكيد، ويذهبُ لأخرى. تبكي سلوى، تبكي غيظاً منه ومن نفسِها، تستسلمُ للشكوكِ وتقرّرُ بأنّ الحبَّ لا يناسبُها، لا يناسبُها هذا الفيضُ من المشاعرِ الذي لا تستطيعُ التحكّمَ به، هذا العشقُ الذي يعصفُ بنفسِها ويرمي بها بلا هوادةٍ في أهوائه، ولا يهدأُ منه قلبُها ولا يستريح. تحبُّ الوضوح، تحبُّ أن ترى خطوَتها القادمة، أن تحسبَ لها وتخطّطَ لأيّامها. هي لا تغوى المقامرةَ أبداً، والحبُّ مقامرةٌ لا تجيدُها ولا تجيدُ قوانينَها، والحبُّ أيضاً لعبةٌ خطرةٌ لم تتعلّمْ إدارةَ مفاتيحها. مشاعرُها نهرٌ هادرٌ تضربُه الزوابعَ وتعوي على أطرافِه الذئابُ الشاردة، بركانٌ متفجرٌ لاتستطيعُ كبحَه، ولا تفلحُ كلُّ تطميناتِه بتهدئتها.

لعوبٌ قليلاً هو حبيبُها، تحسُّ أحياناً بأنّه شغوفٌ بتلك الثورةِ من المشاعرِ التي فجَّرَ نيرانَها في صدرِها، وتحسُّ بأن حالةَ العشقِ العاصفِ التي تعيشُها تستهويه وتُرضي غرورَ الذكرِ فيه، بأنّه يبالغُ أحياناً في اللعبِ على أوتارِ قلبِها، يضغطُ بثقلٍ على مكابحِ مشاعرِها، فيطلقُها كالتّيارِ الهادرِ ويقفُ متفرّجاً مزهواً بانتصارِه الجديد. ستتركُه، تقسمُ بينَها وبين نفسِها أن تتركَه،

فهي لا تريدُ رجلاً لعوباً في حياتها، تريدُ من رجلِها أن يكونَ ككتابٍ مفتوحٍ أمامها، تقرأُ تفاصيلَه وتعرفُ معانيه، يكون رقيقاً كنسمة، لا يتلاعبُ بمشاعرِها، ولا يتركُ قلبَها عصفاً للهواجس . يمرضُها قلقُها، يمرضُها خوفُها من أن يهجرَها، فلقد تعبَت من الخسارة، ولم تعد لديها القدرةُ على تحمّلِ فراقٍ آخر. لا تعرف لم يسكنُها هاجسُ هجرانِه لها، يسكنُها هوسُ الخيانة، وبأنّها ربّما لا تستحقُّ حبَّه. فلماذا يتحمَّلُ قلقَها، وخوفَها وكلَّ اتهاماتها؟ تقرّرُ أن تبتعدَ عنه قبل أن يصبحَ هجرانُه صعباً عليها. تأخذُ قرارَها،تنامُ على قرارِها، ثم تعودُ له نادمةً خجلةً في الصّباح.

كم تكرهُ ضعفَها كعاشقة، كم تكرهُ الوحدةَ والفراغَ المعشّشَ عميقاً في نفسِها، تلك النفسُ التي تشبهُ بئراً عميقاً فارغاً لا قرارَ له، لا يرتوي ولا يملأُ فراغَه ماء. كم يخذلُها ويشلُّ إرادتَها شوقُها الى أن تكونَ تلك الأنثى، الإنسانةَ المرغوبةَ التي تفتقدُ ونيسَها، كم تمقتُ الحاجةَ الى ونيسٍ يناجي فراغَ روحِها ويلمسُ قلبَها وعقلَها. كم يقتلُها هذا العجزُ ويتركُ روحَها تتطايرُ كريشةٍ عزلاء في مهبِّ الريح، فتقومُ بتصرفاتٍ لا ترضى عنها، وتضعُها في أماكنَ لا تحبُّها، فتصيرُ ببساطةٍ ليستْ هي، تصيرُ امرأةً غريبةً عنها، تتصرّفُ بغباءٍ وعلى هواها. وتقسمُ مرّاتٍ ومرّات، تقسمُ بأنَّها سوف تتغيَّر وسوفَ تتركُه، وستتصالحُ مع وحدتِها وغربتِها،

وستنتصرُ على تلك الأخرى التي تتصرّفُ نيابةً عنها، ستتغلّبُ على نفسِها وعليه حتى لو ابتلعَتْ كلَّ ما في الدّنيا من أقراص، لينامَ ويخمدَ كلُّ ما في جسدِها وروحِها من إحساس.

يتفهّمُ بدرٌ قلقَها، يعرفُ أهواءَ نفسِها، ويعرفُ أنَّ تجاربَها في الحياةِ تحملُ الكثيرَ من الألم ويحبُّها، يحبُّ قوّةَ عزيمتِها، يحبُّ إصرارَها وتسامحَ روحِها، ويدركُ كم هو هشٌّ طريٌّ قلبُها، يفعلُ ما بوسعِه ليعيدَ الطمأنينةَ الى قلبِها. تهدأُ قليلاً، تهدأُ لأيّامٍ ثمَّ لا تلبثُ أن تعودَ لوساوسِها مرةً أخرى، وتقرّرُ من فرطِ تعبِها، من شدّة قلقِها وحَيْرتِها الانفصال. تتعبُه حالتُها، يتعبُه قلقُها، فيعاقبَها بأن يغيب.

يغيبُ فتعصفُ بها الظنون، ويقتلُها القلق، هي المسكونةُ بالعار، هي القلقةُ بأنه حتماً سيتركها، فلماذا سيقبلُ بها هي ابنة الخاطئةِ رجلٌ مثلُه، تكفرُ به، بحبِّه، فمالَها هي وهذا القلق؟ تشتاقُ إلى هدوءِ الحياةِ قبلَه، إلى روتينها وحياتها الرتيبة، البيت،العمل، والأصدقاء. تحفظُ تفاصيلَ يومِها عن ظهرِ قلب، وعندما يداهمُها قلقٌ غامضٌ أو ملل، أو عندما تُكربُ يومَها هواجسُ الماضي وتقلقُ نومَها ظلاله، تذهبُ إلى النادي، ترهقُ جسدَها فيسكت، وينامُ القلقُ في رأسِها الى حين. ماذا حدث؟ ألم تكنْ هي التي تتغنَّى بوحدتِها وتعشقُها؟ ألم تضعَ لها الكثيرَ من الحججِ والبراهين؟

ألم تتغنى بعدمِ حاجتِها للرجلِ حتى صدّقت؟ من أين أتاها مجرمُ الحبِّ هذا الذي حوّلَ حياتَها إلى محطاتِ انتظار؟ لتقتلَه، لعلَّ روحَها تستكين، فقلبُها لم يعدْ يقوى على تلك العواصفِ التي تطوح بها بلا رحمةٍ ولا شفقة. نعم لتقتله، فيختفي وكأنّه ما كان، كأنّه حلمٌ جميلٌ مرَّ ونسيَته في الصباح. لتقتله،فهذا هو الحلُّ الوحيدُ ليهدأَ قلبُها وينام. تظلُّ سلوى على قلقها، على حيرةِ قلبِها إلى أن يعود، ويعودُ بعد غيابٍ متلهفاً مشتاقاً، إليها يعود، بكلمة، بضحكة، يعودُ فتشرقُ شمسَها وتمتلئ حدائقُها بالورود.

كم أصبحَ جميلاً هذا العالم بوجود بدر، وكم كان سيكون مملاً لو لم تنته سنوات عمرِها به. البحرُ حبُّهما المشترك، تجلسُ معه في المقهى في أوّلِ يومٍ من أيامِ السنةِ الجديدةِ ترتشفُ قهوتَها على مهلٍ ويرتشفُ قهوتَه بصمت. تمسكُ يدَه وتقول له، «أجملُ ما في السنة الفائتة أنّها انتهتْ بك، وأجملُ ما في السنةِ الجديدةِ أنها بدأتْ بك». يبتسمُ ولا يقول، هو الهادرُ الصاخب، كم يستطيعُ أن يكون مُقلاً في الكلامِ حين تغلبُه المشاعر.تعاتبُه وتقولُ أحبَّني كثيراً يا حبيبي، أحبَّني وقلْ لي دائماً عذبَ الكلام، قل لي دائماً بأنَّك تحبني،لا تكنْ بخيلاً معي في الكلام، فأنا يا حبيبي تتجدَّدُ خلايا جسدي، وتتكاثرُ هرمونات أنوثَتي، وشبَقي، ورغبتي كلَّما أكثرتَ الكلام في حبي. كالشجرة أنا يا حبيبي، أموتُ حين ينقطعُ

الـكلام، وأنمـو وأترعـرع وأصيـرُ أجمـل، وتصيـرٌ أطـرافي خضـراء، شـجرة تطـرحُ الزهـرَ والثمـرَ كلَّمـا رويـتَ عطـش أيّامـي بالـكلام. وردةٌ أصيـر تشـتعلُ بالأحمـرِ خدودُهـا مـن عـذبِ حرفـك الرّيـان. بستانٌ تزرعَـه أنت بالكلام، هكذا أريـد أن أكونَ بسـتاناً بعصافيـرِه، بفراشـاتِه، بأرضِـه، وترابِـه، وكلِّ أشـجاره. أريـدُ أن أكون شـجرةً يدي، وشـجرةً أخـرى شـفتاي، وشـجرةً تنحنـي برونـقٍ كربلـةِ سـاقي، وشـجرةً مثل اسـتدارةِ سـاعدي. أشـجارُ كلّي تنمـو جذورُهـا عميقـاً في أرضِك، أحبَّنـي يـا حبيبـي لينبـتَ مـن بطنـي الحنّـون والنرجس والأقحـوان.

ضمَّهـا بحـبٍّ إليـه، وهمـسَ في قلبِهـا وأذنِهـا، أنـتِ وردَتـي العابقـةُ وأنـا أُحبُّـك. صمتَـت وتركَـت نفسَـها ترتـاحُ في حضنِـه، تسـتكينُ يدُهـا بـين يدَيـه، وغابـت في صـدرِه تدنـدنُ أغنيـةً لفيـروز، ويعاكـسُ صـدى صوتِهـا وحنـينُ فيـروز صـوتَ البحـرِ وموجَـه الهـادر. فيـروزُ هـي رفيقـةُ حبِّهمـا، فـلا يسـتوي نهارُهـا ولا يسـتقيمُ إلاّ حـين يرسـلُ لهـا أغنيـةَ الصبـاح، كلَّ صبـاح، حتـى في صباحـاتِ الزعـلِ والغيـاب.

بيتهـا تغيـر، أصبـح أكثـر دفئـاً بعـد أن صـار لبـدرٍ ركـنٌ فيـه، كنبـةٌ صغيـرةٌ في الزاويـة مقابـل جهـاز التلفزيـون، تحيـطُ بهـا أصـصُ الـزّرع، أصبحـت ركنَـه في بيتِهـا. تحضـرُ لـه بعنايـةٍ وحـبٍّ الأرائـكَ المريحـةَ وطاولـةً صغيـرةً لـه ولأشـيائه، لهاتفِـه ولكـوبِ الشـاي. وعندمـا يغيـب، تجلسُ سـلوى في ذلـك المكان، تتغطّـى برائحـةِ جسـدِهِ التـي تركَهـا هنـاك.

تسمعه في الشارعِ متشابكي الأيدي، يستديرُ البعض، ينظرُ إليهم مبتسماً أو مستهجناً، يضحكان ولا يهتمان، بل يهديان لفرحِ الآخرين أو استهجانهم قبلةً يطبعها على شفتيها. هي تريدُ الإعلانَ عن هذا الحب، تريدُ من الكلّ أن يعرفَ بأنَّ لها حبيباً، تريدهم أن يعرفوا بأنَّها حرّةٌ بحبِّها، بجسدها، وبأنَّ حبَّها هو خلاصةُ السنين وعركاتِ الحياة، ولا يحتاجُإلى وثائقَ وعقود. ما حاجةُ الحبِّ إلى ورقة؟ ما حاجةُ المحبين إلى عقودٍ تقيم العلاقات بينهم؟ ماذا فعل عقدُ الزواجِ لصديقتِها غادة؟ هل منعَ زوجَها من الزواجِ بأخرى؟ هل صانَ العقدُ علاقتَها بزوجِها؟ هل منعَها من الانهيار؟

جلسَتْ سلوى وحيدةً في ليلةٍ غابَ فيها بدر، تقلِّبُ ذكرياتِها، تنظرُ إلى ألبومِ صورٍ قديمٍ تحملُهُ معها دائماً أينما حلَّت وارتحلَت. لم تكنْ تجرؤ على النظرِ فيه من قبل. هو ألبوم صورٍ لعائلتِها، فيه صورٌ لأخوتِها وعائلاتِهم، صورةٌ لأختِها ندى، عروسٌ تجلسُ في الكوشة مع رجلٍ أكبرُ من والدِها، دبّرتْهُ لها العائلة، فمن سيرضى بها زوجةً غير هذا العجوز؟ ندى تدفعُ الثمنَ من شبابِها وروحِها، وتصحو قصَّةَ أُمِّها من جديد. تشعرُ سلوى بالذنبِ لأنّها تخلّت عن ندى، تركَتْها وهاجرَتْ وحيدة، تركتْها لأبٍ غاضبٍ ثائر، يثأرُ لفعلتِه وفعلةِ زوجتِهِ من بناته، يعذّبهنَّ ويرمي عليهنَّ ثقلَ ذنبٍ لم يقترفنه، هربَتْ هي وتركَتْ ندى وحيدةً هناك، تركتها بين عصابةٍ

من الرجالِ الغاضبين، مجروحي الكرامة، يتناوبون الوصايةَ عليها، ويفرضون أحكامَهم التعسّفيةَ على طفلةٍ يتيمة.

حاولت سلوى كثيرا بعد أن استقر بها المقام في السويد ان تأتي بأختها إليها، أن تهرّبَها الى السويد. دفعت للمهرّبين، والتجأتْ إلى الصليبِ الأحمر، حكَتْ لهم حكايَتَها، حكَتْ لهم عن خوفِها وقلقِها على أُختها، ولكن رغم كلِّ ما فعلَته، والجهدِ الذي بذلَته، وكلِّ ما دفعتْه من نقود، لم تُوفَّقْ أبداً، ولم تستطعْ أن تجمعَ شملَها بندى. فوالدُها كان يفرضُ على ندى وصايةً صارمةً ورقابةً شديدة، جعلت من الصّعبِ على ندى أو أيٍّ من المهرّبين الذين التجأتْ إليهم سلوى التملّصَ من رقابتِه وتسهيلِ مهمّةِ سفرِ ندى الى السويد.

ندى كانت بسيطةً كأمِّها، رقيقةً كنسمةٍ جميلة، كحلم، لذا كانت الرقابةُ عليها شديدةً ولم تستطعْ ببساطتِها أن تتدبّرِ أمرِها، أن تغافلَ والدَها وتهربَ الى أُختِها. في نهايةِ الأمر، وعندما أيقنَتْ استحالةَ تخلّصِها من قيدِ والدِها، استسلمَتْ ورضيَتْ بنصيبِها وقنعَتْ به. وأصبحَت وهي صغيرةٌ جداً، وبعد رحيلِ سلوى، مسؤولةً عن البيتِ وعن أخوتِها وأبيها. أصبحَتْ هي أمُّ العائلة. لم يتزوّجْ أبوها بعد أُمِّها، وبقيتْ ندى تقومُ على خدمتِهم، وتتحمّلُ قسوتَهم، حتى ذلك اليومِ حين دبّروا لها ذلك العريس الهرم ،

فتزوّجتْ وذهبتْ إلى بيتِه زوجةً ثانية، قطعةَ حلوى طازجةٍ تسلّي خريفَ سنينه. حينها فقط وبيأسٍ قطعَتْ سلوى الأملَ بأن تأتي بأختِها إليها.

يحتوي البوم الصور أيضاً على الصورة الوحيدة التي بقيت لأُمها، صورة لسلوى وأمها وأخوتها، هي الصورة الوحيدة التي استطاعت سلوى إنقاذها من المجزرة التي قام بها والداها فمزق وحرق كل يمت لأمهم بصلة، ولم يبقى على اي آثر لها في البيت كأنها ما كانت وكأنها لم تمر بوجودها من هناك وكأن من تركتهم خلفها من أولاد لم تلدهم هي لم تلدهم إمراة، سقطوا من على شجرة أو أتى بهم طائر اللقلق وتركهم على الباب والكل نيام. كانت تلك الصورة الوحيدة التي نجتْ من يدِ والدِها لأنّها في الأساس كانت موجودة عند سلوى، فاحتفظت بها وخبأتها سلوى بحرص شديد بعيداً عن الأعين ولم تدع أحداً يراها. في الصورة تجلس ندى الرضيعة في حضنِ أُمها، وتلتصقُ سلوى وباقي إخوتِها بأطراف أُمهم، تضحكُ صبحية لا مبالية، ضحكة من القلب وهي تضمّهم حولها مثل دجاجة ترعى صيصانها. تسترجع سلوى ذاكرتَها وكلَّ الصورِ التي تحملُها تلك الذاكرة عن أمِّها، وتسترجع كلَّ الكلام الذي سمعتْه في الماضي عنها. تأخذُها الذكرى وكأنها تفطن لها لأول مرة، وكأنها تمسح عن صورة أُمِّها غبارَ السنينِ

والحقدِ الذي تراكمَ وذهبَ بملامحِها وبذكراها، وتتذكرُ كم كانت أُمُّها حنونةً وطيبة ، وكم حمَّلتْها سلوى من آثام، كم كرهتْها، كم حقدَت عليها، كم تمنَّت لو أنها تستطيعُ أن تسحبَها من قبرِها وتقتلَها آلاف المرّاتِ لتعوّضَ بعضَ ما لحقَ بها من أذىً بسببِ فعلتِها النكراء. اليومَ تصالحَت سلوى مع ذاكرتِها، مع ماضيها، ومع ذكرى أُمِّها. اليومَ تفهمُها، تفهمُ أن تكونَ عاشقة. وتحقدُ على الشرقِ الذي قتلَها وحكمَ عليها هي وإخوتِها باليتمِ والعارِ وبالموتِ أحياء.

تعودُ بها الذكرى إلى ذلك اليوم، اليومِ الذي لا تريدُ أن تتذكرَه، ولا تقدرُ أن تنساه. ترى الدمَ يغطي وجهَها بالكامل ككابوس، كحلمٍ بشعٍ مؤلمٍ يتكرَّرُ كلَّ ليلةٍ ويأبى أن يغادرَها. صورُ ذلك اليوم تتوالى واضحة أمامها وكأنها آلة عرض تعرضُ الصورَ بأدقِّ تفاصيلِها وكأنّها حصلت بالأمس، تطاردها، تقلقُ ليلَها ونهارَها. نجحَت سلوى في أن تبعدَ تلك الصور عن ساعاتِ يومِها، طردتها بعيداً عن وعيِها، ولم تسمحْ لها بتعطيلِ نظامِ يومِها وعمله، ولكنها لم تفلحْ أبداً حتى اليوم في أن تطردَ تلك الصورَ من ليلِها وساعاتِ نومِها، تقفُ لها بالمرصاد وتطاردُ أحلامَها وكوابيسَها. ترى سلوى نفسَها راكضةً تختبئ في دارِهم في المخيّم، تدخلُ الحمّام، تفتحُ حنفيّةَ الماء، تغسلُ وجهَها المرّة تلوَ الأخرى لتزيلَ بقايا بقعِ الدمِ

التي التصقتْ به، ولا تفلحُ في مسحِها أبداً. نفسُ الحلم، نفسُ الرؤيا، ونفسُ الكابوسِ يتكرّرُ في أغلبِ الليالي، ترى الدمِ يطيرُ شلّالاتٍ ويغطي وجهَها، تغسلُه سلوى، تغسلُه ويبقى عالقاً، لا ينظفُ وجهُها رغم كلّ المزيلات والماء والصابون. تنظر في المرآة، فتراها في مكانِها، كأنَّها التصقت هناك إلى الأبد، كأنها أصبحتْ جزءاً منها ومن لونِ بشرتِها. تمعنُ سلوى النظرَ في المرآةِ فترى بقعَ الدّمِ تتحرّكُ وتغيّرُ أماكنَها بسرعةٍ عجيبةٍ وكأنّها أحجية، تدورُ قطعها الصغيرة والكثيرة إلى أن تظهرَ بالنهاية على المرآةِ التي تعكسُ وجهَ سلوى الغارقِ بالدم، وجهُ أُمِّها بكلِّ تفاصيلِه وأدقِّ ملامحِه، حزينةً تبدو، دون ابتسامتِها التي لم تكنْ تفارقُ وجهَها، هو وجهُ أمِّها مغطّى بالدمِ الذي ينزُّ من كلِّ مساماتِه، يملأُ الدمُ الحمّامَ حتى توشكُ سلوى على الغرقِ فيه، تحسُّ بالاختناق، فتستيقظُ مذعورةً لاهثةً تبحثُ عن قطرةِ هواء، جسدُها يقطرُ ماءً وفراشُها مبلّلٌ بالعرق.

كم تكرهُ والدَها، كم كرهَته في الماضي كما كرهَت أمَّها، كم كرهَت كلَّ الرجال، كلَّ الجيرانِ الذين اصطفوا يرقبون بعيونِهم الشرهة جسدَ أُمِّها، يصرخون ويهلّلون للنصرِ الذي حقّقوه ضدّ امراةٍ عزلاءَ من كلِّ سلاح، إلاّ جسدَها وشوقَها للحياة. ما تزالُ سلوى إلى اليومِ تذكرُ أصواتِهم، تذكرُ تكبيراتِهم تضجّ في

رأسها. ما تزال إلى اليوم تذكرُهم وتحقدُ عليهم كلّهم بسببِ مواكبِ التهنئةِ التي لم تنقطعْ عن بيتِهم لعدّةِ أيّام تباركُ لوالدِها بطولتَه.تدورُ بينهم سلوى، توزّعُ عليهم القهوةَ والحلويات، تحملُ فناجينَ القهوةِ وصحونَ الحلوى، تدورُ بها على النساءِ والرجالِ صامتةً واجمة، تجمّدتْ في عيونِها الدموعُ وسكنَ قلبُها السّواد. تمرُّ أمامَهم ولا تراهُم، تحقدُ عليهم كلّهم، والدها، ووالدتها، وكلّ الجيران نساءً، ورجالاً، وأطفالاً، وشيباً وشباباً. كم تكرهُهم كلّهم، ولا تراهم إلا جماعةً من الحمقى العاجزين نفسياً وجنسياً، وحتى سياسياً واجتماعياً، تماماً كوالداها العاجز الذي استقوى على امراة. تزوّجَها صغيرةً ولم يفكّرْ بها يوماً. كم ظلمَها، هو المظلومُ صاحبُ الحقّ الذي لم يفعلْ يوماً أيَّ شيءٍ ليبعدَ الظلمَ عن نفسه وعن وطنِه الضائع، ولم يشاركْ يوماً في أيّ عمل نضالي، لم يتبرّعْ بقرشٍ واحدٍ ليساهمَ في شراءِ السلاحِ لمحاربةِ عدوّه، لكنّه اشترى بارودةً ودفعَ ثمنَ الرصاصِ ليوجّهَه إلى صدرِ أُمّها، ولم يكتف بذلك، بل أصرّ على الفضيحةِ التي حملتْها سلوى وإخوتها، على ذنبٍ لم يقترفوه وعارٍ يلبسُهم مدى الحياة.

عاشت سلوى في السويد الكثيرَ من الإنهيارات النفسية، ولم تكن الكوابيسُ والهواجسُ لتتركَها .وجعها كان ساكناً في القلب، لا تمحوه الجغرافيا ولا بعد المسافات.لم تكن تجد إلا غادة تساعدُها

وتؤازرُها لتقفَ على قدميها من جديد. لكنها اليومَ أقوى ببدر، بحبِّها له، يستمعُ اليها بصبرٍ وحبٍّ عندما تعصفُ بها الهواجس، فيضمُّها برفقٍ كطفلةٍ حتى تهدأ روحُها المعذّبة. لا تريد سلوى اليوم أن تثقل على غادة، فهي المسكينة تغرق في مشاكل بيتها، وزوجها الذي تركها وترك السويد، وتزوّجَ من أُخرى صغيرة، ويعيشُ أيامَ عسلٍ على حسابِ غادة وأولادِها فيلبنان.

في الماضي، ظنّت سلوى أن علّتها وأوجاعَ روحها تكمنُ في شرقيّتها، فلو أنها تخلعُ عنها شرقيّتها، لو أنّها تبدّل اسمها من سلوى إلى ماريا، وتستغني عن اسم عائلتِها ليكون لها اسمٌ لا يحملُ ذكرى و تاريخاً، لا يرتبطُ بإرثٍ أوماضٍ، إسم عائلةٍ بسيط، عادي، مجرّد اسم وحسب. لكنَّها مع الأيام أدركت أنّ الحلّ يكمن فيها، بأن تقبلَ نفسَها كما هي، أن تتصالحَ مع نفسِها ومع ذاكرتِها ومع ماضيها، أن ترمي وِزْرَ الماضي وراءَها، أن تكونَ هي سلوى، لا أكثر ولا أقلّ.

جلستْ أمامَ شاشةِ الكمبيوتر، وأدخلتْ صورتَها مع أُمّها الى الجهاز، وجعلت منها الصورة الخلفية للشاشة. فتحت الماسنجر وكتبتْ لبدرٍ تسألُه عن موعدِ وصولِه، وأخبرته بأنها ستنتظره على محطة القطار، ثم نامتْ على وجهِ أُمها، نامتْ على دموعِها، يردّها إلى نفسها وعدٌ بالحياةِ وبالفرح تزيّنه ضحكةَ بدر التي

ستنتظرُها على رصيفِ المحطّةِ غداً، وشوقُها إلى حضنِه يلمُّ أشلاءَ روحِها التي بعثرَتْها صورُ الماضي.تقلّبتْ في فراشِها، ولم تنمْ إلا ساعاتٍ متقطّعةٍ من الليل، استيقظت باكراً جداً في الصباح.

يصل القطار إلى المحطة في الساعة الرابعة بعد الظهر، وكان قد مضى على غيابِ بدر أسبوعاً كاملاً قضاهُ بين اوبسالا واستكهولم، رحلة نصفُها عمل، حيث أوفدته الجامعة لحضور مؤتمر في جامعة أوبسالا، ونصفها الآخر خصّصَه للقاءِ الأصدقاءِ في استكهولم. أسبوعٌ كاملٌ دون وجوده مرَّ ثقيلاً على سلوى، قضتْه وهي تعدُّ أيامَ غيابِه وتنتظرُ يومَ رجوعه. بالأمس مرّت سنتان على أوّلِ لقاءٍ لهما، وبدر نسيَ الأمرَ تماماً كالعادة. لولا وجودُها لم يكن ليتذكّرَ حتى يومَ ميلادِه. لم تذكّره سلوى بهذا اليوم وحضّرت له مفاجأةً بالمناسبة، حجزت لهما غرفةً في فندقٍ في المدينة، وحجزت طاولةً للعشاء في مطعم الفندق، والذي يقع في أعلى طوابقه ويكشفُ المدينة كلها، بحيث تبدو جميلةً فتيّةً كراقصة، تلتوي بغنجٍ حولَ النّهرِ الذي يشطرُها إلى قسمين، وتنام بهدوءٍ على التلال تحتضنُ شواطئَ المدينة المطلّة على بحر الشمال.

عند الساعة الثانية عشرة، بدأت سلوى استعدادتها لهذا اليوم، أخذت حمّامها بعد أن صبغت شعرها ليزيد وهج احمراره فيغرق

بدرٌ حباً في كثافتهِ ولونهِ. خرجَتْ من حمّامها وجلسَتْ أمامَ المرآة في غرفة نومها، دهنتْ جسدَها كلّه بالكريمات والزيوت المطرّية. نظفتْ وجهَها جيداً ودلّكَته بالكريم المرطب، ثم بردَتْ أظافرَها وهذّبَت شكلَها، وطلَتها باللّونِ الأحمر الداكن ليتناسبَ مع لونِ شعرِها وبشرتها. ثم جلسَتْ تعدّ زينتَها، وسلوى لا تحبُّ التبرّجَ ولا تستعملُ مساحيقَ التجميل إلا قليلاً، وفقط في المناسبات أو في يوم كهذا. حدّدَت بالكحلِ الأسود زوايا عينيْها، رسمتْها بريشة، بحبٍّ وتأنّ، كأنّها فنان يرسم لوحته الأثيرة. ظلّلت رموشَها بالماسكرا، ثمّ صبغتْ وجنتَيْها بحرفيّة، وبشكلٍ يبدو طبيعياً جداً بلون زهري شفاف، وصبغت شفتَيْها بلونٍ أحمر صارخ كالنار، يظهر جمالهما وحجمهما، وهي تعرف بأنهما سيشعلان جنون شهوة بدر وشوقه إليها. أعدَّت حقيبتها التي ستأخذها معها إلى الفندق، فاختارت أجمل ما عندها من ملابس داخلية، قميص نوم كان قد قدّمه بدر هدية لها في ذكرى أوّل لقاء لهما. ارتدت فستاناً أسوداً أنيقاً ومثيراً بتحفّظ، يلتفُّ حول جسدها ضيقاً قليلاً من الأعلى حتى أوراكها، يغطّي صدرَها ويديْها، ويبدأ بالاتساع مبتعداً عن جسدها بعد الورك، يميل مع حركتها ويصل حتى كاحل قدمها، مفتوح من الخلف يكشف ظهرها كله ولا يلتم قماشه الا فوق مؤخرتها بقليل. ارتدت حذاءً أسود، ذا كعب عال، ولفّت نفسَها بشالٍ من الحرير المطرّزٍ بوردٍ وألوان الربيع. تعطّرت بعطر بدر المفضّل، وحملَت

حقيبتَها، وخرجَتْ من البيتِ الى سيّارتِها لتلتقي حياتَها، حبيبها الآتي بعد شوقٍ إليها على متن القطار.

وصلت قبل موعد القطار بعشرة دقائق، ووقفت على رصيف المحطّة تنتظر. قضت وقتَها في التسكّع ومراقبة الناس الذين كان يزدحم بهم مبنى المحطة وتعجّ بهم الأرصفة. يصلُ القطارُ إلى رصيفِه، يفرّغ حمولتَه من ناسٍ تحثُّ خطاها وتتوزّعُ في كلّ الاتجاهات، منهم من يركض ليستقلَّ قطاراً آخراً إلى وجهةٍ أُخرى، ومنهم من يكمل طريقَه باتجاه مبنى المحطة إلى الخارج حيث تبتلعُه شوارعُ المدينة. وقفَتْ هناك تراقبُ الناسَ وتنتظر، ومن مكبّرات الصوت علمَتْ أنّ قطار استكهولم سيتأخرُ قليلاً عن موعدِه، وقفَتْ متأففةً تنتظرُ ولا تهدأ على حال. ثم حسمَتْ أمرَها ودخلَت إلى مبنى المحطة لتقتلَ الوقتَ وتشتري علكة وزجاجة ماء. وقفتْ تنتظرُ دورَها لتدفعَ ثمنَ ما اشترته وتعودَ بعدَها إلى الانتظار على رصيفِ المحطة رقم واحد، حيث سيصل بعد دقائق قطارُ قلبِها القادم من العاصمة. وما أن جاءَ دورُها على الصندوق حتى سمعَت ضوضاء وصرخاتِ فزعٍ تأتي من خلفِها، من قلبِ المبنى الذي كان يعجّ بالمسافرين، مستقبلين ومودّعين. رجال ونساء، وشباب، وشيب وأطفالٌ، يركضون وسط المحطة. التفتت خلفَها لترى يجرى وراءها، ليس بعيداً عن المكان الذي كانتْ تقفُ

فيه. رأتهما، شابين يافعين يحملان أسلحةً رشاشةً وتزنّرُ القنابلَ خصريهما، يركضان ويدفعان الناس أمامهما، والناس يركضون في كل اتجاه بحثاً عن مخبأ يقيهم طلقاتِ الرّصاص. تركضُ سلوى معهم، تركضُ بهلع، تبحثُ عن مخبأٍ يقيها رصاصَهم وجنونَهم. يقتربُ الشابان، تسمعهما يصرخان بلغةٍ سويديةٍ سليمةٍ لا يمكن أن تكون إلا لمن وُلدَ وعاشَ ودخلَ المدرسة في السويد. تسمعُهما بوضوح، يصوّبان فوهتي رشاشهما نحو الجموع، وينطلقُ الرصاص، في كل اتجاه تنطلقُ رصاصاتهم المعدنيّة ورصاصاتهم المَنويّة. يقعُ الناسُ بصمت، وبدهشة، وبفزع، يقعُ الناس. ثم أتى الانفجار، تلاهُ صراخٌ هائلٌ اهتزّت له أركان المحطّة، ثوانٍ قليلةٍ ثمّ عمَّ الصمتُ المكان.

●●●

الفهرس	الصفحة

مقدمة:..... ٥

صبحية:..... ١٣

السويد عيد منتصف الصيف:..... ٤٩

غادة:..... ٥٥

رنا:..... ٩٩

سمر:..... ١٢٧

سلوى:..... ١٦١

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر